البندقدارى

رواية

عبد الفتاح مرسى

دراما تاريخية محققة

طبعة اولى
دفقات للنشر

- رواية البندقدارى
- عبد الفتاح مرسى
- الطبعة الاولى
- دفقات للنشر
- تحت رعاية الجمعية "المصرية للتكوين المعرفى"
- ت:٥٤٨٨١٥٢
- الاسكندرية
- رقم الايداع
- ٤٨٤٨/ ٢٠٠٦م

لوحة الغلاف للفنان السورى / أحمد الجفان

تنويه

ايها القارئ الكريم

عندما كانت روايتى – التى بين يـديك – تمتثـل للطبع، أطلع على أصولها السيد/ سامى الجنـدى وكـان وقتها عضواً بمجلس الشعب المصرى عن دائرة الرمـل بالاسكندرية. ولم يزل ذو مكانة فـى الحـزب الـوطنى الحاكم.

وقد اعجب بالرواية، وأقترح علىّ بـأن يقـدمها لإحدى شركات الإنتاج التلفيزيونى فى سوريا. لمـا هـو معروف من تقديمهم للأعمال التاريخية بصورة متكاملـة. وخاصة وأن له علاقـات وثيقـة بعـدد مـن الفنـانين والدبلوماسيين فى سوريا.

"طرت فرحا بإهتمامه.." ولم أمـانع. وأعطيتـه نسخة من الأصول مصحوبة بتلخيص للرواية. وأشترطت بأن أشارك فى كتابة السيناريو إن أمكـن– إذ كنـت قـد أعددت النص لقارئ الروايات المكتوبة. بينمـا الشاشـة تعطى للكاتب مساحة أكبر لتعميق الشخصيات والأحداث.

وسافر السيد سـامى الجنـدى بالأصـول الـى سوريا.. ثم عاد ليبلغنى بأن مما يؤسف لـه أن (مصـر) تقوم بتقديم (الظاهر بيبرس) وإخراجها فى مدينة الإعلام. كما أنه لا مجال للعمل الفنى فى سوريا، التـى تتعـرض للغضب الأمريكى الآن!

وشاهدت فى نهاية شهر رمضان الفائت المسلسل المتواضع الذى تم تقديمه عن الظاهر بيبـرس وبـذلك

توقفت أمالى فى تقديم هذا النص كعمل تليفزيونى متكامل وأملت أن أقدمه كروايه للقارئ.

كان ذلك فى نهاية شهر سبتمبر عام ٢٠٠٥م لكن فى نهاية شهر ديسمبر وبداية ينـــاير ٢٠٠٦م فوجئـــت بعرض مسلسل (الظاهر بيبرس) فى مسلسل تليفزيـــونى من إنتاج "شـــركة أبـــيلا الدوليـــة للإنتـــاج الســـينمائى والتلفيزيونى - دمشق / سوريا" بالاشتراك مع الشـــركة الكويتية للكمبل التليفزيونى
بإشراف عام للاستاذ / عامر الفهد
أخراج / محمد عزيزية. وكاتب السيناريو والحوار هـــو الاستاذ / غسان زكريا. تم عرض المسلسل فى ثلاثـــين حلقة على شاشة القناة الفضائية mbc I

وعندما أنقطعت لمشاهدة حلقات المسلسل وجدت أن كاتب السيناريو التزم بما جاء فى (روايتى) الى حـــد بعيد. دون الإشارة إلى أسم مؤلف النص، كما أنهم لـــم يختلقوا للمسلسل مؤلفا.

ضايقنى أنهم لم يشيروا إلىّ ككاتب للقصة. أكثر مما ضايقنى ضياع حقى فى أجرى كمؤلف.
وكنت أمل أن تكون روايتى هذه مقدمة لأعمالى الروائية والتاريخية الأخرى.

- العمامة والتاج رواية تاريخية
نشرت فى سلسلة دفقات للنشر
- المسخوط من سيرة على بلوط - رواية تاريخية
نشرت بدار الوفاء للطباعة والنشر
- بطليموس بين المسافة والضوء - رواية تاريخية
تحت الطبع
- الفواطم رواية تاريخية
تحت الطبع
- فتح المغرب رواية تاريخية
تحت الطبع

نعم كنت آمل أن يكون لى نصيب فى جدارة الأخوة السوريين. فقد برعوا فى تقديم النصوص التاريخية على الشاشة الصغيرة. وأنفقوا بسخاء على المعارك الحربية والملابس. والمبانى. ومجاميع الممثلين الذين تحتشد بهم تلك الروايات.. مع التدقيق والمراجعة التاريخية.
وإذ أضع - أيها القارئ الكريم- روايتى بين يديك. يمكنك مشاهدة المسلسل.. والمقارنة.

لقد تناولت بيبرس طفلاً وصبيا وشابا ورجلا وأميرا وهو ما ليس له وجود فى كتب التاريخ.

وآليت على نفسي أن أثبت حقي بكـل الطـرق الممكنة. وفي ذلك آمل أن أجد معونـة مـن زملائـي أعضاء أتحاد الكتاب في مصر..

ومن الشرفاء.. أعضاء أتحاد الكتاب العـرب فـي سوريا.

والله الموفق.

(١)
عندما صار مستند التمايز هو، لون البشرة!

فى أوائل النصف الأول من القــرن الثــالث عشر الميلادى، بيع صبى مملوك من الشركس فىأحد أسواق دمشق بثمن ٨٠٠ درهم، لكن المشترى لم يلبث أن أعاد **البضاعة** إلى صاحبها وهــو غــاضب لمــا تعرض له من غش، وأخذ يهدد برفع الأمــر لقــاضى دمشق ليوقع العقاب بالنخاس الغشاش!

فقد إكتشف المشترى عيبا أخفاه النخــاس فــى **بضاعته ولم يعلن عنه، إذ أن شائبة كانت قد أصابت** إحدى عينى الغلام المباع، جعلت على النــى نقطــة بيضاء أضعفت من بصر إحدى عينيه، وجعلته يبــدو كأعور.

حاول النخــاس إقنــاع المشــترى بالإحتفــاظ بالبضاعة المعيبة مع تخفيض السعر "خمسين درهمــا" لكن المشترى الغاضب تمسك بالرفض. أزاد النخــاس التخفيض إلى "مائه درهم" وأصــر المشــترى علــى الرفض،نزل البائع بالسعر إلى [ستمائه درهــم] ثمــن نعجتين أومعزتين، لكن المشترى كان لايزال متــأثرا بحالة الغش التى أصابته، فلم يوافق علــى الصفقــة، ورغب فى شراء غلام سليم معــافى **علىالفــرازة** !

واعتبر أن ما أعطى له غشا تجاريـــا يعـاقب عليـه القاضى الحازم.

ولم يكن أمام النخــاس إلا أن يــرد الدراهــم للمشترى، وهو يزجر هذا الغلام المعيوب ويســبه، إذ عاد إليه بعد أن تخلص منه، وقد اعتبره ضمن خسائره التى سيتعرض لها، وبات النخــاس يعاملــه بغلظــة، ويسومه العذاب.

لكن لم يمض وقت طويل حتى أمكن للبائع أن يدس هذا الغلام المعيوب ضمن صفقة مــن الغلمــان، إشتراها أحد وكلاء الملك الصالح نجم الديــن أيــوب، ومعظمها من الصبية المماليك، كى يربيهم الملك تربية عسكرية فى قلاعه وقصوره بالقاهرة، ويستخدمهم فى حرسه وجيشه.

وبذلك أمسى هذا الغلام الأعور، مــن جملــة مماليك سلطان مصر. والسلطان حينمـا كــان يفــرز الصفقه ويلمس أجسادهم بيديه، تأمل الصبى الأعــور ورآه فى صورة فهد شرس، فأطلق عليه اسم "بيبرس"، وقيل أنه "الثعلب الذى يغمض عينا ويحدق بالأخرى".

"..المملوك عبد أبيض.. يدين بــالولاء لأحــد الأسياد.. لابد وأن يكون له سيد يتحكم فيه وإلا إكتسب حريته بإفتقاد السيد المطاع.."

والمملوك يورث..قد يحمــل المملــوك اســم النخاس الذى باعه، أو اسم المدينة التى أتى منهــا، أو اسم أول من إشتراه، أو اسم المنطقة التى جــاء منهــا مخطوفا، أو غير مخطوف **مباع من الأهل** أو قادم فى

ضريبة الدم، ففى تلك الأزمان كان الفقر مدقعا، وكان الفقراء يبيعون أحد أولادهم لإنقاذ باقى أخوته من الموت جوعا.

وبأنتقال المملوك من سيد إلى آخر، تتراكم الأسماء فى إسمه، ولكن لا إسم من الأسماء يمت بصلة إلى صلبه.

وعادة يستقر المملوك فى قلعة من القلاع، وقليل منهم يسكنون القصور السلطانية، والحروب الدائمة كانت تؤدى إلى أن يقوم المنتصر بسبى النساء، وبيع بعضهم كجوارى، وإستخدام قوة الرجال فى الأعمال التى تحتاج إلى طاقة، إذا ما كان لونه غير أبيض "أما البيض فيتم تدريبهم وإلحاقهم بالحرس، وفرق الجيش المقاتلة ويكون ولاء المملوك لأخر سيد". بالنسبة له يكون هو **الأستاذ** حتى لو كان مملوكا مثله، ترقى، وأعتقته الوظائف الكبرى.

وعادة ما يعيش المملوك على مستوى "أستاذه" معززا مكرما، أو مهانا محتقرا..!!

فى كل الأحوال، المملوك "أبن موت" مهامه الأساسية الحرب والقتال، مدافعا عن **أستاذه** منذ بدأ هذا النظام فى دولة السلاجقة، على يد وزيرها الهمام "نظام الملك".

وقد تقلصت دولة السلاجقة فى أسيا الصغرى على يد الأتراك العثمانيين، ولم يتقلص هذا النظام الذى انتشر فى الممالك والإمارات الإسلامية.

عند صعود الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى عرش السلطنة فى مصر، كان قد أكثر من جلب المماليك وتنشئتهم نشأة حربية، حتى صار جميع حرسه الخاص ومعظم جيشه منهم. بلغ عدد ما أقتناه من مماليك أكثر من ثلاثين ألفا، وعندما طالت فترات السلم، كثرت مشاغبات المماليك ودب النزاع بين رؤسائهم، وهم الذين يتولون جباية الضرائب بحكم أن الأرض الزراعية فى مصر، يمتلكها السلطان، ويوزع أقطاعياتها على أعوانه وأقاربه وكبار مماليكه لإستغلالها دون التصرف فيها، ويتخصص بعضها لإدرار العائد على جماعات من حرسه وأمراء بيته.

• • •

لما تفاقمت المشاغبات بين المماليك وأولاد البلد من الحرافيش، والحرفيين، والتجار، والبائعين فى الإسواق، كان العامة يوسطون المشايخ الكبار، ويشكون للقضاة "حملة كلام الله" تجاوزات المماليك السلطانية، ومع توالى الشكاوى والنزاعات، قام السلطان ببناء قلعة للمماليك فى "جزيرة الروضة"، أغلقها عليهم، فعرف هؤلاء المماليك منذ ذلك الحين "بالمماليك البحرية" أو المماليك الصالحية، للفصل بينهم وبين المماليك البرجية الذين يعسكرون فى أبراج القلعة، أو الأبراج التى فى القلاع المتناثرة على طول الطرق التجارية، و"البرجية" هم المماليك الذين توارثهم السلطان، فعزل رؤسائهم، وأسند الإمارات والمناصب القيادية فى قصره وقلاعه إلى "خاصكيته" أو "مجلوباته"

الذين عرفوا "بالأجلاب"، ومنهم يتكون الحرس السلطانى لينام السلطان قرير العين!

• • •

لما كان الملك الصالح نجم الدين أيوب قد طعن فى السن، ووقع فى غرام جاريته الجميلة "شجر الدر" والتى كانت من بنى جنس المماليك، وتزوج بها فى أخريات أيامه. بدأ شأن المماليك فى المد والظهور، ومعظم مماليك السلطان الخاصكية يأتون من شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز، والقفجاق، وأسيا الصغرى، وبعضهم من فارس، وقليل جاء من البلاد التى تقع فى وسط أوربا، لذا فقد تألف "المماليك البحرية"، وإرتفعت بينهم الزمالة إلى درجة الإخوة، وخاصة وأن أمراء المماليك لم تكن النزاعات بينهم تؤدى إلى قتال ونزال، ما هى إلا تحرشات يمكن القفز عليها وحلها بالأصابع، وقليل منها الذى يتعقد حتى يحتاج إلى تدخل الأسنان!

• • •

البلدان التى جاء منها المماليك الصالحية هى الاصقاع التى اجتاحتها عواصف الترك والمغول، وأنشأ بها الترك والمغول ممالكا تنافس سلطنة بنى أيوب.

عندما أصاب الوهن بغداد فى عصرها الضعيف، الذى تميز بسيطرة الأجناد الأتراك بما يسمى بعصر الوزراء، وسرى التفكك فى اوصال الخلافة العباسية، صار الوزراء الأتراك يجمعون بين

"السيف و الإدارة" يبــدون للخليفــة طاعــة شــكلية، ويستأثرون بالعوائد والضرائب، حدث التفكـك الـذى صاحبه ضغط هائل من القبائل المغولية الكثيفة عندمـا زحفوا من صحراء جوبى، وحروبهم التـى إتسـمت بالعنف والإثارة وحنثهم بالوعود، واسـتباحتهم للمـدن التى تسقط فى أيديهم فيتم أسـتعباد الرجـال، وسـبى النساء، وبيع الأطفال، وينشرون الخراب والفقر أينمـا حلوا، إذ أنهم قوم لا يهدأون فى مكان لتنميته، وكأنهم حددوا هدفهم بإستعباد العالم، شرقه وغربه، فى ذلـك الوقـت يحـاصر الموت المـدن والقـرى والنجـوع والمضارب، فيسرب الناس أطفالهم إلى منصة النخاس درءا من الموت جوعا، وحتى يعثر الأهل علـى مـن يتكفل بأولادهم من الأسياد، من هنا لا يمكـن تحديـد الأصول النهائية للمماليك، فالضعيف عادة مـا يتشـبه بالأقوى، الذى فرض أسلوب حياته.

عندما كان العرب هم الأقوى، كـان الجميـع ينسبون أنفسهم للقبائل العربية المعروفة، وقـد أنقلـب الحال، تمركز الأتراك فى شبه جزيرة القـرم وأسـيا الصغرى، فإنتسب الجميع إلى القبـائل التـى تحقـق أنتصارتها فى الشرق، تقتل خليفة المسلمين فى بغداد، وتملأ نهر دجلة بالكتب التى جمعت من دار الحكمـة، وقد أصبح "المستند" هـو لـون البشـرة، إذا بجميـع المماليك حتى لو كان لون بشرتهم يميل إلى لون النيل، كان يعتبر أصولة "تركية أو شركسية أو أتيا من بـلاد القوقاز"..

يستنكف المملوك أن يكـــون "عربيـــا "، حتـــى يضمن الصعود إلى الإمارة، إذا ما أتيحت له فرصـــة الترقى .إذ حدث التآمر غير المعلن باستعباد الأحـــرار من العرب، الذين توالت إنتصاراتهم اذ توقفـــوا عـــن الزحف للإستمتاع بما بين أياديهم فبدأ زمن تراجعهـــم، لذا فإن السُمر والسُود سيأتى دورهـــم بعـــد البيـــض والصفر.

لقد صار لون البشرة، فى ذلك الزمن وحتـــى يومنا هذا، مستنداً صريحا ليتبـــوأ صاحبـــه الســـيادة ويحصل على مجمل المزايا..

• • •

الطفل المباع أو المنهوب وهو ينتقل من يد إلى يد، ومن حالة إلى حالة، لن يتبق فى ذهنه إلا ذكريات باهتة يلفها الغموض، وتلك الأمانى التى يجترها وهـــو يتلقى تعاليم دين وحضارة لعلها ليست لأبائه وأجداده، فأنه سيبدأ من جديد،مفتقداً ذلك الإتصال الخفى، تلـــك الشفرة الداخلية التى تؤكد دوما أنه جزء غير أصيـــل فى مجال ألقته فيه الظروف، تجبره الأحوال على حالة التكيف الجبرية.

• • •

معظم المماليك الذين صاروا قواداً، أو أمـــراءا لسلطان منتصر وقوى، يمكنهم أن ينسجوا لأنفسهم من شعاع الأمانى، تاريخا وماضيا، ليجترونه وهم صغار، يتشكلون فى قالب متقارب السمات بأيدى مدربين قساة، يعنفونهم بشدة إذا لم يتقولبوا فى القالب المـــراد، أو إذا

أخطأوا التعلم والتلقين والمحاكاه،عادة ما يقع على أجسادهم العقاب الصارم. فالتمارين طوال اليوم لتقوية عضلاتهم، وتعليمهم فنون القتال، لا تخلو من مشاق واصابات عديدة وأختبار قدراتهم على التحمل، ودائما هم فى القلاع المغلقة بالأبواب الغليظة، معزولون بداخل الأسوار العالية، وعلى المملوك أن يدرك شيئا من عداء الناس الذين يبدون طيبون ويبتسمون فى وجهه وهو بين جماعة متمنطقين بالسيوف والخناجر، أما إذا كان وحده، فإن هؤلاء المسالمون ينقلبون إلى وحوش مفترسة، تنتقم لما أصابهم من زملاء له، ضغطوا عليهم وآذوهم من أجل إستخلاص طلبات سيدهم، والأسياد بات ديدنهم العنف والقسوة، ذلك خلف حولهم بحرا من العداوات توجه ضد "المملوك" منذ نعومة أظافره، وعليه أن يدركها ويحاذر. أن لا يغفل فيضيع، أنه دائما يعانى من ذلك الإحساس بأنه مطارد بالموت والعداوات، عليه أن لا يشرد عن قطيع "الزملاء" ويشت بعيدا، أن يلوز بتلك الطاعة التى تضمن له أمنه وتحفظه فى نفس الوقت من الأخطار، لابد وأن تكون طاعة عمياء لا يسبقها أو يتخللها تفكير.

• • •

أعتاد صبية المماليك إذا ما وجدوا الفراغ اقتنصوا بعض الوقت لأنفسهم، قد لا يمضونه فى النوم، إنهم يستغرقون فى اجترار الأحلام، يطيبون بها ما أصاب نفوسهم من جراح وآلام، يربتون بها على

نفوس كبلتها الأسوار والمشاق، وإذا أمكنهم التحليق، حلقوا بعيدا مخلفين تلك القلاع ذات الأسوار العالية والغرف الحجرية والأبواب الموصدة، ومع تحليقهم البعيد، يوقنون، بأن الإمارة لا تأتيهم إلا بالطاعة المحفوفة بالمخاطر. وأن الحظ لا يحالف إلا أعدادا محدودة، يصادفهم الحظ من بين الألوف الذين لا تحالفهم الحظوظ، وأن الولاء قد يأتى بالفرصة، لكن الفرصة لابد وأن تكون متساندة على قلب ميت، أو على شجاعة خارقة، أو خبث وخيانة أصيلة!

• • •

فى زمن القلاقل والإضطرابات، يكون المبدأ الوحيد الذى يجب أن يؤمن به المملوك. "إقتل، قبل أن تقتل" كن دائما مطيعا لأوامر "مقدمك" لكى تريح نفسك، لا تسأل عن العلل والأسباب، أنت مملوك، وعلى المالك أو من ينوب عنه، يقع عبء التفكير والتدبير، لكى تحتفظ بروحك بعيدا عن الهاوية المظلمة، حاول بقدر ما تستطيع التقرب إلى "رب المسلمين"، أحمده وأشكره أنه خلق بشرتك بيضاء، وليست سوداء، ذلك يجنبك العمل اليدوى، والشقاء المقيم، يجعلهم يمنحونك سيفا وحصانا وعديدا من المزايا، وأمامك سيكون الأمل العريض فى أن تكون "المقدم"، "والقائد"، "والأمير"، واحمد الله أن صار لك أستاذا، هو أبوك وعائلتك وقبيلتك، كن لبنة فى قوته، إذ أن ضعفه وإنهياره فيه هلاكك وضياعك.

• • •

أما واللقاء منذ البداية بالمعلم قاسى القلب، لا يترك لمرحلة الصبا فرجة بأن تنمو أوراقها لتستشف شيئاً من ضياء الإنسانية والعطف، وبرغم هذه القسوة المتعمدة لوضع الجميع فى قالب محدد من الطاعة والشجاعة، فإن التعويض قد يتم بين الزملاء، فى نوع من التقارب الذى يتجاوز التعليمات المشددة، نكاية مما يصيب أجسامهم ونفوسهم، فهم يحتفظون بأرواحهم فى قفص واحد، بيبرس وقطز وبلبان وسنقر، فالأعمار متقاربة، وأن يتعاهدوا إذا ما إمتلك أحدهم فرصته وقبض عليها، أن يتذكر بأن له جزء لا يتناساه، عليه أن يتعهد بجمعه ليكتمل الفؤاد الذى يتمادى فى الأحلام، الأحلام التى تحفظه بعيدا عن أسوار القلاع العالية، كالسادة وليس كالعبيد.

الاحلام التى تحفظ روحه وثابة بالأمانى فتمنح حياته الأمل، ذلك الأمل الذى يجعل لها معنى، وأنه ليس قالب جامد فى أسوار القلاع والقصور، بل أنه إنسان يحلم بالتحليق والسيادة.

وفى ذلك "المملوك" يستعيض عن الأخوة الحقيقية، بأخوة الدين، وعن صلة الدم، بالرفقة، فصار للرفقاء حقوقهم عليه، وحقه عليهم، وأن يحفظ كل منهم دائرة الأخر التى تتقاطع مع دائرته، وأن لا يجور عليها، ففيها جزء من قوته ونجدته، وعند الضرورة، تندمج الدوائر الخاصة فى دائرة "الأستاذ" الذى سيوزع عليهم المناصب المصحوبة بالمزايا، إذا ما كتب له

الإنتصار على منافسيه وأمكن له القفز على ميزة كبرى وعرش يخلو من صاحبه!

• • •

كان المماليك فى زمن السادة الأشراف، يتمنون أن يعيشوا مثلهم، منعمين فى بساطة وتواضع هذه السيادة، وإذا ما ملك "المماليك" زمنهم، وتعالى مدهم، وأمسكوا بأعنه الأحوال. أصبح السادة الأشراف يتمنون عيشة المماليك، وقد صار من المماليك الأمراء والسلاطين. انفتحت شهيتهم للسلطة والنفوذ، فيما يقال:

"كان فى جرة، وطلع برة"

إذ باتت الأمال تداعب الأفئدة، بل وتعصف بها. تلك الأفئدة التى عمل المعلمون قساة القلوب على تفريغها وقولبتها على الطاعة العمياء، وأن يكون أقصى ما يتمناه المملوك أن تمضى حياته هادئة بدرجة نفر، مظللا بظل أستاذه القوى، وفى النهاية، يموت من أجله.

لعل الأمانى تنوعت، فملأت نفوسهم بالرغبات، أن يبدأ المملوك حياته "عريف قائد أربعين" ثم مقدم لمائة، وأميرا لألف، ليكون له فرصته للوصول إلى "ركن من أركان السلطنة" له الإقطاعيات، يقتنى المماليك الخاصكية، ويجالس السلطان كأمير أمراء لعشرة آلاف، وهذه الرئاسات لا تأتى إلا إذا اختير لوظيفة معينة بقصر السلطان، يعاونه فى ارتداء ملابسه "جمدارا" يحرس خزائنه ويتسلم أمواله "خازندرا" أو يكون مسئولا عن الأسلحة "سلحدارا" وقد

يكلف بتجهيز الطوابى "طوبجيا" وقد يثق فيه "السلطان" ويقربه من أسراره، فيتحول إلى كاتب "دويدارا" وفى كل الأحوال فإن الوصول إلى حياة القصور، وجناح يمتلئ بالحريم، وإقتراب مأمون من المال والجاه. يبدأ من الوظائف الشخصية فى قصر السلطان، وهى أولى درجات الوصول إلى الإمارة، فمنذ كان "بيبرس" فتى ينفق معظم وقته فى التدريب وتنمية بدنه، كان فى نفس الوقت، "يحلم" بالفرصة المواتية التى تلحقه وتقربه من الأمراء الكبار..

فرصة يعبر فيها عما قد تدرب عليه، أما أن يموت ويرتاح من الشقاء، أو ينتقل إلى الجنة التى على الأرض.

ذلك النعيم المقيم الذى يتضخم فى حكايات الفتيان المماليك، وقد اعتادت أبدانهم على الشقاء، وما فتئ النوم يجافيها، فيعزفون على أبدانهم أحلامهم المتوقعة والمأمولة.

(٢)
عندما يكون نشاط عزرائيل عامل مهم للحراك الإجتماعى

الأحلام التى يجترها المملــــوك الــذى يقــوم "المعلم" بعجنه وتشكيل جسمه ليلائم فروسية العصـــر ومعاركه. يكون الملاذ له لإستعادة نفسه وآدميتهـــا، أن يأتى الصبى المملوك وهو محبوس فى الأبراج والقلاع المعزولة بشئ مضاد، يقاوم به سحقهم له!

• • •

كان بيبرس وقطز وبلبان وسنقر وغيرهم مـــن صبيان المماليك، قد فقدوا ميدان لعبهم منذ الطفولـــــة، لم يعيشوا مرحلة لها أهميتها، إذا ما تشبعت نفوســـهم بالمشاعر، فالمملوك المحجـــوز بقســـوة خلـــف هـــذه المرحلة، سيكون مظهره، فارسا مغـــوارا، ولكـــن إذا فتشت فى نفسه، فسوف تعثرعلى ذلك "الطفل" الــــذى ينتظر العبور على حافة النهر إلى الضفـــة الأخـــرى، باكيا.

واللعبـــة المتاحـــة بداخـــل القـــلاع، ســـتكون "الحكايات" الحكايات التى تقلب فيها الأذهان والألسنة، وتستعيض بها عن قسوة الواقـــــع، تكـــبر وتتضخـــم، تتضمن المحللات والمحرمات، تنقص وتزيـــد، يعـــدل فيَها ويبدل، لكنها ستظل القارب الذى تعبر به الأرواح

المكبلة بداخل الحجرات الحجريـــة، يـأمل المملــوك المسحوق فى شمسها البعيدة، أن تشرق..!

من هنا سيعيش المملوك، بــل سينشـأ علـــى "الروايات" التى سيكون لها جزء ظاهر فـــى الواقـــع، والجزء الأكبر مغمور بنسيج الخيال، وبعضهم لتطور فى البراعة، ووقت متاح من العزلة، سيقدم حكايته فيها ما يشبه الصدق والحقيقة المعاشة، حتـــى أن زملائـــه الذين يعرفون كل شئ عنه، سيكون أول من يصدقـــوا "قصته" التى تمنى أن يلعب فيها الدور الرئيسى، وهـــو يذكر الأسماء التى توهمها والأماكن التى وردت علـــى لسان الحالم، تتحول إلى حقائق فى حياته، وعلامـــات يصير معروفا بها، أنه يكذب لدرجة أن يصدق نفسه، بل ويصير مؤمنا وشديد الإيمان بكل ما خلفه وأبدعـــه فى لحظة إنقاذ من السحق، ليس أمام هذا المقهـــور إلا الشطح ليفلت.

• • •

الشطحات اذا ما أمتلأت فراغاتها بالتفاصيل لا تختلف كثيرا عن التاريخ الشخصى المندمج فى التاريخ العام، وقد ثبت أن الزائف أكثر من الحقيقى. فى ذلك، يتميز "العلماء" باستخلاصهم للأصيل القليل مـــن بيـــن أكوام الخبث والتضليل.

• • •

المملوك قطز رأى نفسه أنه ابن أخ الملك علاء الدين خوارزمشاه، ملك الدولـــة الخوارزميـــة التـــى انهارت أمام جحافل التتار، من الذى يجرؤ من الصبية

المماليك أن يكذبه؟ وبيبرس نفسه، صـــــار بندقــداري ومنسب للعائلات المالكة في القوقاز..

ويحدث أن تأتي الأيام بالظروف التـــي تبـدل الأحوال، فتضفي على ما كان خيالا، حقيقة، لا أحـــد يبحث خلفها، فالحروب سمة العصر، وهي التي تتكفل بإزالة القائم وبناء المنهار، وتشـــكيل المجتمعـــات أو تفريقها، فمن يفلتون من الموت ستكون مكافــآتهم أن يصدق الناس رواياتهم، ويتناقلونها في شئ من المحبة.

• • •

الحروب دائما ستكون مجالا للحراك، الصعود والهبوط، الحياة والموت في ذلك الزمن الذي وقف في أستحياء على بداية العصر الحديث، كان في الواقـــع، زمنا يمتلئ بالطموحات، اذ يمكن لشخص مغـــامر أن يكون أميرا أو سلطانا إذا أحسن التدبـــير، ثـــم يتكفـــل الادباء والقراء، بنسج تاريخ خاص له.

ففي وقت السلم لا تكون الفرصة متاحة إلا لعدد ضئيل كي يصعد ويستقر في البقعة المضيئـــة، إذ أن النشاط الذي يتولاه عزرائيل وقت السلم الطويل يكون بطيئا في مجتمع خطط نشـــاطه "الاقتصـــادي" علـــى الموت بالأعداد الكبيرة لتتنـــاقل الـــثروات، ويحـــدث النشاط في المنشآت والأسواق، إذ أن من يبني مســـجدا يتقرب به إلى الله في الأخرة، ويثبت ثراؤه في الدنيا، إذا لم يرحل ويأتي آخر يحل في قصره ويمسك بزمام وظائفه، فسوف تتعطل حركة المباني الجديدة وعمـــل الصناع، ونشاط التجار، إلى وقت طويل!

وجماعة المماليك أنشئت اجسامهم على التدريبات الشاقة، والنظام، وتكرار التدريبات بالنشاب، والسباحة، والفروسية، واللعب بالسيف، والضرب بالرماح، والقذف بالأطواق، والمصارعة، وتتوفر لهم وجبات الغذاء المطلوبة، انهم يكونون فى حالة حركة لا تتيح لعزرائيل فرصة لأداء عمله جملة إلا فى زحام التصادم والحروب، الحروب التى يتمناها شباب المماليك، ففيها يذهب الكبار ويتم اختيار بعضهم لشغل وظائف من رحلوا، وجرت العادة أن يحل مكان المملوك الراحل، مملوك جديد يعيش فى منزله، يتزوج من إمرأته، وينشئ له أولاده!

وفى ذلك نقلة كبيرة، ومفاجاة لمن يقع عليه الاختيار، فهو لن يخرج من قسوة الابراج والقلاع ليبدأ الدرج من أدنى الدرجات، بل أنه سيصعد إلى الدرجة التى كان يشغلها من رحل ويحل مكانه فى يوم وليلة!

• • •

لذا كانت الحروب "كلما كبرت" كلما طرأ التغيير والتبديل على عدد كبير من المماليك، الحروب تأتيهم بالفرص والمال ورغد الحياة، كما أن عزرائيل سيثبت فيها مهارته فى حصد الأرواح، ومن سيموت ستكتب له الراحة الأبدية ويفلت إلى "جنة" عرضها عرض السماء والأرض، فقد مات شهيدا ومضحيا فى سبيل الله، إذ أن كل الحروب، وحتى المؤامرات الوضيعة، كانت تتسربل بالثوب الدينى، فى عصر لم يكن متاحا للعقل فيه أن يعمل إلا فى حدود المطامع

الشخصيه.. طبيعى من سيعيش من المماليك، ستكتب له الراحة الدنيويه، فإن السلاطين قد اعتمدوا على المماليك كحراس، أو كمحاربين لتحقيق أطماعهم وحمايتهم بجيش يتشكل فى معظمه من المماليك، يمنع أى "ابن بلد" بأن يلحق به، فى قسمة تحفظ جميع الأنصبة للأجلاب وتلقى بالفتات للعرب والمصريين ففى ناحية تخص العمل فى النشاط الأقتصادى يكون أبن البلد، ويترك للمماليك النشاط الحربى والعسكرى.

تلك تحديدات المجتمع الاقطاعى المقدسة، عندما يتوارث الابن مهنة أبيه، والفقير فقر أهله، ويكون الحراك إلى أعلى فى غاية الصعوبة، فالمجتمع الأقطاعى، مجتمع الدوائر الثابتة، كل دائرة تحيط بجماعة أو فئة، تكون فى الغالب ثابتة الأوضاع بغرض السعى إلى الإستقرار، والموت وحده، هو الذى يحرك فيها ذلك الحراك الداخلى البطئ.

• • •

أما الدائرة العليا المحمولة فوق الدوائر جميعها، فهى دائرة السلطان وأهله وقصره، والذى هو فى نفس الوقت "مقر الحاكم والحكومة"، بداخله حراس القصر، وحوله فرق الجيش والأمراء وأمراء الأمراء، والوظائف الأخرى المتقاطرة من "نفر" فى "فرق" السلطان، إلى "أمير" الأمراء، وركن من أركان الدنيا والدين، والسيادة..

• • •

مقدم أربعين، "قائد مائه"، أمير ألـــف، ركـن لعشرة آلاف، ونائبا للسلطان فى ولاية أو أقليم، يعيش فيه المملوك عيشة السلاطين، فـــى صــورة لا تنقـل للمملوك الأشياء، بل تنقله إلى تلك الأشياء، فيســتمتع بها، فجأة يحاط المملوك بالثروة والنفـــوذ والعظمــة، يحاط بالأدباء والكتاب والشعراء والمشـــايخ وكثـير ممن يعملون فى أن يتيه المملوك بنفسه، ويستلذ بأيامه الجديدة، عندما يحاط بالادبـــاء والكتــاب والشــعراء ومبدعى المباهج.

• • •

وإذا ما صار المملوك ركنا، تعتقــه الوظيفــة ويمنح الحق فى شراء المماليك من حر مال وظيفتــه واقطاعاته، يحبسهم فى برجه، ويأتى لهــم بــالمعلمين القساة ليعلموهم الطاعة والعسكرية، يعيد ما مــر بــه، وأن يكونوا له كقوة تحرســه وتخدمــه كسـيد، بهـم سيشارك فى حروب سلطانه، لكى ينعم عليه الســلطان بالإنعامــات بقــدر هــذه المشــاركة، وكلمـــا زادت الإنعامات، أزاد قوة مماليكه لتزيد الإنعامـــات، حتــى تصل إلى حد مشاركة السلطان، والتآمر عليه، ليحــل محله.

"يا لها من عجلة لا تتوقف. وقودهـــا المــوت والقتل والدم.

ومن يتأمل هذا النظام سيجد أنــه يحمــل فــى طياته الدوافع الدائمة إلى القلاقل والحروب، واستمرار نقل الثروات من يد إلى يد، ذلك يدور فى كل دائـــرة

على حدة، مما يعطى شعوراً عامـــا بالثبـــات والســـلم الطويل، طالما أن الخطر ليس خارجيا، والحقيقـــة أن هذا التفاعل المخطط له والذى يعكس حالة انتعاش فى الحياة الاقتصادية وتحريكها باستمرار يدفـــع الأمـــراء الجدد لأن يتعاطفوا مع العامة، ويحسنوا إليهـــم كســـبا للشهرة، وإذا تجمد الوضع، قـــل التعـــاطف وتوقفـــت الإحسانات، مما يجعل الفقراء يســـعدون بالصراعـــات التى تقوم من حين لآخر بين قوى الممـــاليك ،وذلـــك التنافس الخطر بين الأمراء.

لكن الأمر يختلف تماما إذا جاء الخطـــر مـــن خارج الدوائر المحلية، ففى ذلـــك تحـــدث تحـــولات خطيرة تؤثر على مظهر الثبات للمجتمع الدوائرى، أو الفئوى، كما حدث فى آخر عصر سلاطين الممـــاليك، لما جاء السلطان العثمانى غازيا لمصر، فـــإن فـــترة طويلة من الزمن مرت، وخســـائر ضخمـــة للمزايـــا المملوكية فقدت. حتى تم لهـــم اســـتعادة جـــزء مـــن مكانتهم، وقد رضوا بأن يكون موقعهم "متوسطاً" بيـــن الفقراء والأغنياء، المحكومين والحكام، وأمام عمـــوم الفئات غير التركية فهم الأسياد، لكن أمـــام العنصـــر التركى الفاتح، فهم "العبيد" الذين يسخرون طاقتهم فـــى خدمتهم!

• • •

إذ كان المماليك قد بدأوا حياتهم مستعبدين لسيد يملكهم ويسخر جهودهم لصالحه، فأنهم انتقلوا للســـيادة تحت ضغط خطر خارجى أمكن له أن يـــأتى بســـفنه

الهائلة، وجيوشه الجرارة، ليهبط كالصاعقة على شواطئ مصر فى دمياط، يحتلها ويستبيحها، ويبنى فيها استحكاماته، يتطلع إلى قطع المسافة فى حقول الدلتا ومزارعها إلى القاهرة بغرض إسقاط عرش الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهدف الفرنجة كان، السيطرة على املاك الدولة الأيوبية فى مصر والشام.

والدولة الايوبية فى آخريات ايامها كانت تعانى تفككا وضعفا شديدين، وقد تنافس الملوك الأيوبيين فى الشام ومصر، حتى طمع فيهم الطامعون، وقد جاء من فرنسا، "لويس التاسع" الملقب بالقديس، يقود حملة كبيرة تحمل شعار الصليب يريد أن يضع حدا نهائيا للحروب التى تثار بين الصليبيين والمسلمين لصالحه، وأن يخلص ثأر أوربا من المجاهد الأعظم، صلاح الدين الأيوبى. واستهدف أيضا أن يتسلم من أحفاده أملاكهم فى مصر والشام مقابل ما ألحقه "جدهم" من هزائم لأوربا، عندما فتح "بيت المقدس".

• • •

فى أولى خطوات الحملة الصليبية والنجاحات التى تحققت لها تباعا بدا أنها نزهة لقوة بحرية ضخمة يقودها القديس، مصحوبة بعدد كبير من ملوك الفرنجة، والذى وزعت عليهم مسبقا المناصب العليا فى مصر والشام وسواحل بلاد العرب، وأفريقية.

" الصليب الذى رسموه على ملابسهم ودروعهم من أطماعهم براء"

والحملة فى مظهرها، وفيما أتت به من أفعال التدمير والتخريب والإستباحة، ألحقت بالأمنين من الأهالى، الخراب والدمار والقتل. كان ذلك لبث الرعب فى القلوب، وإزاحة التفكير فى المقاومة، وحتى لا يتحرك السلطان بمماليكه، أما أن يهرب إلى الشام وينحصر هناك كضيف ثقيل، أو يجابه الجيوش الصليبية الجرارة وهو فى ضعفه ومرضه، فيهزم ويتم حسم الأمر سريعا.

أما إذا ظل السلطان مستحكما بالقاهرة فتنزع منه أراضى الدلتا، ويأتى الفلاحين الأوربيين لزراعتها إذ ستوزع عليهم، تمهيدا لإسقاط قلعة صلاح الدين وطرد الأيوبيين منها.

•••

لم يكن باديا أمام الصليبيين من المقاومين إلا أفواج من الأهالى، يقود بعضها شيوخ الطرق الصوفية، من بقايا الدولة الفاطمية الذين يأملون فى إستعادة "دولتهم الشيعية" التى أستأمن عليها صلاح الدين فمنحها لنفسه وباتت إرثا للطامعين من ورثته!!

لكن المفاجأة التى أذهلت لويس وأركان حربه أن السلطان نجم الدين أيوب لم يهرب ولم يتحصن بالقلعة، بل أتى إلى الدلتا لكى يوقف تقدمهم، إذا هم ملكوا دمياط، فلينشئ أمامها مدينة جديدة، لتكون معسكرا كبيرا فى فارسكور، يعطل الزحف ويصيب الفرنجة باليأس، حتى يركبوا البحر عائدين من حيث أتوا.

• • •

المناقشات المستفيضة إنتهت إلى تحبيذ فكـــرة ملاقاة الأعداء وعدم إنتظارهم بالقاهرة، فإن سيطرتهم على الدلتا ذات الخيرات العديدة لهى كارثة على مصر والشام.

لذا شهل السلطان وأتى إلى فارسـكور بعتـاده وسلاحه وأمواله وحريمه ومماليكه، مع أن ذلك أخــذ وقتا، وخاصة وأن "السلطان الشيخ" كان مرهقا، وكبار الأمراء المماليك كانوا يكثرون من تقليب المواضيــع، وبينهم كثير من التنافس، أقواهم كان الأمير "اقطـاى"، أما "أيبك" فكان كثير التوجس والريبة، مع أنـه يملـك القوة التى تعادل قوة اقطاى، ويأتى بعدهمـــا ركنـان آخران "بلبان" "وسنقر" وعلى مسافة من الأمراء الكبار، كان يأتى قواد مماليكهما الخاصكيـــة قطـز لأيبـك، وبيبرس لإقطاى..

• • •

وبينما حملة لويس تتمركز فى دمياط وترســل بالسرايا والكشاف فلا يجدون مقاومة لهــول المفاجــأة التى حدثت، والكرشة التى أجبرت الأهالى بأن يجفلوا من أمامها، راح الملك لويس يرسل بالرسل إلى أمراء المماليك، بواسطة ذلك الطابور "الممالئ" الذى ينضـم عادة إلى الغزاة، ممنيا نفســه بأنــه صـاحب الحـق الشرعى فى البلاد، ويعتقد بأن الصليبيين ما جاءوا إلى مصر إلا من أجــل رد الحقــوق لاصحابهــا. الــذى سيوافقون مقدما على المشاركة فـــى حكـم مصــر،

ينخدعون بما يطلقونه الدعاة بأن لويس القديس جاء ليخلص مصر من يد بنى أيوب "الغرباء" ويقدمها على طبق من فضة إلى المطالبين بالعرش الفاطمى !

ليحدث ذلك الإنقسام فى صفوف الجمهور وهو الجمهور الذى يخشى لويس أن يلتفت للجهاد كما يدعوه دينه إلى ذلك!

• • •

•• سوف يحاط الملك لويس، وملوكه من أركان جيشه العرمرم المشحون بالغضب والتعصب بآخر أخبار بنى أيوب فى نزعاتهم وعداواتهم وتفتيتهم للملكة القوية، إذ أن مظاهر الضعف عادة ما تحل إذا ما إنصرفت مصر عن الشام، والعكس صحيح.

ولعل الملك لويس كان يعلم بوهن "الشيخ السلطان" وغضب إبنه تورانشاه، وكيف أنه نفاه، وحبسه هناك مع قلة من مماليكه فى قلعة كيفا بديار بكر، حتى لا يتغلب عليه "وقد أنفجر غضب ابنه تورنشاه على أثر تزوج الشيخ السلطان من شجر الدر" "الجارية الكردية" كما أحاط الغزاة بالخلافات الناشبة بين أمراء المماليك، وتنازعهم، وتلك الطاعة الشكلية التى أدمنت فترات السلم، حتى جعلت المماليك ليس بأهل حرب، بل أهل أطماع وتنازع وثراء.

• • •

ولعل الملك لويس فرك يديه أبتهاجا، فكل شئ فى مصر مهيئ لتأسيس مملكة مسيحية على أرض "مصر والشام"، والشطب على إنتصارات المسلمين فى

عهدهم الأول على اعتبار أنه لم يكن هناك قديسا مثله يصدهم.

ولعل الذين سمعوا هذه الأخبار من قادة حملة لويس فركوا أيديهم أيضا وسال لعابهم على الغنائم والثروات التى تنتظرهم، بل تدعوهم أن يخطون إليها، وينتزعونها من "العبيد" إلى "الأحرار".

كما لاح للقديس لويس. أنه جاء فى الوقت المناسب، والثمار طابت، دانت قطافها، ما عليه إلا أن يقطفها "بأقل الجهود".

ولم يكن أحد يدرى بأن حملة لويس على دمياط، كانت الباب الذهبى لصعود المماليك إلى عرش سلطنة مصر والشام، وبداية عصر جديد من القوة الإسلامية الجديدة.

نعم فالحروب فى معظم احوالها تأتى بالمتغيرات الهائلة!

ففيها ينشط "عزرائيل" إلى آخر مدى، وتنصهر المعادن.. فيعلوا معدن على آخر.

إذ أن البطولة لا تظهر إلا فى الملمات!

(٣)
الأبواب الذهبية للثراء والنفوذ

☐ **حملة** لويس التاسع "الصليبية" على دمياط، بما جلبته من خراب ودمار، ستكون الباب الذهبى الذى يدلف منه المماليك الصالحية إلى السلطنة، فيتبوأوا عرش مصر ويستمتعوا بالسيادة والملك، الجاه والنفوذ، إذ سيبدأ عهدهم منذ تلك "الحرب" التى ستتيح الفرصة "لبيبرس وزملاؤه" ليثبتوا أنهم أحق بالإمارة بما قدموه من تضحيات وبلاء أمام جسامة وأخطار الحملة الثقيلة، والتى جهزت لتجتاح مصر والشام.

• • •

كان الملك لويس يعقد على حملته الآمال العظمى فى أن يكون هو "القديس" الخالد الذى ينتقم من المسلمين، ويثأر من مجاهدهم الأكبر "صلاح الدين" عندما يهزم ويحطم جيوش "أحفاده" وينكل بآل أيوب، ويزيل أسطورة شجاعتهم، ويضم أملاكهم إلى أملاكه.

• • •

لكن فى خضم المعارك العديدة التى دارت بين المماليك وجيوش لويس، حدثت التحولات مع ما شابها من مفاجآت، فقد علم أمراء المماليك الكبار أن سلطانهم نجم الدين أيوب قد مات "أثناء سير المعارك

الضارية" فأخفوا ذلك الأمر بواسطة (شجر الدر) واستخدموا أختامه، وتحدثوا باسمه، إذ أنهم حاربوا معركتهم اليائسة، النصر أو الموت، فأمكن لهم أن يحققوا ذلك النصر العزيز، بل وأن يؤسروا "القديس لويس" بدار ابن لقمان فى المنصورة، ولم يطلق سراحه وسراح ملوكه وأمرائه المنهزمين إلا بفدية كبيرة من الذهب.

"جاء ليأخذ فدفع" وكان "الجميع" عند النظر إلى الوظائف والعطايا، يضعون "الأعور الجسور" فى مقدمة السجلات التى يجب أن ينظر فيها السلطان، إذا ما بلى من المرض، وأمكنه توزيع الترضيات، أن يحصل بيبرس بطل "معركة القصر" فى فارسكور، بالنصيب الملائم، لأهمية هذه المعركة.

• • •

بيبرس وهو يمنى نفسه بالأمانى، رأى أنه قد لاحت له فرصة عظيمة، فعادلها بالموت. وكان جسوراً، فاهتبل البطوله، مستهدفاً باب النفوذ والجاه، وبات يحلم بالمكافأة والإمارة،ولم يكن يدرى بأن السلطان قد مات. وأن شجر الدر والأمراء الأربعة الكبار يتكتمون الأمر منذ بداية المعارك تقريبا، حتى تضع الحرب أوزارها. بما فى ذلك من مرارة التحول من العمل فى فرقة السلطان (صاحبة المزايا)، إلى كونهم "قرانيص" سلطان سابق وإرث لسلطان قادم، مزاحين إلى الهامش، وملقى بهم إلى المهام اليائسة،

أنها المعاناة، يحاربون معركة كبرى وقد يستولى آخرين على انتصارهم الشاق!

• • •

فى ابراج الروضة بالجزيرة التى يحيط بها النيل وتسمق فيها الأشجار وتتكاثف على أرضها الخضرة، وتتنوع الألوان.

نشأ المملوك بيبرس، يتدرب حتى الارهاق، ويختلس النظر الى ما حوله، فيغيب فيما وراء النهر، يزيل ما على ضفافه من قصور، يقيم بها الكبار يتنعمون ما بين السلاملك والحراملك، المشهد المنبسط مع النيل الذى تسبح على صفحته السفن الشراعية.

مع فترة السلم الطويلة، شذبت نفس الفتى المليئة بالأشواك، وأمكن أن يتآلف، بما يجتزه من أمانى وأن يهدئ من شراسته، وقد ولت أيام التدريب القاسية وبدأ الانخراط فى المهام المحددة، والفرق العسكرية فى أيام سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب، كانت تتوزع على ثلاث فرق نظامية،كل أفرادها من الأرقاء،ورؤسائهم من عتقاء الوظائف والمختارين من المماليك، والجميع يعملون فى خدمة سلطان هادئ النفس محدود الأطماع، قنع بما بين يديه، كابرث متوارث عن الآباء، وقام بجلب "خاصكيته" وفرزهم بمعرفته، لمس أجسامهم الفتية، فنشأت بينه وبينهم تلك العلاقة التى تقع وسطا بين عاطفة المالك وعاطفة الأبوه، تتمحور فى "الملكية والأبوية!!".

• • •

بيبرس وجد نفسه ينضوى إلى أولـــى الفــرق، وهى طائفة المماليك السلطانية، والتى تتكون "أو ينبغى أن تتكون" من أعظم الأجناد شأناً، وأوفرهم إقطاعـــاً، وأرفعهم قدراً، وأشدهم قرباً إلى سلطان البـــلاد الـــذى كان أكثر اطمئناناً لهم، فهم حرسه الخاص، وحـــراس قصوره، وأمواله، وحريمه، وعياله، وكنوزه، ومعهـــم تتغلق الأبواب وينام قرير العين!!

• • •

حصل بيبرس على درجات الترقى فـــى هـــذه الطائفة، رتبة بعد رتبة، وعلى مسافات متباعدة نظـــراً لطول فترة السلم، ووجود المنافسات المعتـــادة "ولكـــل طموحاته" حتى الثورات الداخلية التى تكتنـــف حيـــاة السلاطين، كانت فى حياة الملك الصالح نجـــم الديـــن أيوب، تكاد تكون معدومة،أو يمكن إطفاء ما يثور منها دون تحريك لقوات محاربة كبيرة، فـــالعدل النســـبى، جعـــل العربـــان يهـــدأون، والنوبيـــون يخضعـــون، والمصريون يلتصقون بأرضهم.

وقد تسمت الفرقة التى ألحق بها بيبرس باســـم الصالحية، ويقال لها "البحرية" نســـبة لســـكناهم فـــى معسكرات تربيتهم فى جزيرة الروضة، وحتـــى يتـــم تميزهم عن المماليك المتوارثة "القرانيص، ومفردهـــا "قرنص" أو "البرجية" وهم غير الأجلاب الذى يشتريهم السلطان ويقوم بتربيتهم بنفسه، ويلتقـــى بهـــم كثـــيراً، ويشاهد تدريباتهم، ويتخير منهم الأفضل، والذى يقـــع فى نفسه موقعاً حسناً ليقربه إليه، أو يكلفـــه بالمهـــام

الخاصة، وللماليك الصالحية "سجلات خاصة" تختلف عن سجلات مجلوبات السلاطين السابقين "القرانيص" الذى تكون سجلاتهم بديوان الجيش فى قلعة الجبل، وتصرف لهم الرواتب الثابتة، ومنزلتهم لا ترتقى إلى منزلة المماليك الأجلاب الصالحية، والذى ترتبط حياتهم وترقياتهم وما يتنعمون به وما يشغلونه من وظائف الأمارة "حتى على اجناد الحلقة" بشخص السلطان ذاته، فيكونوا محل ثقته، قوتهم ثبات لعرشه من القلاقل والأطماع، هم بمثابة يده اليمنى الذى يبطش بها من تسول لهم نفوسهم التمرد عليه، والخروج عن طاعته، تلك هى الفرقة الأولى "الصالحية"

• • •

أما الفرقة الثانية فى جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب فهم طائفة "أجناد الحلقة" وتتكون هذه الفرقة من المماليك "محترفى الجندية" من بقايا مماليك السلاطين السابقين وأولادهم، وهم طائفة تكون أقرب إلى نظم "الجيش العامل" لا يتغيرون بتغير السلطان، بل يزداد عددهم بما يخلفه السلطان الراحل من مماليك "قرانيص" ينتقلون من" الفرقة الأولى" التى تمثل حرس السلطان الخاص، إلى كونهم قرانيص، وللقرانيص نظامهم الداخلى، الذى يتسم بالثبات الشديد "والرؤساء من داخلهم فيما يختص بمقدم أربعين" أونقيب دباش مائة، أما أمير الألف، فتعقد لأمير من مماليك "السلطان" أثناء الحروب، يتحكم فيهم ، يؤمر فيطاع، أما فى وقت السلم، فأن ترتيبهم ونظامهم يكون من

داخلهم بالرؤساء المقدمين والنقباء، طبقا لما هو مبين في النظم المتعارف عليها، والتي يصدرها سلطان البلاد.

فلا يملك أي "قائد" لأجناد الحلقة سلطة إخراج أو أضافة مملوك من وإلى "الحلقة" إلا بعد الحصول على أذن صريح من السلطان، وتقديم الأسباب المقنعة، والسبب الوحيد المقنع، هو موت أحد أجناد الحلقة وفراغ وظيفته، فيستخدم آخر عوضا عنه، بعد إثبات ذلك في ديوان الجيش بالقلعة، وتحديد وظيفته الدائمة، وبناء على ذلك يحل محل "المتوفى" ويحصل على كافة المزايا التي كان يتمتع "أو يشقى" بها الراحل، وقد تصل هذه المنافع أن يحل محله في بيته، وإقطاعه، ويتزوج من زوجته، ويواصل تنشئة أولاد المتوفى فيما يضمن عدم إلحاق الأذى والتشريد بزوجات وأولاد المماليك، فلا يحصل "أهل البلد" على هذه الزوجة أو يكون لهم القيامة على أولاد المماليك، وهم من ممتلكات السلطان في الأساس، ولهم ما له من علو مكانة!

• • •

أما الفرقة الثالثة "فهي تتكون في أيام الخطر" "تلقائيا" من مماليك الأمراء، والأركان، وكبار موظفي وأقارب السلطان، وذلك اذا ما أحدقت الأخطار بالبلاد، فلكل أمير يرفعه السلطان إلى القيادة العليا، ويقربه منه، الحق في إقتناء المماليك بمقدار ثروته واقطاعاته التي حصل عليها كإنعامات، مقابل خدمات عليا

للسلطنة، هؤلاء المماليك لن يكون لهم أمير واحد يأتمرون بأمره،بل أن كل جماعة يترأسها مملوك يختاره الأمير من خاصته، وتكلف هذه الجماعات بمهام محددة أثناء الأخطار،واذا ما تلاشت الأخطار وانحسرت، تعود هذه الجماعات لخدمة وحراسة وطاعة أميرها، وتقاس مكانه "الأمير" فى وظيفته بما يملكه من مماليك محاربين أشداء، ويتعاظم شأنه اذا ما تكفل بمهمات خطيرة وانجزها، كأن يثور الاعراب وينهبون القرى، فيتكفل أمير لمحاربتهم واخضاعهم، أو ينقلب أمير على السلطان، فيوعز لأمير آخر أن يستخدم مماليكه فى ايقاع العقاب به وردعه،واذا ما أفلح الأمير بما يملكه من مماليك، يظل ركنا ركينا من أركان السلطنه،وشاغلاً لوظائفه واقطاعياته التى تدر عليه الخير الكثير، الذى يكفى الصرف والنفقات على مماليكه ومزاياهم،والإنعامات تزيد من قوة الأمير، كما تزيد فى قوة السلطان "فى تبادل بين القوة والمزايا الأجتماعية لا يتوقف" بل يتنامى دائما،حتى يلفت نظر السلطان لخطورة هذا الأمير على عرشه "فيسعى للخلاص منه وتصفيته" وإدخال جزء من مماليكه "فى خاصكيته" ويلحق ما لا يريدهم بأجناد الحلقة!

وفى كل الأحوال سيتعلم الأمراء الكبار الدرس، فلم يعد أحد يتمادى فى إظهار خطورته، على عرش السلطان فاذا كثرت الأنعامات على الأمراء، قاموا بتوصيل معظمها إلى مماليكهم، ليتشبه المملوك الصغير بالمملوك الكبير "مع الفارق" أن يكون له

قصره وخدمه وأكثر من حصان، وقد يتمادى بعضهم فيكثر من الأتباع والنفقات على المظاهر الأجتماعية التى ترفعه عاليا أمام أهل البلد الفقراء، وتحيط الأمير بالأحترام والتبجيل!

• • •

القتال يعنى مواجهة الموت والأخطار، وهذا العمل من أهم أعمال المماليك، فقد كانت لهم الوظائف الرئاسية فى المجتمع، تلك الوظائف الإشرافية، أما الوظائف التنفيذية والعملية فى النواحى الأقتصادية من زراعة وحرف وتجارة وخدمات، فتقع جميعها على عاتق أهل البلاد، فى ترتيب طبقى ثابت متوارث، يعبر عن سمات المرحلة الأقطاعية، سيكون فى أعلاه، التجار والمشايخ، وأرباب السجاجيد، واصحاب اليد على الأوقاف، ونظار المدارس والعلماء والقضاه، ثم تتراص تحتهم الفئات الأخرى بقدر مدخولاتها من أعمالها، وهذا النظام الأجتماعى لأهل البلاد يأتى جميعه كقاعدة يتربع فوقها أمراء السلطان، وكبار حاشيته وعلى قمة ذلك الهرم، يأتى السلطان وأولاده، ذلك السلطان الذى يمسك برقاب العباد، دنيا ودين.

• • •

أما وفقراء البلد،معظمهم يعيش على الزراعة والسخرة فى القرى والنجوع، يشتركون فى توفير الغذاء،ويموتون بسوء التغذية وأمراض الجوع، سيكون أقصى ما يتمناه الانسان الفقير فى هذا المجتمع

"الثابت"، هو العمل فى قصور الامراء كخدم، لضمان وصولهم الى بقايا طعامهم الوفير.

والأمر بدأ فى البداية، أن المماليك هـم عبيـد يشتريهم السادة لخدمتهم، ثم صاروا يدربونهـم علـى حمل السلاح ليموتوا دونهم فى الحـروب والقلاقـل، وكان أهل البلاد أسياداً وأحـراراً، ثـم انقلـب الحـال تدريجيا، فبات الخادم المستعبد، هو السـيد المبجـل، عندما فرض قانون القوة واستبد بالأمر، وهو ما حدث دائما منذ النصف الثانى من عهد الدولة العباسية، وقـد أتى الأتراك لخدمتهم وتولية شئون الحـرب والمـوت دون العرب والفرس الأسياد، فتشكلت العصبة التركية العسكرية، كوزراء أقوياء، وقلبوا الوضع المعتاد إلـى أن يكونوا هم السادة "والخلفاء" أمسوا ينفذون مشيئتهم بلا جدال، مما هزم العرب، وجعلهم يتقهقرون، بعدما كانوا هم الغزاة دائمى الحركة إلى الأمام.

• • •

وقد إستقر الأمر بأن الذى يمسك بالسلاح أيـا كان نوعه، وفى أى زمن كان، سيصاب بداء العظمـة والتعالى، وهو مرض إنسانى، لـم يختـرع المصـل المضاد له بعد.

"وكثير من الشواهد فى عصرنا الحالى تجعـل جنرالات الجيوش رؤساءً للدول على أثـر إنقـلاب، يفرض القرارات الرئاسية الملزمة والتى سيكون لهـا قوة القانون والسيادة"!.



(٤)
الأمارة تأتى إلى بيبرس محفوفة بالخطر

▭ **القاعدة** "فى زمن دولة الملك الصـــالح نجـم الدين أيوب الذى أكثر من إقتناء الممـــاليك"، أن أكـــثر الأعمال خطورة، تتمتع بأكبر المزايا، على أســـاس أن "المملوك" كان يربى للتضحية به فـــى الحـــرب وأنـــه سيلاقى الموت، من أجل السلطان، واستمرار عرشـــه، وإبعاد المؤامرات عنه وعن أهل السلطان، فى قناعـــة بأن من المسلم به، أن حياة المملوك ســـتكون قصـــيرة كالشهب، وعلى الجميع أن يتغاضوا عن المزايا التـــى توضع بين يديه كمكافأه لعمره القصير، بل ويسمح له عادة ببعض التجاوزات، والدلال، فـــى وقـــت السـلم القصير، كما تعلف الحملان لذبحها، والاســـتفادة مـــن لحمها وشحمها وصوفها، والتضحية بهـــا فـــى أيـــام المواسم والاعياد، وعلى عتبات الأراضى المقدسة فى أداء مناسك الحج، كفدية وتقربا لله، لذا نظر الجميـــع إلى "المملوك" على أنه "ابن موت" يمـــوت مـــن أجـل الإسلام والمسلمين، أنه "الضحية" الذى سيخلصهم مـــن الأذى، والمضحى به من أجل سلامتهم، فيكون علـــى

الجميع، من الواجب تفريغ قلوبهم من أى كراهية نحوه، أو الحقد عليه، إذا لم يستطيعوا أن يحبوه..

"هكذا روج شيوخ من صنائع الأمراء المماليك بين العامة بأن يسلموا لقاعدة أن اكثر الأعمال خطورة تتمتع مع الرضاء التام بأكبر المزايا، ويضاف على ذلك "إخوة الاسلام" التى يتخذها المملوك هدفا لإعلاء شأنه وقتال أعدائه".

وبتراكم مزايا المماليك، بات المملوك يتمتع بمظاهر الجاه والثروة، وفى نفس الوقت امتلك القوة التى لم يسمح لأهل البلاد بممارستها، حتى أن أهل البلاد وهم فى ضيق وتقتير وبلادهم تمر بحالات الفاقة والضنك والجفاف والأوبئة سيكون عليهم القناعة وعدم الإلتفات "المكروه" إلى مظاهر النعيم التى يتنعم فيها المماليك وأمراؤهم، وبالتالى السلطان وحاشيته.

ذلك المملوك الذى سيؤمر بالقتال، ضد أعداء بلاد المسلمين فيذهب طائعا، يحارب، بل قل يجاهد فى سبيل الله والوطن ليلاقى حتفه وهو فى عنفوان شبابه.

"انه يموت من أجلنا فلا تقتير عليه أو إرهاق عندما يكون فى مرحلة الاستعداد لملاقاة الموت"

• • •

لكن، عندما تطول فترات السلم، يحدث أن يتناسى المماليك دورهم الأساسى الذى من أجله يسمح لهم بمكانة السيادة ونعيمها المقيم، فيظنون أنهم من طينه مختلفة عن أهل البلاد، وما هم فيه من حياه رغدة، واحة وارفة الظلال فى محيط من الجدب، أن

ذلك حق من حقوقهم الإلهية، مزايا خلقوا لها، وخلقت من أجلهم، واذا ما كان السلاطين ضعافاً، باتوا ألعوبة في أيدى المماليك، يتفنن الأمراء المماليك فى التهرب من مواجهة الأخطار، بأن تكون لهم كلمتهم في السياسة، وتعليلاتهم فى المشاركة، والقيام للقتال أو التوسع، يكفيهم عمليات الكبت لأهل البلد، وما تكبدوه من مشاق لحفظ الأمن لأنفسهم وللسلطان وحاشيته!

• • •

،، وقد تبرز مهارة بعضهم فى أساليب الدعاية، وكيف يحيطون أفعالهم المظهرية بكثير من الروايات والجلبة، وقد تمكنوا من التمركز فوق رؤوس العباد يشفطون اللبنات ويأكلون الثمرات مبتعدين عن النزاعات ومواجهة الموات، لذلك فضل بعض أمراء المماليك تشكيل أحزاب لهم بين الشيوخ والعامة، واختاورا من بين الموهوبين أفضل الرواة، الذين يعملون من الحبة قبة، يؤلفون البطولات حول شجاعتهم، وجسارتهم، لتصل أخبارهم إلى العتبات السلطانية، وإلى عمق الحوارى المغلقة على سكانها، كما تنتشر الروايات عنهم فى انحاء البلاد وعرضها، يلوكها الناس فى أماسيهم الفارغة، يصورونهم اذا ما نهبوا الأموال والغلال وتنازعوا على مباهج الدنيا، أنهم حماة الدين والغيارون على الشريعة، أنهم بناة المساجد الكبرى، والمدارس، والأسبلة!

• • •

ويحدث أن يفعلها أمير، يجمع الأموال وينشئ مسجدا، لينسى الناس مجونه وظلمه، جبنه وفسقه، أو يفعلها أمير توبة نصوحة ليختم بها حياته الحافلة بالسيئات تائبا ومتقربا لله الغفور.

• • •

• إذا ما حاقت، الأخطار الحقيقية بالبلاد على أثر غزو خارجي وعدوان حقيقي، هنا يرغم المماليك على مواجهة ذلك الخطر الذى يهدد، أول ما يهدد، مزاياهم وحياتهم المنعمة، ولعلهم يسوفون ويتباطأون حتى تأخذ "المحنة" وقتها، وتنفك من تلقاء نفسها، دون التعرض لبذل الدماء ومجابهة لمغامرة قد تبدل كثيرا من الأحوال، وخشية أن يهب "الشعب" للتصدى للمعتدى وقد يفلح ويتملك زمام القوة التى تتازعهم!

• • •

أما وقد قام الفرنجة بقيادة ملكهم "القديس لويس" بالنزول فى دمياط، بحملة كبيرة ترفع شعار الصليب وتتمكن الحملة من موطأ قدم دون مقاومة، ثم تتوسع وتحتل مدينة دمياط، وينكلون بأهلها، يقتلون حاميتها، ويتجهزون لمواصلة المضى ضد تيار فرع النيل، للوصول إلى القاهرة وقد شاع بأن الملك الصالح طريح الفراش، وأن أبنه "تورنشاه" مغضوب عليه ومنفى إلى قلعة "كيفا". وأن الملك الشيخ ليس إلا ألعوبة فى يد زوجته "الجارية" الجميلة. وأن امراء المماليك يتنازعون فيما بينهم، وفى نفس الوقت يشكلون حزبا ضد مشيئة السلطان الذى لم يعد له الأمر

والنهب، أمام قوتهم التى استمرأت السلم الطويل، فترهلت فرق الجيش، وساء أمر أجناد الحلقة.

ثمة من صور للملك لويس، أنه اذا ما ركب النيل ووصل إلى القاهرة، ما على الفرنجة إلا إسقاط العمائم من فوق رؤوس المماليك فسيجدونهم شقر وحمر وبيض، وانهم من نفس الفصيل الغازى، واذا ما طرحوا أمامهم الأموال والمناصب والعتق من العبودية، يمكن استمالتهم كطبقة فرسان، تقع وسطاً بين النبلاء وملح الأرض من الزراع والصناع، بل يمكن إعادتهم لإعتناق الدين المسيحى، مقابل اشراكهم فى المزايا!!

وأن شعب مصر الغفير يستغيث بالقديس لويس، أن يعيد إليهم الصليب، كما كان قبل الفتح الاسلامى، وأنه بسقوط القاهرة التى طاب قطافها، سيكون ذلك بمثابة النصر النهائى على يد القديس، لوضع النقطة الأخيرة فى الحملات الصليبية المتعاقبة منذ نشبت الحروب بين الغرب والشرق، بل يمكن أن يخلص مصر والشام من الأسرة الأيوبية المغتصبة للعرش الفاطمى بكل سهولة!

وصوروا له أيضا، أن أمراء السلاطين، اذا ما ضمنوا نفوذهم ورغدهم المقيم، فلن يتأثروا كثيراً بتبديل سيد بآخر.

وصور المصورون للملك لويس الذى نزل على شاطئ مصر واستباح مدينة اسلامية بدون مقاومة تذكر، أن أمراء المماليك لجيش الملك الصالح سيقع

بينهم الشقاق اذا ما طلب منهم السلطان مجابهة الخطر الفرنجى الجسيم، تلك الحرب الثقيلة على من اعتاد الدعة، واستعراض قوته على طوائف عزل من السلاح كالمصريين الذين ليس لهم فى الصدام..!

• • •

ما لم يكن فى حسبان الملك لويس وملوك جيشه أن يقبل الملك الصالح المريض، ذلك التحدى. وبدلا من أن يستنجد بالملوك الأيوبيين فى الشام، ويدخل فى حالة تأجيل وتسويف أخرى من الاقارب، بادر وجمع مماليكه وقرر نقل قصره وعرشه الى ميدان المعركة فى قلب مزارع الدلتا، مستنفراً قواته الخاصه من مماليكه البحرية لوقف زحف الفرنجة من مكانهم الذى احتلوه على الساحل فى دمياط، كما قرر بناء استحكامات قويه فى "فارسكور" وأمر بتعجيل الرحيل، واستدعاء مشايخ المذاهب الاربعة وجميع مشايخ الطرق وأرباب السجاجيد، ليخطبوا فى الناس يحضونهم على الجهاد، وأن تعتمد مصر على نفسها، وتسارع بتثبيت الداء فى مكانه قبل أن ينتشر فى باقى الجسد ويستعصى القضاء عليه، . هذا القرار الخطير اقتدى بما فعله المسلمون فى معركة القادسية، اذ تجمع الجميع القاصى والدانى فى سرعة لم تمكن الروم من تثبيت قواعدهم، وبناء استحكاماتهم وتجهيزها "والملك الصالح فى مرضه" كشعلة من ضوء أوشك زيتها على النفاد، فتوهجت بالرمق الأخير، قام باجراء تعديلات فى مناصب الأمارة مثلت إضافات على الأمراء

الأساسيين، وأشار إلى "بيبرس" ذلك الفهد الصامت الذى يقود مماليك الأمير اقطاى، بأن خلع عليه خلعة "أمير" يقود ألف، حتى يخلوا منصب أمير يقود عشرة آلاف من الأركان الأربعة، يحل محله، وكلفه بما يكون تحت أمرته من مماليك أقطاى وأجناد الحلقه الذى يختار منهم فرسانه، بأن يقوم بحراسة "قصره" الذى سينشئه على عجل فى معسكر "فارسكور"، وينقل إليه سريره وخزائنه وحريمه ومخازن أسلحته وأمواله..

• • •

لقد حل الخطر وجاءت الحرب إلى الديار، وبدأ الحراك يحدث بين المماليك، ذلك الحراك الذى كان متباطئا فى أوقات السلم الطويلة، وقد ارتقى "بيبرس" من "نقيب دباش" يقود مائه "أو عدة مئات من مماليك استاذه "فارس الدين إقطاى" إلى "أمير" ألف، أو عدة آلاف "أقل من عشرة آلاف"، طبقا لما يتوفر له من "أجناد الحلقة" ومماليك خاصكيته، وصار من مزايا "الأمير بيبرس" أن يحضر مجلس السلطان، لكنه يجلس تحت كوع أميره الأعلى اقطاى، متأخرا عنه بمسافة شبر، ومهما يكن فقد جعلته الحرب أميرا له مقعده بين الكبار من أمثال عز الدين أيبك، وسيف الدين بلبان الرشيدى، وشمس الدين سنقر الرومى، وهى ميزة سبق فيها "قطز" الذى ظل قائدا لمماليك "عز الدين أيبك"، لا يحق له حضور مجلس السلطان، إلا على مسافة بعيدة، وينتظر اشارات أميره، فلا يخاطب السلطان مباشرة، وكان من مزايا بيبرس، أن

يخاطبة السلطان بصفته قائد حرس قصره في أى وقت.

أما وقد لاحت لبيبرس فرصته في الترقى إلى الأمارة،فقد قبض عليها بشدة، وود أن يثبت من خلالها أنه جدير بأن يرقى إلى "ركن" ويكون تحت أمرته "العشرة آلاف" ويزيد، وله الحق فى إقتناء المماليك الخاصين به!

هى لحظات إنتشاء تأتى له،تخوض فى الأخطار، لكنها كانت تمثل أمانى تمور فى نفسه، فتحمله على أجنحتها محلقة به فى الأحلام.

أحلام عظيمة يتمنى لو أنه دفع بها إلى أرض الواقع، هو الذى كان فى صباه يختلق "العائلة" العظيمة التى فقدها بالعبودية، كثيرا ما تخيل أنه ربيب عائلة كبيرها أمير،فكان زملاؤه يسخرون منه ومن ذكرياته العرجاء، ولعل أحدهم صدمه بقوله:

- بأى عين كنت ترى أحلامك يا بيبرس، بالعين السليمة أم العين المنقوطة؟

يغضب بيبرس ويثور ويحاول أن يتغلب بدنيا على من يسخرون منه، لكنه كان يشعر بأن فى حديثهم كثير من الحقيقة.

فهو لم يكن يملك إلا أن يحلم وينتظر الفرصة، تلك الفرصة التى لاحت عندما صار "نقيب دباش" لمائه، أمسك بها كعصفور سقط بعد أن عبر البحر وانهكه الطيران.

• • •

يمكنه الآن أن يرعى فرصته المتاحة بالعنايــة واليقظة،وبالطاعة وحسابات يجريها، تأخذ في الاعتبار عنجهيه أميره اقطاى، : الاعتداد بما يملكه مــن قــوة وعناد، وأن يبذل ما يستطيع من جهته لإرضاء السلطان الذى بات تحت بصره الدائم، وإن كان في الاجتمــاع الوحيد الذى حضره بيبرس قوشاهد السلطان منهكـا، نصف جالس ونصف نائم، لا يقوى علــى الحديــث، وابراز خطابه الذى يحضهم فيه على بذل الجهد ويبين لهم أن مصير السلطنة ومصيرهم جميعا معلق علــى سن حرابهم وسيوفهم التى يجب أن لا تغمــد، حتــى ينهزم الفرنجه ويجلون عن أرض الكنانة!

• • •

بيبرس،كانت طموحاته قد بدأت مشوارها، لابد وأن يجعل الجميع يلتفتون إلى بطولته، وليس إلى تلك النقطة البيضاء التى تشوه سواد نني العيــن، وتوقــف حالة الإبهار به كفارس، فتحول الإبهــار إلــى حالــة عطف وشفقة!!

ولعل ترقيه بيبرس إلى إمارة الألــف، كــانت أخر أعمال الملك الصالح نجم الديــن أيــوب، وذلــك الخطاب الذى كان واهنــا ولاتقــوى انفاســه علــى استكماله، يحض قواده وأمراء جيشه على الجهاد، وفيه يلح بأن لا يستقر حال الفرنجة فــى الأرض الســوداء بالدلتا، يقتطعونها ويعزلونهاعن جسم البلاد، أو يقفزوا منها ويصلوا إلى القاهرة، فينكسو ا مأذن يذكــر مــن فوقها إسم الله أكبر "

وعلى اثر اللقاء الوحيد القصير الذى حضره الأمـــير بيبرس". لم يعد بيبرس يشاهده. فقد لزم الملك الصالح سريره، ولم يعد أحد يدخل إليه إلا زوجته الشابة "شجر الدر"، والتى تعلمت من السلطان الشـــيخ كثـــيرا مـــن الحكمة والدهاء..

• • •

ولعل السلطان مات فور وصوله إلى فارسكور واجتماعه بأمراء جيشه نصف جالس، نصف نائم، فقد وهنت قواه، بعد أن تأجج تأجج الإنطفاء، فكان التوهج الأخير على غير العادة، فى ذلك التوهج كان ينظر إلى بيبرس ويطلب منه إثبات بطولته الحقة..!.



(٥)
خطة بيبرس المجنونة أمام الصليبيين

□ على قاعدة من مشاكل و أزمات يعـــانى منـــها النظام الإقطاعى فى أوربا ، فى وقت كـــان الصـــراع قائما على أشده بين السلطة الدينية و السلطة الزمنيـــة وقد بدأت قبضة [الكنيسة] هناك،تتراخى عنوة، تفقـــد مكاسبها التى جنتها باسم الديـــن و الطمأنينـــة.. بـــاتت الكنيسة حليفة النبلاء، عندما كـــانوا حـــول مائدتـــهم المستديرة بدون رئيس، أو ملك قوى،يحصــــل علـــى الناصية التى تتوجه إليها الأنظار.

• • •

لكن النظام الملكى ظهر لحاجـــة النـــاس إلـــى وحدات كبرى، ومصالح مشتركة. ذلك أدى لصدمـــات أثارتها الطموحات الذاتية للنبلاء، مما أدى إلى نشـــوب الحروب التى أنهكت الجميع ، فآثروا أن يكـــون لـــهم هدف أعلى يتوحدون حوله. مجـــرى يصرفـــون فيـــه مشاكلهم الداخلية، يرحلون إليه الأخطار التـــى تحـــدق بإقطاعياتهم وقلاعهم الحجرية المعزولـــة. و الكنيســـة وافقت على ترحيل الأخطار خارج البلاد الأوروبيـــة، ذلك سيعيد لها الدور القيادى القديـــم.. عندمـــا كـــانت

الكنيسة للدين والدنيا، فأمكن صبغ أشياء كثيرة بالقداسة الزائفة.. ولما كان الجهل هو القاعدة. والكتابة بالاستنساخ اليدوى قليلة الإنتشار، لكنها أمست فعالة بوجود الورق، وقد تم طبع "الإنجيل" بألوف النسخ فى وقت قصير، ثم طبعت الصحف التى بها الأخبار، والمقالات، والآراء لتنتشر الأفكار الإصلاحية فى أحوال الدين والدنيا وتصل إلى عمق الغابات، تعبر السهول والفيافى.. تلك الصحف المتنقلة دفعت بالبدائل عن الوعاظ والقساوسة.. تناولت حياة الناس واحتياجتهم، حركت أفكار أعداد كثيرة من الناس حول أسباب الحروب التى عطلت تنمية بلادهم. والصراع الأساسى بين الكيانات التى تنخر فى نظام الدولة وتفسد عليهم مصالحهم.. وقد حاولت أوربا أن تصل إلى ثروات الشرق وسحره، وقد تم الاحتكاك بالشرق من عدة منافذ أهمها صقلية. وبلاد الوندال "الأندلس" وقيام حضارة عربية إسلامية فى شبه الجزيرة الأيبرية، رافق ذلك.. الحروب الصليبية التى انتزعت (بيت المقدس) من الدولة الفاطمية فى حالة ضعفها بتنازع الوزراء شاور وضرغام.. وأحدهما استعان بالصليبيين والآخر استعان بالدولة الحميدية *الناهضة* (عماد الدين بن زنكى) تلك الدولة التى كانت املاكها فى بقعة بالشمال الشرقى (الموصل) على الحدود بين العراق وسوريا.. هذه الدولة اعتمدت على شعب الأكراد المقاتل.. ساكن الجبال والهضاب العالية، أعراقة ممتدة بأرض الفرس والترك.. فكان أسد الدين شيركوة

التكريتى قائدا من قواد هذه الدولة الحميدية التى جيشت له جيشا ضخما ليحمى "القاهرة" من السقوط فى يد الصليبيين... يأتى صلاح الدين مع (عمه) القائد ويستقر بالقاهرة..وإذا ما توفى أسد الدين يتولى صلاح الدين أمر الجيش الذى صار يحارب باسم الدولة الفاطمية والدولة الحميدية فى مصر..

• • •

وأمكن لصلاح الدين وقد خاض سلسلة من المعارك أن يتوج أعماله الجهادية العظيمة بإزالة الدولة الشيعية الفاطمية،وإعادة مصر للخليفة العباسي. كما كانت، وأن يحرر القدس وينتزعها من يد الفرنجة.. لكن خلفاؤه من بعده تنازعوا.. وعادت أوربا تتطلع من جديد إلى وضع النقطة الأخيرة فى الحرب بين الصليبيين والمسلمين لصالحها. أوربا- فى معظمها- تحارب متطلعة إلى الاستلاب وغزو الشرق.. وربما لم يكن الأمر واضحا أمام الملك الصالح بهذه الكيفية.. لكنه آثر أن يدعو المشايخ وأرباب السجاجيد وعلماء الدين ويحثهم على اللقاء الدائم بكتائب جيشه وخاصته المماليك كى يعمروا قلوب المحاربين بالإيمان، يحضونهم على بذل الروح والجهاد فى سبيل الله.. كما يبينون للنصارى بداخل مصر بأن الصليب الذى يزين ملابس الغزاة..لا يعبر عن سماحة الدين المسيحى، وأن من عبر البحر ونكل بأهل دمياط،وقطع الطرق،ونهب الدواب والغلال.. طامع فاجر، يتوارى فى شعار المسيحية المقدس!

وفى ذلك طلب الملك الصالح من العلماء أن يردوا على ما يروجه المرجفون من حالة الضعف والهوان التى يريدون تصوير المسلمين عليها.. وحالة القوة والمنعة التى جاءوا بها لتخليص البلاد من سيطرة آل أيوب.. وأن يظهروا للناس الصالح من الطالح، ويبينوا لهم أن ما يحدث من غزو يهدد الجميع ويتطلب إرجاء كافة الخلافات الثانوية، وعدم الانسياق لوعود الغاصب الذى فاجأ بلادنا فى ليل. هؤلاء الذين يستكثرون علينا أطايب بلادنا. وكيف يجب أن نعمل على ردهم مخذولين. وأن يتكاتف الناس فى الجهاد الأكبر..!

• • •

•• وقد بذل الدعاة جهداً بين الناس فى الكفور والنجوع، فامتلأت بهم المدن•• وفيها تشكلت الكتائب من الأهالى، تلك الكتائب التى وظفت فى بناء معسكر فارسكور وقصر السلطان الذى كان نواة "لمدينة المنصورة".

كما تم بناء المحلات التى يتمركز فيها الصناع والمعاونون.

وكان من أهل مصر قبلى وبحرى أناسا كثر تجمعوا فى مروحة الدلتا يقودهم مشايخهم وأرباب الطرق.. وفى ذلك ساهم ألوفا منهم فى بناء المدينة الجديدة، التى لابد وأن تعوق تقدم الفرنجة، وتجبرهم على القتال العنيف،كى يتم الضغط عليهم وإرجاعهم

إلى دمياط.. تاركين وراءهم الكثير من القتلى والعتاد.. والأسلحة، كغنيمة توزع على الأهالي ليشاركوا بها في المعارك التالية. وقد تضخمت المنصورة* وأتم فيها إنشاء القصر السلطاني في فارسكور، معظمة مخازن للسلاح، والعتاد، ويحتوي على خزائن الملك الصالح وأمواله التي خصصها لنفقات الحرب** والتي جمعت من أهل البلاد في مساهمتهم للجهاد.."إذ لم يكن بالنفس فبالمال" .

• • •

على أعتاب هذا القصر السلطاني الذي لم يكن منيعا كقلعة تعوق المهاجمون، سوف يحارب الأمير "بيبرس" بمماليكه القلائل** الذي لم يصل عددهم إلى الألف..

ففي عجالة الرحيل والتحضير وكثرة المهام الملقاة على عاتق الفرق. وعدم تفريط الأمراء فيما تحت أيديهم خشية الهزيمة ووقوع المسئولية على كاهلهم.

وبيبرس ما كاد يقبض على فرصته في الأمارة حتى وجد نفسه وجها لوجه مع الأخطار الجسيمة .. يخوض معركة يائسة.. فقد انكسر جناح من أجنحة المعركة أمام ضغط جيش الفرنجة بقيادة الملك (رايدا فرانس) وهو بطل من أبطال الملك لويس الصناديد، يتسم بالجسارة والجرأة والوحشية في القتال. وقد تمكن بفرسانه الأقوياء وأثقاله من الوصول إلى العتبة السلطانية للاستيلاء عليها، بما تحويه من كنوز

ورموز.. ولعلهم أبلغوه بأن بداخل القصر توجد الأسلحة الإضافية التى تنتظر تكوين الفرق الجديدة من السيوف والحراب والدروع.. كما أن بداخل القصر حريم الملك وجواريه وكنوزه من ذهب ومجوهرات الشرق التى لها بريقها الأخاذ.

ولعلها خطة شيطانية وضعت تفاصيلها على ضوء وشايات الطامعين، أرادوا صيد فرصة لهم تجئ محملة بالأموال والنفوذ، بينوا للمهاجمين أن الطريق إلى القلعة بالقاهرة يبدأ من قصر السلطان بفارسكور. وليس بالصدام مع فرق السلطان من المماليك وأجناد الحلقة أو حرسه، ومماليك أمراؤه، إذ أنه بقتل السلطان ومنع وصول الوريث.سيعتق جميع المماليك. ويتم مساومتهم على أن يحفظوا لهم وظائفهم أو مزاياهم.. مقابل نقل السيادة الإسمية التى لن تكون عبودية بأية حال. بالإضافة إلى أن مقتل السلطان أو أسره مع أسرته وأمواله وأسلحته سيوقف حمى التنافس بين أمراء المماليك فى إثبات جهادهم وشجاعتهم مقابل العطايا المنتظرة..

وكانت حمية المماليك تزداد من معركة إلى أخرى.وبدا أن الحصول على قصر السلطان بفارسكور بأى ثمن.. من أهم أهداف الملك لويس وقواده، وقد اشتد الصدام مع كافة الأمراء المماليك الكبار لكى ينشغلوا.. عما يتم تدبيره فى الخفاء لتنفيذ الهدف الأجدر بالرعاية، والذى كلف به الملك الصليبى المحبوب من قلب الملك لويس الداهية "رايدا فرانس"

يرافقه عدد كبير من شجعان جيشه.. وجميعهم فرسان لا يشق لهم غبار لتحقيق الغاية المحددة.

• • •

وأثناء اشتداد المعارك على كافة الجبهات أمكن للملك الصليبي (رايدا فرانس) من أن يمضي قدما إلى معسكر فارسكور ويقتحمه من خلف القصر السلطاني، هاجمه بفرقة فرسان. استخدم أدوات الصعود على أسواره التي لم تكن في مناعة قلعة متوسطة. وأمكن له أن يقتل الأعداد التي تصدت له أو يجبرهم على التقهقر، وبعضهم من الخدم، أذهلتهم المفاجأة فولوا الفرار وأغلقوا الأبواب. وصار بيبرس يقود الأعداد التي تحت أمرته، ويضع الخطط للدفاع عن هذه البؤرة من الداخل.. قام بإحصاء المهاجمين فهالة أنهم جميعا من الفرسان، وعددهم ثلاثة أضعاف ما لديه.. خشى أن يستخدموا السلالم المتحركة ويمتلكوا سطح القصر من أماكن مختلفة، وقد أرسل من يتسلل ويهرب من أحد الخنادق التي لم تكن قد جهزت تماما، كأداة أمان يستخدمها أهل القصر في الهروب من الحصار، كانت المفاجأة أن يعود إليه فارسه ليخبره أنهم ينتظرون هناك عند نهاية النفق، يقطعون الطريق على كل من بالداخل. لقد سدوا كافة السبل.. مما يعني أن الوشاة كانوا على علم بأسرار كثيرة.. ولعل حالة اليأس التي اكتنفت بيبرس لبعض الوقت ألهمته بالخطة التي لن تخطر على بال فرسان الصليبيين.. أن يقوم بعكس

الطبيعى الذى تمليه الظروف. يحدد هدف وحيد، ويلقى عليه بكل ما بيده لتحقيقه.يلقى عليه بكل ثقله.

أنها لحظات قاسية مرت على بيبرس ولم يكن باستطاعته تقليب ما يفكر فى القيام به تحت ضغط حصار من فرسان الملك رايدا فرانس وحماستهم الدينية وقسوتهم..

الخطة المجنونة التى برقت فى ذهنه ولم تبرحه، أن يفتح أحد الأبواب التى تكون الأقرب إلى موقع وجود الملك رايدا فرانس نفسه،ومن يحيطه من نوابه والمقربين إليه، ويهاجمه بكل ما لديه، ينقض على الملك رايدا فرانس، الذى هو بمثابة القلب للمهاجمين (أضرب القلب وانزعه من بين قواته فيموت الجسم وتتهدل أطرافه) هكذا صرخ بيبرس فى فرسانه.

بيبرس رأى بعين اليأس. الطامة الكبرى إذا سقط قصر السلطان بما فيه غنيمة لهم.. أنه يحاربهم بخطتهم. هم يوجهون للقلب ضربه قاسية. فليضرب قلب قوتهم المهاجمة.. ولم يكن أمام بيبرس إلا أن يشجع قواته حوله، وهى قليلة العدد بالنسبة لقواتهم. ولكنها كثيرة إذا وجهت على هدف محدد، وبينما تفرقت قوات الصليبيين حول القصر لحصاره،والبحث عن منفذ ليدخلوا منه.. بعضهم يجهز "صدامة" مستطيلة معلقة فى حبال تتأرجح لتحطيم الأبواب.

كان هناك باب آخر جانبى يفتح.. وهجمه تمتزج بصرخات الحرب، تشق طريقها سريعا إلى

موقع القيادة التى بدا أنها قد اطمـــأنت لعـدم وجـود المقاومة الكبيرة حول القصر فـتراخت.. الإعصـار البيبرسى حصد عدة رؤوس من الفرسان.. حتى كان بيبرس وجها لوجه أمام الملـك رايـدا فرانـس ورفاقه. دارت بهم الخيول على أعقابها. لكنـها لـم تغادر مكانها المحاصر. وبدا أن هذه المعركة الجانبيـة تتسم بسمات المعركة العامة. لكن لصالح بيبرس.. فإذا كان الصليبيون أكثر عدداً وأقرب إلى الاستيلاء علـى القصر وتحقيق هدفهم. فإن فى هذه البقعـة الجانبيـة، كان الأمر يميل لصالح بيبرس بنفس النسبة، وبجـرأة شديدة، تقدم بيبرس وأطاح برأس الملك رايدا فرنـس فى عمل جنونى. يمكن أن يشعل حماستهم أكثر فى ثأر لا يهدأ. وأحد فرسانه رفع رأس الملك رايدا على سـن حربته.. والذهول أخذ بمجامع رفاق الملك المقتول وهم كبار القادة الصليبيين فغشيتهم الغاشية. وجدوا أنفسـهم أسرى يسوقهم عسكر بيبرس ويدخلون بهم القصر مرة أخرى. ومن فوق سطوح القصر.. صرخ المنادى فـى الفرسان بأن يتأملوا رأس "ملكهم". وليكفوا عن اقتحـام القصر وإلا تم قتل باقى أشرافهم.. فتجمد المـهاجمون مكانهم. وهالهم أن رأس بطلهم المحبوب مرفوعة على الحربة تقطر دما. وبدا معهم فى أخذ ورد.. عارضـا عليهم إطلاق سراح كبارهم وعددهم يزيد عن العشـرة رجال.. وبالصدفة علم بيبرس أنهم من النبلاء الذيـن تزدان بهم حلقة الملك.. وقد قصد بيبرس إطالة الأخـذ والرد والمماطلة حتى حضرت إلية النجدة من فرسـان

أميره إقطاى.. وانصرف المهاجمون فور ظهور فرسان المماليك على مرمى البصر.. لكى يقوم فرسان الأمير اقطاى بمتابعة مطاردتهم.. وقتل من يتلكأ منهم. حتى لاذوا بمعسكرهم فى دمياط..

وإذا ما نظر بيبرس إلى ما فى يديه وجد أنها بطولة عظمى.. وإذا ما تأمل اقطاى ما قام به بيبرس.. احتضنه، وقبل رأسه على جرأته وخطته المجنونة، وكيف أنه أفسد خطتهم وأنقذ القلب. فأحبط نصرهم المتوقع!



(٦)
"قاتل الملوك"

▭ **منذ** أن أعلن الأمراء أن المرض الشديد يمنع الملك الصالح من حضور مجلس الحرب الذى ينعقد دوريا لمتابعة الجهود التى تبذل فى المعارك الفرعية.. والتجهيزات للمعركة الفاصلة تتم بناء على ما يتجمع لدى الأمراء الكبار الأربعة- إقطاى وأيبك وبلبان وسنقر- وقد صار بيبرس مع قطز يحضران هذه الأجتماعات، ولكن اذا تكلم "أمير" كل منهما فلا يزيدا.

..فى الاجتماع الذى انعقد عقب معركة القصر.. قامت "شجر الدر" والتى كانت لسان حال السلطان، وأبلغت الأمراء أنها أحاطت السلطان ببطولة الأمير بيبرس وقتله للملك الصليبى رايدا فرانس، وأسره لعشرة من فرسانهم الكبار، وكيف أنه بذلك التصرف الجرىء، أنقذ القصر السطانى من السقوط فى يد الصليبيين. وأن الملك الصالح تنفس الصعداء وهو يستمع لما حدث، وأنه سوف يقدر جهود بيبرس وعدم تهيبه الموقف المتأزم فى هذه المعركة، التى بدت فرعية، لكن إذا ما خسرناها لغيرت مسار الحرب تماما، فهى إحدى المعارك التى كانت لصالح الغزاة، فباتت فى صالحنا بفضل شجاعة بيبرس وبسالة رجاله، فقد كانت بداية

الإنهيار فى جيش الملك لويس.. واقتراب ساعة النصر النهائى الكبير لمماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب.

• • •

..فى ذلك الأجتماع الذى نظر فيه الأمراء باجلال لما أتاه بيبرس، ابلغوه أنهم يحفظون لـــه حقــه فـــى (الإمارة) عندما تضع الحرب أوزارها ويرحل الغزاة. وتحدثت "شجر الـــدر" والتـــى بـــدت بأنـــها تديـــر الاجتماعات بكفاءة، وتقابل برضاء تام مـــن الأمـــراء الكبار • بأن الملك الصالح تحدث معها حـــول عمـــق الخلافات التى تفصل بينـــه وبيـــن أخوتـــه وأعمامـــه وأولادهم.. وقد أختط كل أمير أو ملك لنفسه جزء من الشام.. وتنازعوا.. فضعفوا.وطلـــب منـــها أن تبلـــغ الأمراء بأن الملك الصالح لم يعد يأمل "نجدة" مؤثـــرة منهم،ترجف قلوب الفرنجه.. والأمـــراء أكـــدوا بـــأن الفرنجة يعلمون الكثير حول هذه الخلافات..

• • •

.. بدا أن مرض السلطان الشديد حال دون ظـــهور السلطان بين جنوده وفرقه.. واقترح "أيبك" بأن يعلـــن الجهاد فى الأقطار والأصقاع الإسلامية باســـم الملـــك الصالح .. لعل الخطر الجسيم يقـــرب بيـــن الإخـــوة والأعمام.. ورأى بأن يرسل "قطز" ليحـــث الملـــوك والأمراء لإرسال جيوشهم للوقوف بجانبنا فى دميـــاط لكن "إقطاى" إعترض.. مدعيا بأنه لا يرغـــب فـــى أن يأتى أحد من أخوة الملك الصالح أو أعمامـــه لـــيروه راقداً وضعيفا.. وبدا إقطاى وهو يتكلم ويداعب لحيتـــه

الحمراء بذلك الاسلوب الممطوط بأنه يقصد شيئا آخر غير الذى يقوله. ولابد وأن بيبرس كان يلتصق بإقطاى ويكاد يستشف ماوراء طريقته فى الكلام. أدرك تلك الرسائل التى لايفصح عنها.. وقد صار فى مقدور بيبرس أن يحل شفرتها.

أيقن بيبرس بأن إقطاى يرد على أيبك وهو ينظر إلى "شجر الدر" بتلك النظرات المعبرة "بأن ليس هذا وقته ليعلم أخوة الملك الصالح وأعمامه الطامعين فى عرش مصر.. بأن الملك الصالح قد "مات" وإننا ندعى بأنه يقود المعركة من على سرير المرض، حتى بتنا نصدق ما ادعيناه" بنظراته الثاقبة يقول.." لا تتعجلوا يا حضرات الأمراء على الاتيان بنهايتكم.. المعركة لم تزل فى الميدان لم تحسم بعد.. ونحن أمراء هذا البلد بأسم السلطان نجم الدين.. ما دام لا أحد يعلم بأنه مات، أما اذا جاء الورثة، فقد نتحول جميعا إلى "مماليك قرانيص".. وتسجل اسماءنا فى "أجناد الحلقة" وتنتزع من بين أيادينا المزايا التى ننعم فى نعيمها.."

ورأى بيبرس الأمراء ينتبهون لما غفلوا عنه فى اضطرابات العيون والحركات العصبية التى صدرت تباعا.. والأنتقال المفاجيء للحديث فى مواضيع بعيدة عن المجال المنعقد.. كما شاهد بيبرس على صفحة وجه "شجر الدر" المعبر.. حقيقة كل ما فكر فيه.. فأصيب بالأسى، تغلغل بداخله شعور بالحزن، ليس على ما آلت إليه أحوال السلطنة.. لكن على الفرصة التى لاحت واهتبلها وحقق فيها بطولته

المرجوة.. وإذا بالرجل الوحيد الذى يمكن أن يكافئه بالعطايا والوظائف ويرفعه من حال إلى حال، يخلفه فى بؤسه ويرحل!

أى سؤ حظ هذا الذى يلازمك يابيبرس ؟

لكن لماذا تسبق الأحداث وتبتئس.. ثمة أمل واهن بعيد أن يكون الملك الصالح مريضا بالفعل وقد يتماثل للشفاء، ألم تذكر "شجر الدر" بأنه تنفس الصعداء.. لعله ابتهج فانهزم المرض.. وسيفاجىء الأمراء بالدخول على مجلسهم.. يجلس على سريره نصف راقد.. نصف قائم.. ويمنحه الحلة السمور.. ويمكنه من وظائفه واقطاعياته.. بنفس الصوت الواهن المتقطع.. والذى يتقوى به جميع الأمراء الكبار ويطمئنون على مابين أيديهم طالما هو يتنفس !!

والأمر أمسى مربكا حقا لبيبرس.. بل وللأمراء الكبار وتابعيهم، والمعركة يشتد وطيسها حول دمياط.. وميدانها المسافة بين البحر.. وقصر السلطان فى معسكر الملك الصالح فى فارسكور.

• • •

•• بينما أزمة الأمراء الكبار الشخصية تشتد، لم يكن أمامهم الإ ان يحاربوا المعركه بجسارة.. وكأنها الباب الوحيد المتاح لهم للإفلات من الموت الذى ينتظرهم.

وإذا ما كان "طارق بن زياد" قد أشعل النار فى السفن عندما نزل جنوده على صخور شبه جزيرة أيبريا.. وابلغ جنوده بأن البحر وراءهم والعدو

أمامهم.. فإن الموقف برمتــه يعيشــه الممــاليك فــى معركتهم ضد الصليبيين.. الموت لممــاليك قرانيــص ليس لهم شأن كبير.. يعيشون فى معسكرات كالســوائم تعلف لتذبح "خلفهم".أو الموت فى الصدام المروع مــع جحافل الصليبيين ووحشيتهم "أمامهم". ولامناص مــن بذل أقصى الطاقة لإيجاد مخرج لأزمتهم الشــخصية، إلا بالإنتصار على الملك لويس ودحــر جيشــه.. ثــم يحدث بعد ذلك ما يحدث، ففى كل الأحوال.. ســيكون وضعهم كأبطال دافعوا عــن أرض الإســلام وعــن الإسلام ذاته.. أفضل كثيرا لــو أنــهم انــهزموا.. أو تسلمهم الورثةوسلبوهم كل ما حققوه من تقدم وجــهود فى تلك المعركة المتشعبة.

المفاجأة التــى أذهلــت الجميــع أن تتوالــى انكسارات قوات لويس وهزائمــه فــى العديــد مــن المعارك الفرعية.. وقيل أن مقتل الملك رايدا فرنــس، ورفع رأسه على سن رمح، فت فى عضد الملك لويس وأحزنه كثيرا.. وعندما توالى أسر الأمراء الفرنســيين كان أول شيء يبدونه هو التوسل بأن لا تقطع رؤوسهم وانهم على أتم استعداد لدفع فدية كبيرة من الذهب.

وعندما صار "النصر النهائى" يلــوح لأمــراء المماليك.. فوجيء بيبرس بأمر سلطانى مبصوم باختام الملك الصالح، يقرأ فى الأجتماع الــدورى للأمــراء- يعلن فيه- ترقية بيبرس إلى إمــارة العشــرة آلاف.. ومنحه وظيفة أمير الحرس المنوط به حراسة السلطان

وحريمه وعائلته فى وقت السلم والحـــرب- مقـرون ذلك- بإقطاعية فى صعيد مصر.

وعلى ضوء ما تقدم يصـــير الأمـــير بيـــبرس معتوقا. وله ما للأمراء الكبار من حق المشـــاركة فـــى المجالس السلطانية، وقت السلم والحـــرب، كمستشـــار للسلطان أو "من ينوب عنه" - كما سيكون لـــــه الحـــق أيضا بأن يقتنى العبيد والمماليك ليشارك بهم فى المهام السلطانية.

تلقى بيبرس التهانى من الأمراء الكبار وقـــواد مماليكهم، لكن بيبرس وقد أدار فى رأسه ما جاء فـــى القرار، نظر بين يديه فلم يجد إلا وعودا.. وأنه لم يزل "قائد الألف."

"وأميره" الذى فى مقام "أستاذه" هو "فارس الدين إقطاى".. والمعركة لاتزال محتدمة محملة بالمفاجـآت. وأن كل ما جاء فى القرار وإن بـــدا نـــهائياً، إلا أنـــه كان- فى الواقع- يرتبط بانتهاء الحرب لصالح الملـك الصالح.. الذى ضمن قراره أن يطيع السلطان أو "مـــن ينوب عنه"..

لعلها المرة الأولى التـــى يســـمع فيـــها قـــرارا سلطانيا بأن يخضع الأمير الكبير "قائد العشرة آلاف".. قائد جيش كبير من المماليك، ويطيع من "ينـــوب" عـــن السلطان!

وسأل بيبرس نفسه؛ من الـــذى ينـــوب عـــن السلطان فى هذه المرحلة؟

الأمراء الكبار تعادلت كفتهم بصورة لا تجعل لأحدهم الكفة الراجحة.. وما الفروق إلا في سلوك الأمير وشخصيته إن كان متسلطا كإقطاي.. أو مسالما كأيبك. أو منبسطا كبلبان.. أو معقدا وخبيثا كسنقر.. لابد وأن طرفا ما.. رأى في صدور هذا القرار الآن مصلحة ما، هل هو الأمير إقطاي يريد أن يتقوى به؟

أم أنها زوجة السلطان (شجر الدر) وقد بات الأمراء الكبار يخاطبونها بلقب (سلطانة) ولم يعد أحد يناديها (خوند جانم)؟!

والأمير إقطاي بكل ما هو معروف عنه من الكتمان والشعور بأنه الأقوى، هو الذي كان يتصرف بين الأمراء على أنه كبيرهم، صار يلاطف بيبرس ويهتم به.. فلم يغتر بيبرس وينسى أنه أميره وأستاذه. واستمر ينقل إليه احساسا بأنه - قائد مماليكه - والذي يجب أن يحترم إمارته عليه وأستاذيته له.

ولما قال الأمير إقطاي لبيبرس:

- أنت خامس الأمراء الكبار يا بيبرس.

أجاب بيبرس بتواضع:

- العين لا تعلو على الحاجب يا استاذى.. وسأظل دائما لك يدك اليمنى التى تحركها بإرادتك وكيفما شئت!

وقد سر إقطاي بما يسمعه من بيبرس، فقد عجل وصحبه إلى مكان ناء يكونا فيه وحدهما، وأفضى إليه "بأسرار" لها أهميتها، بقدر ما رفعت بيبرس عاليا.. نزلت به الى أسفل السافلين.

- إسمع يا بيبرس..نحن فى ورطة كبيرة. مما يجعلنى أتمنى لو أن حربنا ضد الملك لويس اســـتمرت مائــه عام!

أنتبه بيبرس جيداً، يريد أن يستوعب ذلك اللغز العجيب و استطرد إقطاى:

- لو لم ترفع لك الإمارة وأنت تستحقها مـــا تحدثـت معك فى هذا الشأن.. كما إننى اثق بك وكأنى اتحـــدث لنفسى!

شكره بيبرس على هذه الثقة الغالية وأعاد علـى مسامعه شيئا مما يثلج صدر إقطاى، ويحب أن يسـمعه منه، فقال إقطاى:

- الملك الصالح.. توفاه الله منذ فترة.. واضطررنـا أن ندفنه سراً، ونحن ندفن قتلانا.. فأننا لايمكن أن نحتفـظ بحثته طويلا.. والحجرة التى ندخل إليه فيها ونخــــرج منها وبيدنا القـــرارات المبصومـــة بأختامـــه.. تقــوم السلطانة "شجر الدر" بإصدارها..,

وعندما رأى إقطاى أن بيبرس قد بدأ يـــنزعج طمأنه قائلا:

-الأمراء الكبار وافقوا على القرار بـــترقيتك ومنحـــك وظيفه وإقطاعية،ورفعك إلى مصافنا.. فهم معى، ومع "شجر الدر" قررنا ذلك فى اجتماعانا المغلق علينـــا. وحتى صديقك قطـــز.. لا يعـــرف، إلا أن الســلطان مريض ولا يقوى على حضور الإجتماعات..

حاول بيبرس أن يتساءل.. يلقى بما فى ذهنه من أسئلة.. إجبرته على أن يقف ويدور حول نفسه..كان إقطاى الذى لايجيد الاسهاب يقول:
- المشكلة أن السلطانة شجر الدر قررت ابلاغ "تورنشاه" ابن الملك الصالح، بصفته الملك القادم.. رأت أن ترسل إليه ثلاثة رسل يحيطونه بما نحن فيه من "أسرار" على أن يأتى فى مماليكه، وخدمه القلائل، دون أن يشعر به أحد من أعمامه، وينضم إلينا ويشاركنا الحرب. وأن ينقل له الرسل ما أتخذه والده من قرارات.. أهمها أن لايتبدل الأمراء الكبار الذين شاركوا فى المعركة وكتب لهم الله النصر ...

نعم.. ضمن القرارات.. القرار بترقيتك ووظيفتك واقطاعيتك يا بيبرس. وما على تورنشاه إلا أن يعترف بنا ونحن نعترف به. يبادر ويظهر بيننا، يتقدمنا فى الحرب،ونحن جميعاً معه على الحلوة والمرة......

بيبرس فى مكانه لا يستطيع أن يستوعب ما دفع به إقطاى دفعة واحدة..

قال إقطاى ما قاله ثم جلس منكس الرأس يتفكر ولم يعتد بيبرس أن يرى على محياه ذلك الأسى، فجلس أمامه فى هدوء وانتظر.. حتى قال إقطاى:
- الوريث تورنشاه.. استمع إلى رسلنا من المشايخ وحصل على كل ما أخفيناه. وبادر وأعلن نفسه ملكا على مصر باسم (الملك إلمعظم تورنشاه). وعكس ما كنا ننصحه. إندفع يطلب المدد والعسكر من أعمامه

الملوك والأمراء على مقاطعات الشام. وقد نصب عددا من كبار مماليكه كأمراء قبل أن يأتى إلينا ويشـــاركنا القتال. مما يعنى أنه ينقلب علينـــا وعلـــى شـــروطنا. بالطبع ستضيع ميزتك قبل أن تستمع بها يا بيـــبرس. كما ترى يا بيبرس نحن نبلى بلاءا حسنا فى الحـــرب ضد لويس، وبدأنا نعلو عليه ونرغمه علـــى التقـــهقر. نحاصر قواته وننتظر منه التسليم بين لحظة وأخـــرى لكن اعلان تورنشاه بأنه صار الملك المعظـــم خليفـــه لوالده المريض.. قد أدى إلى أنتشار سر خـــبر وفـــاة الملك الصالح.. واذا بـــالروح تـــدب فـــى الصليبيـــن يحاولون كسرنا باشاعة أن قواد وأمراء المعارك ما هم إلا "قرانيص الملك المعظم".. وأن أمراء الملك المعظم أضعف من أن يجبروهم على ركوب البحر..,

قاطع بيبرس الأمير إقطاى سائلا:

-ما الذى تريده منى تحديدا فىهذه الحالة يا سيدى؟

قال إقطاى بدون لف أو دوران:

- وقع اختيار السلطانة "شجر الدر" عليك.. لتخلصنـــا من "تورنشاه" كما خلصتنا من "ريدا فرانـــس" يـــا قـــاتل الملوك!

(٧)
الحرب تقلقل الثوابت..

□ لم يكن بيبرس يملك- وقد صار معلقا فى مهب الريح- إلا أن يبدى طاعته لأميرة القوى "فارس الدين إقطاى".. ولعله يعبر إلى بقعه الضوء التى تخص شجر الدرّ. بصفتها السلطانة التى تقبض على أعنة الأمور.

كما أن المعارك الدائرة فى ميادين متشعبة بقدر تشعب الدلتا، بين جيش الملك الصالح، وجيش الملك لويس. كانت تشغل المساحه بين دمياط ومعسكر الأيوبيين فى "فارسكور". وتثير كثيرا من الغبار والدخان والصرخات المقرونة بالتدمير والقتل بأنواعه المختلفة.. حتى بانقضاض المجاهدين على من يركبون النيل والغرق بهم فى النيل!

أما وفرصة بيبرس فى الترقى والإمارة وقد لاحت له على عتبات قصر السلطان فى معركة خاضها بقسوة اليائس من النجاة. قطع فيها رأس ملك فرنسى، كان يمكن أن يبادلها بثروة.. والفرصة قد ترنحت، لفظت أنفاسها على سرير الملك الصالح.. ذهبت فرصته أدراج الرياح مع أخر أنفاس الملك،

وكأن الموت صنع له حجرى الرحى.. يهرسه من فوقه ومن تحته.. بالموت لرايدا فرنس كسب فرصته في الترقى.. وبالموت للملك الصالح خسر فرصته فى الترقى..

الموت اللعين لا ينتظر قليلاً حتى يقبض على وظائفه واقطاعيته، يقتنى المماليك الذى يتقوى بهم، ويعتق كأمير، ويصير بالفعل خامس الأمراء الكبار فى عرش مصر..

ها هو.. يهبط فى واقع الحال إلى الدرجة الثانية كقرنص "مملوك موروث من سلطان سابق، عليه أن يخضع لأوامر مماليك السلطان الجديد!"

• • •

كان بيبرس يئن تحت وقع كثير من الكوابيس، بعد أن لقبه (اقطاى) بقاطع رؤوس الملوك- فى إشارة إلى "رأس الملك الفرنسى رايدا" وتحريض له بأن يهىء نفسه لقطع رأس الملك المعظم"تورنشاه" أبن الملك الصالح. وقد بين له الخطر الجسيم الذى يمثله عليهم. فالملك المعظم.. إذا أمسك بزمام البيت الأيوبى فى مصر.. سيميل بوجدانه إلى مماليكه، ثم مماليك الشام.. الذين سيحضرون بايعاز من أعمامه الكبار والصغار لمعاونته.. والأمور لم تعد تتوارى، أنهم هناك يعلمون بأن الملك الشيخ كان لهم بمثابة الأب، وكان لشجر الدر بمثابة العاشق المتيم. وفى ظن [الورثة] أن الوقت قد حان لتخليص عرش مصر من "المماليك" الذين أحاطوا معاركهم حول دمياط بكثيرمن

دعاوى البطولة المزيفة، وهم الذين اذا سقط بين أيديهم أسرى من الصليبيين بادلوهم بالذهب أولا بأول. في إشارة إلى سقوط الملك لويس أسيرا، وحبسه في دار ابن لقمان بالمنصورة، والتفاوض على إطلاق سراحة مقابل فدية كبيرة من الذهب، والاتفاق على رحيل حملته مع مهماتها الحربيه على سفنه، دون العمل على إلحاق الهزيمة كاملة به وقتله.

وقد سارع (الملك المعظم) تورنشاه في التشهيل بالحضور إلى (فارسكور) ليتولى أمر الفدية بنفسه.. ويحاسب الأمراء المماليك على الذهب الذى حصلوا عليه مقابل فديات القادرين والنبلاء في جيش الملك الفرنسي، والذى كثرت عثراته وهزائمه أمام جحافل المقاومة التى شكلها الأهالى. والهجمات القوية التي كان يشنها فرسان المماليك ويأتون فيها بالغنائم والأسرى. يبادلون كبارهم بالمال.. ليعودوا ويأسرون غيرهم!

والحالة الكابوسية التى اكتنفت بيبرس كان مصدرها الفرق الهائل بين الملك الفرنسي المقتول الذى بقطع رأسه أوقع الرعب في فرسان الصليبيين وأمكن أن يضفى الحماية على القصر السلطانى، وبه أنقذ رأسه وأنقذ القصر – والملك المعظم ابن سيدهم.. والذى يمثل قتله سابقة خطيرة، وذنبا عظيما يرتكبه مملوك في حق سيده.. ومن هذا السيد؟ انه سليل البيت الأيوبى العظيم.. والذى لايزال، المدافع عن المسلمين

والديار الاسلامية، مقتديا بالأسس التى أرساها المجاهد الأكبر صلاح الدين الايوبى..

بدا بيبرس كمن تلقى ضربة مؤثـــرة علـــى أم رأسه.. يترنح ولا يستطيع التفكير.

• • •

بيبرس لم يكن وحده الذى يئن تحت وقع مـــا ستأتى به الأيام القادمة. وقد صــــار للملـك المعظـم تورنشاه من يأمل فى الأمارة والقبض على المزايـــا. بفريق يعمل على إزاحة الممـــاليك الصالحيـــة..ليحـل محلهم المماليك المعظمية!

فالأمراء الكبار – الأربعة– كان يكر بهم، هَـــمٌ الأيام القادمة،وقد قلبوا معظم بطولاتهم وتضحياتهم فـى صد العدوان الصليبى على البلاد،إلى خيانة، جمدوهـم فى أماكنهم بشق الأنفس،ثم نهشوا معنوياتهم،واندفعـوا للوصول إلى أجسادهم ليثخنوها بـــالجراح.. تحولـت البطولة،قرينة للخيانة والتواطئ..

• • •

.. أما وقد انتهت الحرب بوقـــوع الملـك لويــس أسيرا.. وبات مقتل الملك رايدا فرنس يشكل ضغطـــا وارتباكا فى صفوف الجيش الصليبى، خشيه أن يتهور أمير مملوكى ويقتـــل الملــك "القديــس" لــذا ســارع المفاوضون منهم بالموافقة على معظم طلبات أمـــراء المماليك، وشرعت المقاطعات الفرنسية والأوربية فـــى تجميع الفدية الكبيرة، وترسلها على عجل إلى مصر .

••ولما حضر الملك الشاب تورنشاه • كان همه الأول، ليس رحيل قوات الفرنجة واستعادة دمياط، وإنهاء تلك الحرب التى أعيت جسد السلطنة. بقدر اهتمامه باستلام خزائن والده. ومحاسبةالأمراء المماليك على ما يملكونه وما حصلوا عليه ••

وفى كل الأحوال كان الفريق الذى يحيط بالملك المعظم يهون من أعمال المماليك الصالحية. حتى أن الملك المعظم تورنشاه•• قام بزيارة الملك لويس الأسير وأهداه (خلعة) وانتظر أن يقبض بنفسه قيمة الفدية التى حددها المماليك، ورضوا بها أثناء المفاوضات على وقف العمليات القتالية وتجهيز جيش الفرنجة للرحيل!

الملك الشاب تورنشاه•• بدا نزقا ومبهورا واظهر بأنه لا يكن شيئا من الاحترام لأمراء منحهم والده الثقة.

وقد أعلن بأن الحرب قد وضعت أوزارها، وما على "القرانيض" إلا الطاعة.. بادر وشرع يملأ الفجوات التى حدثت فى الفرق- بمماليكه- ليرثوا بيوت وزوجات وأولاد ووظائف من ماتوا اثناء القتال.. دون مراعاة للأحياء من المماليك الصالحية الذين ينتظرون دورهم فى الترقى،وعلى ذلك بذلوا الجهد فى الحرب!

كما دأب دعاة الملك المعظم"تورنشاه"يعلنون بأن على (القرانيص) الطاعة، وافساح المقدمة لأمراء الملك المعظم، أنها دورة معتادة- صعود وهبوط- وما على المملوك مهما ارتفع شأنه فوق الرؤوس،إلا

لينحني أمام وارثه سيّد البلاد.. فهو منقول من منقولاته المتوارثة!

• • •

.. سريعا ما تخلص الأمراء الصالحية من غضبهم الذى يشل قدرتهم على التفكير، وتناسوا المنافسات التى بينهم. وهى منافسات أعتبروها ثانوية بالنسبة لما يواجهونه الآن من اخطار ذادت عن الحد.
والملك المعظم يطلب من زوجة أبيه-شجر الدر-التى سارعت وأرسلت لتستدعيه من قلعة كيفا البعيدة- بين جزيرة ابن عمر وميارقين بديار بكر- يطلب منها بطريقة غير لائقة، بأن لا تجالس الملوك وأن لاتلتقى بالامراء السابقين، أو الحاليين، وأن يكون مقرها الدائم مع الحريم..
وقد تشكك فى أنها لم تدله على كامل أموال الملك الراحل وأنها تخفى الكثير منها. هى التى كانت محل ثقة والده المتوفى،وفى ظنه أنها قد أخفت الكثير من امواله وجواهره.

ولم يقتنع بأن معظم أموال الملك الصالح انفقها على تجهيز فرقة المحاربة، وأنه لم يثقل على التجار أو الفئات الزراعية والحرفية واكتفى بأن تتكون من الأهالى القادرين منهم، فرقا لتقديم المعونة لفرسانه. وقام ببناء 'مدينة' مع ما يتطلبه ذلك من نفقات باهظة.

• • •

كان أمراء المماليك الصالحية الكبار قد خرجوا من معركة المنصورة وحصار دمياط مثخنين بالجراح.

الجراح النفسية، أقسى على نفوسهم من جراح الجسم، والآمال التى رافقت انتصاراتهم فى معاركهم الجانبية والرئيسية، حلقت بهم.. سقطت على أرض صخرية ذات نتوءات لتتفتت!

النصر على الملك لويس وقواته وفرسانه لم يكن سهلا، والخسائر فى الأرواح من الجانبين كانت عالية، والحساب دائما ينحصر فى المماليك الذين قتلوا.. أما أهل البلد الذين شاركوا فى المقاومة وأقاموا السدود البشرية لتعطيل زحف هذه القوات وتجميدها فى أماكنها،فلا أحد سيحصر عددهم، لكى يدفع عنهم تعويضا. أو يؤشر على وظائفهم بانتقالها لبدلاء فى سجلات القلعة.. ومع ذلك فإن الأموال التى وصلت أمراء المماليك الكبار لم تكن تكفى رتق الثقوب فى الثوب الذى تهرأ..

وها هو الملك الشاب"تورنشاه"يستدعى أمراء المماليك لتقديم كشف حساب مشكوك فى صحة ما يقولونه قبل أن ينطقوا به.ويؤكد لهم بأن عيونه وجواسيسه زودوه بإحصاء بكامل الأموال التى وصلتهم.. ويسألهم أن يقروا- فقط- أين وضعوها.؟!

انه يحاسبهم على ما حصلوا عليه من أموال سيدهم.وذهب فديات الأسرى الكبار من الفرنجة ويصم أذينه إذا ما ذكروا النفقات والخسائر من الأموال والمماليك.وما تعرضوا له من أخطار، فلو أن الملك الصالح كان لايزال حيا.. لضاعف ما انفقوه وأذاد من

الإعطايات لهم، وعوضهم كثيرا.. أو على أقل تقدير لبقيت لهم مزاياهم، ولم تعد مهددة بانتقالها لغيرهم..

• • •

في الأوقات العادية كانت طاعة المملوك واجبة لسيده.والتبديلات التي تحدث هي سمه النظام والحياة. يوم في النعيم ويوم في العراء مطاردا..والمصير مرتبط دائما بأحوال السادة.وما تسفر عنه منازعاتهم. لم يكن للمملوك أن يفكر في تعديل قرار.. وحياته مقبوض عليها بيد سيد- في كل الاحوال- ترجب طاعة هذا السيد بدون نقاش!

معاملة الملك الصالح لمماليكه كانت تتسم بالروح الأبوية،ففتحت الطريق للمشاعر الانسانية،وأن يشعر المملوك بآدميته.. لعل تلك المشاعر الجديدة كانت جوهر انتصارهم الساحق في معركة المنصورة. وقد أصبح الأمر بيدهم منذ الأيام الأولى لوصول "الملك الصالح" إلى قصره في فارسكور.. ثم أقعده المرض أو سلب روحه مبكرا.. لقد زرع الملك الصالح في نفوسهم شيئا جديدا. حولهم من آلات صماء لاتبتكر.. تنفذ الأوامر ولو كانت بالخطأ.. إلى شبه أحرار يفكرون ويبدلون، يضيفون أو يحذفون أثناء المعارك، طبقا لما تتطلبه الظروف.. حتى توالت إنتصاراتهم على جيوش أعدها الملك لويس جيدا وجهزها لتغطي مصر والشام.. هي الحرب التي تصهر الأشياء جميعها وتعيد تشكيلها من جديد.. معظم المتغيرات تأتي عقب الحروب الكبرى.. ومعركة

المنصورة.. كانت بالنسبة للمماليك.. هي حربهم الكبرى.. التى ملأت نفوسهم بالفخر والانتصارات.. وملأت نفوسهم أيضا.. بالقلاقل والأضطرابات. لكي تذوب الطاعة التى ليست فى محلها.. وتهتز المقدسات المترسبة فى نفوس المماليك منذ بدأ هذا النظام فى دولة السلاجقة بآسيا الصغرى.. وتصرفات الملك الشاب "المتهور" - وقد جاء إليهم فى فرقة قليلة الشأن بالنسبة لفرقهم التى تحت أيديهم، فرقهم المعبأة بأماني النصر الذى تحقق بدون أن يكون لتورنشاة سهم فيه. أنه يريد أن يستحوذ على مزايا هذا الانتصار الكبير الذى هز أوربا، وسيقوم بردعها لمئات السنين القادمة.. حتى لا تفكر فى غزو الشرق بتلك الحملات من الكراهية.

والمشكلة فى الواقع، أمست تقلق الأمراء الكبار من المماليك.. عز الدين أيبك التركماني.. وفارس الدين إقطاي. وهما أقوى أمراء المماليك الأربعة. إذ أن شمس الدين سنقر الرومي، وسيف الدين بلبان الرشيدي. كانا يقران بأقدمية الأميران أيبك وإقطاي.. وبأنهما أكثر حيازة للماليك وللوظائف في الدولة والتى تدر دخلا ثابتا يكفي نفقاتهما على مماليكهما فلا يتطلعان إلى أكثر مما هما فيه.. وقد صار همهما أن يحافظا على ما بيدهما!

"بيبرس" الذى رفع إلى إمارة الألف فى بداية المعركة.. وأبلى بلاءا حسنا فى معركة القصر، فطيب خاطره بقرار مبصوم بخاتم الملك الصالح. يشك بأن

الملك الصالح كان حيا عندما صدر هذا القرار- والذى مهدت به شجر الدر- لكى يطرحون عليه فكرة قتل الملك المعظم. ويتركونه يدير هذه "الفكرة الخطيرة" يقلب فيها من كافة الوجوه" وفى ظنهم أن من يقتل الملك الصليبى "رايدا" يستطيع أن يقتل الملك المسلم.. "تورنشاة".. متناسين أن الملك الصليبى جاء معتديا.. وتوغل إلى فارسكور ليحاصر قصر السلطان، وكان مقتله- المنفذ الوحيد- لوقف اجتياحهم لقصر السلطان، واستيلاءهم على أمواله وحريمه، بل وعليه شخصيا- حيا أو ميتا- وفى ذلك كان سيتوالى انهيار جبهة المسلمين فى تلك الحرب التى هبطت على شمال مصر كالصاعقة، دون مقدمات أو أسباب تستدعى ذلك. مع ما هو معروف عن عهد الملك الصالح بالدعة والسلم، وعدم الدخول فى مغامرات ضد الفرنجة أو تجارتهم.بل كان يفتح الطرق فى مصر لجميع التجار من أنحاء العالم، شرقه وغربه. وكان يدرك تفكك البيت الأيوبى أمام الأخطار العظمى، فلم يتعمد إثارة أحد من جيرانه، وكان منكفئا على أحوال مصر، محصورا فى القاهرة.. يعانى من الوهن والمرض والشيخوخة حتى أنة تخلص من أبنه تورنشاه بالطرد- عندما صدم بتهوره واندفاعاته، فإذا بابنه يكمن فى قلعة كيفا .. عدة سنوات. ثم يعود طاغية.. لا يصدق أحد بأن هذا الإعصار من الغضب، هو أبن الملك الصالح.. والذى كان يصدق عليه لقب "الملك الهادىء" نجم الدين أيوب.

(٨)
قاتل الملوك والمهمة الصعبة

□ **معركة المنصورة** تمت فـــى بدايتـــها ترقيـــة المملوك "بيبرس" من نقيب دباش قائد مائة إلى "أمـــير آلاى"، يقود ألف وبذلك أصبح قائداً لمماليك فارس الدين إقطاى. وعقب معركة "القصر" أضحى بطلا يحتفى بـــه. وتمت ترقيته على الورق، أمير ركن، قـــائدا لعشـــرة آلاف، وتلك الترقية جعلته خامس الأمراء الكبار فـــى فرق جيش الملك الصالح، لكنه ظل تحت أمرة إقطاى، إذ لم يتسلم إقطاعه أو وظائفه. كما لم يســـعفه الوقـــت حتى يعمر قصره بالمماليك "الخاصكية" الذى يتقـــوى بهم ليعيش وكأنه صورة للسلطان على الناحيـــة التـــى سيتولاها من البلد.

كان أحدث الأمراء، مثله مثل قطز الذى يعمـــل قائدا لمماليك عز الدين أيبك، كلاهما تمت ترقيته فـــى غمار الحرب وضجيجها، وليس لهما إلا أجناد الحلقـــة من المماليك "القرانيص"، وما يجود به أمراءهما مـــن "خاصكية" يقودهم أثناء التكليف بالمـــهمات الحربيـــة، وهؤلاء لا يخدمون أميرهم فى قصره، أو يوظفون فـــى

إقطاعياته، وليس عليهم تكاليف شخصية نحو أميرهم فهم "أجناد حلقة".

حتى كانت الأزمة الضاغطة التى خلفها موت الملك الصالح، والمجيء بولده تورنشاه الذى أبدى أنقلابا على المماليك الصالحية. وقد سارع ونصب نفسه ملكا بأسم الملك المعظم، ولم يكن كبار المماليك أمام طغيان "تورنشاه" وتهوره، - حفاظا على ما بيدهم من مزايا - إلا التآمر مع "شجر الدر" لقتل تورنشاه، قبل أن يتولى أمراؤه مناصبهم، ويستولوا على ما بأيديهم من إقطاعيات ووظائف!

وقد وقع اختيار إقطاى على "بيبرس" لكى يدبر هذه المسألة، ويقوم بتنفيذها بمعرفته، ووعده إقطاى بأنه سيعالج المسألة مع باقى الأمراء حتى لو اضطروا إلى تنصيب [طفل] من البيت الأيوبى، ويكون أحد الأمراء منهم "وصيا عليه" ذلك يحفظ لهم مزاياهم، كما سيكون فى الامكان منحه ما سطر له فى "القرار السلطانى" المبصوم بمزاياه، كأمير ركن، له ما لأمراء الأركان الأربعة من مزايا، ونفوذ.!

• • •

- بيبرس لا يخفى إعجابه الشديد بالأمير فارس الدين إقطاى الذى كان واسع الأطماع، قوى الشكيمة، وهو أقرب إلى فرسان المغول فى عنفهم وإنقلابهم وردود أفعالهم غير المتوقعة، كما أنه كان يتسم بالغموض، فلا يعرف أقرب الناس إليه موقع خطوته التالية، وعلى كاهله، وقعت أعظم المعارك فى

المنصورة "فكان لها" ولم ينكسر أمام الفرنجة ولا مرة واحدة "كما أنكسر بلبان فى واحدة" وانكسر سنقر فى اثنتين، ويساويه فى عدم الإنكسار عز الدين أيبك إذ أن كلاهما يقتنى الأعداد الكبيرة من المماليك الأقوياء، وفرسان الفرنجة كانوا يعملون حسابا للناحية التى يقع عبء الحرب فيها على كاهل "إقطاى"، ربما أكثر من "أيبك".

فإقطاى كان يفضل إعمال السيف فى رقاب من يسقطون أمامه، أو يخادعونه بالتسليم ورفع الرايات البيض وإدعاء المسكنة، وأنهم جمعوا من حقولهم البعيدة فى أوربا وألقوا بهم فى أتون المعركة، وما على العبد الفقير إلا أن يطيع. لا تأخذه رحمة بأحد منهم، بينما كان "عز الدين أيبك" يستجيب لرجوات الأسرى "ويخفف عنهم" وإذا ما كانوا فقراء "يكفى أن يقرون بذلك" فلا يتعالى فى طلب الفدية لإطلاق سراحهم، وإعادتهم إلى الملك لويس، مصدقا على العهد الذى يقطعوه على أنفسهم بأنهم لن يحاربوا المسلمين مرة أخرى. ومع أن أيبك كان يعثر على من ينكث بعهده من اسراه السابقين، يخوض المعارك ضده واحدهم أجاب عليه بأنه دفع فديته وما عليه إلا أن يستردها بنفسه. فى وقاحة أساءت إلى أيبك وأثارت من حوله، ومع ذلك رفض قتل هذا الأسير الوقح، وطلب فدية مضاعفة عليه، وأبلغه بأنه فى المرة القادمة إذا ما سقط فى يده فسيقتله. الفرنجة

كانوا يعلمون الكثير عن طباع الأمراء المماليك، فقد رد عليه الأسير قائلا:

- أنت لن تقتلني يا أمير، ليس هذا طبعك، فأنت لست الأمير إقطاى الذى يحصل على الفدية ويقتل أسراه!

***

كان الصليبيون يتسلحون بالحمية الدينية، وعدم الرحمة، ويعتبرون المسلمين "عبدة أحجار" لكونهم يطوفون حول الكعبة، فيقتلون أسراهم دون إحساس بأن ذلك سيعكر صفو العلاقة بينهم وبين الرب!

وكان فارس الدين إقطاى له طابع المغول فى حربه ضدهم وهو الأبشع. إذ كان يناور مثلهم،ويلقى بالوعود المحفوفة بالإيمانات العظمى "ثم يحنث بها" كدأب الطابع المغولى فى الحروب "قطمه أفضل من نحته" والوصول المباشر إلى مواقع القادة الكبار وقتلهم والتمثيل بجثثهم،ذلك يسهل لهم قتل الصغار بدون بذل كثير من الجهد،ولا مجال لإقتناء الأسرى واطعامهم وانشغال فريق بحراستهم، .فى رأيه، أنه من الأفضل، قطع خيط العقد كى تنفرط حباته، والحبات بدون الخيط لا تصلح عقدا، أو مسبحة!

وبيبرس أتقن تلك الخطط المغولية وتشربها!

"أقطع الرأس فلا تكون هناك خطورة من جسم يتحرك قليلا ثم يهمد، حاول بيبرس أن يكون غامضا وطموحا وجسورا "مثل إقطاى" فى آن واحد، لكن هناك فرق كبير بين أمير ركن، فى يده وظائفه ومماليكه،وله نفوذه، وبين" أمير ركن"، كانت ترقيته

مجرد ورقة سلطانية مبصومة، فتحت أمامه باب الأحلام، ثم قام الموت باغلاق الباب على تعاسة واحباط، مع أن القرار السلطاني يضعه في مصاف الأمراء الكبار "نظريا" لكنه عمليا لم يزل "المأمور" من إقطاي، ذلك الذي لا يحترم وعوده إلا بقدر قوة خصمه في الإمساك برقبته، إذا أطاح بيده بادر وخنقه!

لذا كان إعجاب بيبرس بالأمير القوي إقطاي مشوب بالحرص، والعمل على أن يأمن جانبه، إذ يراه سريع الغضب ويمكن أن يطيح بما بقي له من آمال، إذا ما رأى منه تسويفا وعدم جدية في حسم التكليف الذي صوره، بأنه "تكليفا جماعيا" من أركان فرق جيش الملك الصالح، ورغبة ملحة من "شجر الدر".

بيبرس يرى في إقطاي صورة من ذاته، على أتم استعداد أن يبني مجده بالجماجم، يصعد عليها ليكون هو الأعلى، بيبرس كثيرا ما تصور في أحلامه وسرحاته أنه فارس من فرسان المغول قام بتدمير الدولة الخوارزمية، ولأنه فتح عينيه فوجد نفسه في جانب المسلمين يجب أن يحزن على هذه الدولة التي بأنهيارها ساح المغول في الشرق، وباتوا يحاصرون عاصمة الخلافة العباسية،ويستهدفون عاصمتها بغداد، ويتوعدون الخلافة بالزوال، وبغداد بالدمار.

بينما المملوك قطز، عكس بيبرس، يتخيل أنه أبن لأخ الملك المهزوم جلال الدين، الذي لم ينجب صبيا يرث العرش، وانجب فتاة يرى ملامحها في أحلامه، يحق له الزواج منها، واستعادة عرش آبائه،

لذا كان قطز يرتاح لحالة يحاول فيها الابتعاد عن العنف المغولي، ميالا لذلك الهدوء الذى كان طابعا مترسخا فى أميره عز الدين أيبك، وبدا قطز أنه يتصرف بين المماليك ووحشيتهم وبدائيتهم على أسس أنه "أمير" ضل الطريق، وينتظر أن يصل إلى مملكة آبائه ليستعيد عرشها من يد المغول!

وكثير من الممالك كانت تزول وتنهار ومن بقى من البيت المالك، يعيدها ويقيمها من جديد، فالثبات لم يكن طابع العصر، وأى خلل فى ناحية ما، تتأثر به النواحى الأخرى، إذ أن الثوابت كثيراً ما انهارت أمام الحروب. وها هو بيبرس يمسك بأمارته، أمارة فرضتها الظروف القهرية، أمارة زئبقية إذا ما رفع يده ليعلن الفوز بها انصرمت من بين أصابعه وأفلتت لتقع فى حجر إقطاى، يتناولها من حجره ولا يعيدها له إلا إذا دبر مقتل الملك المعظم تورنشاه. وأن يكون ذلك سريعا، أسرع من الأحوال التى تتبدل حولهم.

لذا فإن إقطاى جعل بيبرس لصيق الصلة به، على أعتبار أنه سيدبر الأمر وينتهى منه، لابد وأن يفعل ذلك، إذا ما كان بيبرس يعجب بإقطاى ويعلم الكثير عن طباعه وخصاله المغولية، فإن الأمارة الفعلية لا تتأثر إلا بالرجال، ونفقاتهم كثيرة، فيكون الإقطاع المناسب له أهميته، كما تكون الوظيفة الكبرى لها أهميتها للحفاظ على الإقطاع وزيادته، وهذا كله لا يستمر إلا بدعم "أمير كبير قوى" يصد عنه المؤامرات عند السلطان.

أما و السلطان قد مات، فالأمير القوى باق، كلفه باختبار قد ينجح فيه أو يرسب، لكن المهم "المحاولـــة" التى تعبر عن الطاعة.

يا له من أختيار قاس على قلبك يا بيبرس، قـــد يتضمن التضحية بك، فيكسب إقطاى على طول الخط، إذ ما تم قتل قـــاتل الملـــك المعظـــم ســـليل الملـــوك الأيوبيين، فإن ذلك وارد طبقا لمسار تفكير إقطاى!

• • •

كان بيبرس يخشى إقطاى برغم إعجابه الشـديد به، كشخص، وكمحارب، وكأمير. إقطاى مثله الأعلـى، إذا ما ارتفع للسيادة فأنت يا بيبرس "ســـتكون" أمـــير الفرقة" المحاربة وقت الحروب ووزيره وقت السلم.

لكن الأمير القوى، حتى ولـــو أحـــاط نفســـه بالأمراء الاقوياء، فلن يقبل إلا أن يكون الأقوى، لكى يحصد مزيداً من القوة فسيكون عليه دائما هزيمة مـــن حوله ودفعهم بعيداً.وفى تلك المرحلة المضطربة، كـان بيبرس يتمنى أن يرفع عز الدين أيبك "ليكون الكبـــير" الذى بيده الحل والعقد، لكن كيـــف؟ والقـــوة الفعليـــة، مقسومة بين الأميرين، تميل قليلا إلى كفة إقطـــاى، لكن مجمل المماليك يرون أن أيبك واضحاً وصريحا ولا يخفى المفاجآت فى كم بذتـــه العســـكرية، إذا مـــا وضعت الحرب أوزارهـــا، قـــام كالحـــاوى بـــإخراج المذهلات منه. إذ عندما يغضب إقطاى يقتل، وإذا مـــا حدث القتل الخطأ لا يدفع تعويضا، لكنه يلوم المقتـــول بأن وضع نفسه فى مواجهته!

ومجمل المماليك.. مالوا إلى صف "عز الدين أيبك" لطيبة قلبه ولخشيتهم من أطماع "إقطاى" التى لا حدود لها. وقد لاحت نذر الصراع بين الأمراء الكبار والملك المعظم.. ورأوا أن "أيبك" لديه المقدرة أن يكون بالنسبة للملك الشاب فى صورة "المستشار" الذى يوفق بين مصلحتين، ليس بينهما تناقض كبير..!

• • •

الأموال الطائلة التى خلفتها فترة السلم الطويلة. ولم تستغرقها الحرب الساحلية فى دمياط والمنصورة. كان البعض يترصدها ويتابع حركتها، فإن اسرار الودائع الموزعة عند مشايخ الحارات المغلقة. وأرباب السجاجيد، لن تفصح بها "شجر الدر" إلا لانسان تأمن عدالته فى نصيب وافر لها. انسان قنوع بما بين يديه.. أنه "أيبك" وليس (إقطاى)، وقد اطمأنت أن "تورنشاه" لن يتخلص منها لذلك السبب. وحظ بيبرس أوقعه تحت أمرة إقطاى الذى يعجب به ويخشاه. كان يرى فى "عز الدين أيبك" أميرا لا يصلح لفترات الحروب. لكنه خلق لفترات السلم الطويلة. "أيبك" واسع الثقافة ويستطيع أن يستشهد فى أقواله بأبيات من الشعر وأيات من القرآن الكريم، كما أنه ملم بأخبار الأمصار الإسلامية. ويهتم بالعلوم الدينية، وأحيانا يبدو كأنه أحد طلاب الأزهر الشريف. عندما يستمع فى مجالسه للشيوخ، يحفظ عنهم ويساجلهم- وقد يشبه مجلسه مجالس السادة العرب المسلمين، بل ويقرن اسمه بأنه ابن عبد الله النجمى الصالحى - يجيد الحديث، كما

أنه لم يهزم فى الحرب** بينما إقطاى لا يجيد "الحديث" ويضيق باللف والدوران، ويصل إلى هدفه مباشرة، حتى لو أغضب ذلك من حوله.

***

فى مجلس الكبراء- الذى لم تحضره شجر الدر** وقد حدد اقامتها الملك المعظم تورنشاه فى القصر السلطانى بفارسكور، مزمعا عودتها إلى القصر السلطانى بالقلعة. بدا الأمير عز الدين أيبك قلقا، وغير مستريح لفكرة الجهر بقتل الملك المعظم ابن سيدهم. وهو ما كان يجهر به "إقطاى" بلا وجل!

لكن بيبرس استشف بأن مقتل الملك المعظم فى ذلك الوقت وانجاز هذه المهمة، لن يعارضها أيبك الذى يريد اللف والدوران حول الهدف للوصول إليه من الخلف، وليس من الأمام. على أساس عدم اثارة المشاعر!

كما أنه حذر بأن تورنشاه سليل ملوك. والأمر لن يمر ببساطة. والأفضل الذى يراه ملائما الآن. هو اذا ما حدث وقتل، أن يتولى الملك مكانه، "ملك أيوبى" يوافق على شروط الأمراء الكبار، فالجهاد الذى تحقق بهزيمة الفرنجة لا يجب أن يذهب هدرا مع دماء تورنشاه..

وعاد عز الدين أيبك يقترح أن يعطى فرصه بأن يقدم تحذيرا للملك المعظم تورنشاه ويبين له أن القوى صارت بيد الأمراء المماليك** وأن يكلف عددا

من المشايخ والعلماء وأرباب السجاجيد بتوجيه النصــح للملك الشاب..

..في الوقت الذى وافـــق فيـــه إقطـــاى علـــى مقترحات أيبك،كان ينظر فى عينى بيبرس،يصب فيــها رسالته الأخيرة"عجل بقتل الملك المعظم يا بيبرس."

" انظر.. انت إذا ابطأت أدخلتنا فى متاهات!



(٩)
الموت المعجل
والموت المؤجل!

□ **تورانشاه،** أبن الملك الصالح، سـليل الملـوك الايوبيين، مستقوى القلب بأعمامه وآبائه ملوك وأمـراء الشام، لعله فى عزلته بين خدمه وحراسه فى قلعة كيفا البعيدة عن مصر وما يجرى فيها، كان قد توغل فـى الأحلام.

والده الشيخ فى أواخر أيامه، خيل له بأنه البطل الذى سيوحد البيت الأيوبى، "تورنشاه" الذى عـاش عمـره منعما فى فترة السلم الطويلة، ذلك الذى ولد وفى فمـه ملعقة من ذهب، وإذا ما غضب عليه والده، خاصة بعد أن رفع جاريته "شجر الـدر" إلـى مرتبـة الزوجـة الشرعية دون أن يكون له منها وريث، فناهضـه ابنـه، ضايقه حتى قرر إبعاده عن قصره فى مصر.

أرسل معه مائه خادم، يسهرون على راحتـه، وأرفق بهم مائة مملوك يسهرون على حراسـته فـى القلعة البعيدة، فأمضى "الفتى" وقته الطويل فى الصيـد والقنص، أو الزيارات إلى عروش أعمامه فى الشـام، يحل عليهم ضيفا كريما، يخاطبونه فى إجلال "ملـك" مصر القادم على عرشها القوى، "فالشام بدون مصـر"

ضعيف مفكك، متنازع القيادات "والشام بمصر" قوى ويملى أرادته على جيرانه.ويصد عن مدنه وأرضه وقلاعه الأطماع التى تحيق به من البر الشرقى، والبحر الشمالى، أما الجنوب فصحراء، الأغارات منها للسلب والنهب دون المكوث لتملية الإرادات!

لذا لم يكن تورنشاه على علم بخفايا نفوس أمراء الملك الصالح، وظن عندما أرسلوا له الرسل من فصحاء العلماء.

بأن يسارع ويشاركهم الجهاد الأكبر ضد الصليبيين وبذلك يحق للأمراء بالنصر النهائى، أن يكونوا قادة فرقه وجيشه، ولا ينزلهم إلى مرتبة "القرانيص" وأنهم يتقوون به ويرغبون فى أن يتقوى بهم.

ولما عرض عليه الوسطاء بأن لا يحضر معه أحد من عسكر الشام، وقد دانت المعركة لهم، والنصر أوشك أن يتحقق، وبينوا له خط سير المعارك وما أدى إلى الهزائم المؤثرة التى منى بها الصليبيون، فقد فعل عكس ما طالب به أمراء والده، أتى فى فرقة من المماليك- غير متجانسة- تم جمعهم من مماليك الأعمام والأقارب- كل منهم يريد أن يبدو بأنه ساهم فى مسانده عرش تورنشاه وفى الجهاد ضد الصليبيين.وهم يعلمون بأن المعركة قد دانت للمماليك الصالحيه، والمفاوضات قائمة لرحيل الغزاة.. وفك أسر مدينة دمياط.

لم يكن الملك المعظم الاشاب تلعب به الاحلام، تصعد به الأوهام فى أن يلعب دورا يماثل دور جـــده الأعلى صلاح الدين، لكنه فى الحال. لم يكن صـــاحب حنكة أو سياسة،حتى يدير إليه كـــل الـــرؤوس مـــهما تناقضت أهدافها ومراميها..

• • •

كان يمتلئ بالغرور.. وكان يستمع بميل وهوى إلى عدد من مماليكه المقربين.. ولم يستشف أغراضهم البعيدة فى الطعن وتصوير المسائل فى مصـــر بأنـــها تحكم بعصبيه غير مشروعة.. وأن المعركة التى فـــى الدلتا لاتستحق كل ما يشيع حولها من دعايات يحملـــها الرواة.. وأخبار يروجها الاخباريون ودليلهم، أن الملك الصالح لم يطلب المعونة من أقاربه بالشـــام، وإن دل ذلك، فإن المعركة برمتها أقل كثيرا مما يحيطها مـــن مغالاة وبطولات.. فكان كلام أمراء الملك المعظـــم يقع موقع القبول عنده- لأسباب قديمة مترسبة- ولـــم يشاهد أو يشتم رائحه أطماع أمراؤه فى الوظائف التـــى ستتاح لهم بالقاهرة، وقد لاحت لهم الفرصـــة ســـانحة مدعومة من مشايخ يقدمون وافر الولاء لتورنشاه، قبـل أن يعتلى عرشه، يفرشون له الأرض من قلعة كيفا إلى قلعه الجبل بالقاهرة بالأمانى الطيبة.. والتـــى تحقـــق بعضها. إذ وهو فى الطريق إلى القاهرة. سقط الملـــك لويس أسيرا، وتم حبسه فى دار ابن لقمان بـــالمنصورة وكان هم الملك الشاب الحصول على ارث والده مـــن الأموال والنفائس.. وكيف يمكنه أن يوقع الرعب فـــى

قلوب أمراء والده، حتى يفصحوا عن كافة الأسرار التى لديهم..

أما الوعود والرجوات التى طلبها الأمراء الصالحيه من ابن سيدهم.. فقد أجل النظر فيها والوعد بها.. ثم خالف رجواتهم ولم يذهب الى القصر السلطانى بفارسكور.. فضل أن يحل أولا بالقصر السلطانى بالقلعة، وفيه يعلن نفسه ملكا من هناك.. محاطا بحلبة من مماليكه، ومن أنضم إليهم من أجناد الحلقة الذي يحمون العاصمة، ويديرون شئونها..

• • •

قال العامة الذين كانوا يتابعون أخبار المعارك فى المنصورة ويستمعون لرواة الروايات والمنشدين.. كل غربال وله شدة.. ولكل دولة رجالها.. ولكن لن يكون مكافأة الذين يجاهدون فى سبيل الله وأمة الاسلام أن لا يحضروا احتفال صعود تورنشاه إلى عرش والده.. فهم الأمراء الحقيقيون الذين يستحقون الوقوف فى ذلك المشهد مع الملك المعظم، وليس هؤلاء الذين يأتون- ليأكلوا من السماط بعد أن تم اعداده وتجهيزه- يأكلون منه قبل تواجد اصحاب البيت! »

كانت الأخبار تترى إلى الأمراء المجاهدين فى المنصورة بما يحدث فى القاهرة.. وعندما تفاقم قلق الأمراء.. من جراء ما يصلهم من أخبار ووقائع. عكس ما طلبوه من الملك الشاب. تم عقد الإجتماع بحضور [شجر الدر] والأمراء الأربعة الكبار، يشاركهم فى ذلك الإجتماع "أربعة" من القواد الصغار

- لكل أمير كبير قائداً لمماليكه- كان أبرز هولاء القواد "بيبرس، وقطز" ولم يكن لقطز حق التدخل والإدلاء بدلوه، فهو يحضر الإجتماع كقائد لمماليك أميره "عزالدين أيبك"- أما بيبرس فقد منح بالقرار السلطانى الذى صدر عقب معركة القصر- وما أبلاه فيها- بات له الحق فى المشاركة الفعالة على اعتبار أنه خامس الأركان العظام..!

فى هذا الإجتماع الخطير.. أمكن لأمراء المماليك أستعراض أفعال الملك المعظم، وتبلورت المشكلة بالنظر فى جوانبها المختلفة.. واستقر الرأى بأن فيما يأتيه تورنشاه من أفعال تعتبر موجهة ضدهم وتفقدهم الأمان. كما تهدد مزاياهم، بصفتهم المجاهدين واصحاب الانتصار فى معركة المنصورة، فأنهم يجب أن يتكتلوا ويقسموا على التمسك بوحدتهم، والتى قد تعصف بها الريح القادمة من "قلعة كيفا"- واذا ما لم يقم الملك الشاب باحترام ما عرضوه عليه، فإن رأس تورنشاه تكون فى المقابل.. وعليهم الاستفادة مما حققوه من بطولات وسمعة طيبة..

وقال بلبان الرشيدى:

- أما وبيدنا الآن أربعين ألف من المماليك المزدانين بانتصارهم. الأقوياء بأموال الفدية.. فأنه سيكون من الغفلة أن نسلمه- قوتنا- وننتظر بقلق ما سيفعله ضدنا.

وإقطاى لزم صمته الطويل، وإذا ما تحدث دفع بنتائج ما يجريه من حوار بداخل رأسه، قلب فيه

كثيرا. انه لايفكر مع من حوله بصوت مسموع كما يفعل "عز الدين أيبك" حتى يشرك من حوله فيما يفكر فيه. يظن الذين يستمعون لأيبك أنهم آباء لمعظم أفكاره واقتراحاته.

وبين كافة الأقتراحات والمداولات ومضت تفاصيل الخطة التى رست عليها سفن الأمراء الكبار، ومن يحيطون بهم. بدت شجر الدر مستسلمة لما يقترحة الأمراء الكبار. فى ذلك الإجتماع.

[ضرورة التخلص من تورنشاه قبل أن يتخلص هو منهم].

[يفطرون به قبل ان يتعشى بهم.]

" بدت اقتراحات عز الدين ايبك مقبولة. فور التخلص من تورنشاه يتم اختيار أمير صغير من البيت الأيوبى فيحكم الأمراء باسمه.. وبذلك يكسبون الدنيا، ولا يغضبون علماء الدين، وشرائعهم المشرعة إلى صدورهم كأسنة الرماح.

وكل ما كان يهم إقطاى هو انتزاع الموافقه من عز الدين ايبك بالتخلص من تورنشاه.. وذلك بدد الاضطرابات فى موافقات سنقر وبلبان.. وعندما نظروا إلى بيبرس ليدلى بدلوه..قال:

- نولى طفلا مقربا من الملك الصالح، ونستعد لهزيمة أعمامه واخوته بالشام ونستعيد أملاك مصر هناك..

لكن عز الدين أيبك عاد مرة أخرى يتساءل؛ حول موقف الشرع ومدى انقلاب الملوك والأمراء الأيوبيين عليهم بسبب مقتل الملك تورنشاه..قال:

- إلى أى مدى سيقف معنا مشايخ وعلماء الدين فـــى مصر؟

وخشى إقطاى أن تعود المنافشات من حيث بدأت فقال:

- أنها اسئلة معقوله، إذا ما تمكنا من الأمر فلن نخالف علماء المسلمين، نحن مجاهدون صدوا غزوا صليبيا. ياحضرات.. نحن الآن نقف فى ظل انتصارنا الحربى، والعالم الاسلامى يؤازرنا. ومعلوم أن أخـــوة الملـــك الصالح وأعمامه لم يساهموا فى هـــذه الحـــرب.. واذا انصرفت سحابة الانتصار التى تظللنا.. تبدل الموقـــف تماما. سيدفعوننا دفعا إلى القتال بعيدا "كقرانيص" حتـــى يفنوننا عن آخرنا" سكت برهة ثم قال بحزم:"

"اقتلوا الملك المعظم قبل أن يتعاظم شأنه."

• • •

شجر الدر التى كان لها خليل من الملك الصـــالح.. اضطربت. واسئلة كثيرة أثارها الأمراء.. فـــإن قتـــل المماليك للملوك شئ غير مسبوق. ارتفعت الأســـئلة التى تخوض فى مخاضة من الشكوك والرعب أمـــام المغامرة كحاجز.. سكنت خلفه المشاعر المتضاربـــة، لكنهم جميعا باتوا محبوسون فى ركن ضيق. لافكـــاك منه، إلا بالتخلص من "تورنشاه"..

سنقر تدخل أخيرا وتكلم؛ اقترح إغتيالـــه فـــى مقـــره بالقلعة.. أو وضع السم له فى الطعام.. لكن عز الدين ايبك استنكر ذلك، وبين أنه ولابد محاط بخدامه وحرسه ومحتميا من تلك الأفعال الخسيسة. ولمـــا ازداد توتـــر الأمراء- ومعهم شجر الدر- حائرين يتخبطـــون بيـــن

الموافقه الصريحة على قتل الملك المعظم تورنشــــاه.. والرفض غير الصريح الذى يقف عاجزا أمام توالـــى الأيام.

كل يــوم يمضـــى لـــن يكــون فـــى صـــالح امراءالمماليك.

عاد ورفع فارس الدين إقطاى يده، فتعلقت بــها ابصارهم، التفت إلى يمينه مع ميل إلى الخلف قليــلا، وانزل يده على كتف بيبرس ببطئ، حتـــى اســتقرت تماماً. ثم ربت على كتفه وقد تحولت الأبصـــار نحــو وجه "بيبرس" كان جامداً يغمض عينا نصف أغماضــة والعين الأخرى مفتوحة على واتساعها..

وقال إقطاى، وفى قوله شئ من التفاخر بتابعه:

- ما رأيك يا بطل معركة القصر..!

"أنها المرة الأولى التى يتفاخر فيـــها إقطـــاى ببطولته أمام الأمراء القدامى والجدد"..

تعلقت أبصار الأمراء بشفتى بيبرس.. لم يكــن يعنيه من كل ذلك إلا عينـــى "شــجر الـــدر".. وتلــك الرجوات التى تطل منها.. أنها تعلم بأن "إقطـــاى" قــد كلفه بالمهمة الثقيلة. ما تريده الآن أن تطمئـــن بأنــه فاعلها.. أن ترى طيفا لموافقة مسبقة يطوف بملامـــح وجهه، قال بيبرس:

- التخلص منه سيكون صعبا فى قصره بقلعة الجبـــل، وهو بين مماليكه وخدمه... وذلك، مهما خططنـــا لـــه سيستغرق وقتا طويلا.

امتلأ صدر اقطاى بالــــهواء.. فبــدأ أضخــم الموجودين فى ذلك الاجتماع.. وقال وهو يريح ظــهره على مقعده الوثير:

- بسيطة.. سنأتى به إلى هنا..

واندفع سنقر قائلا:

- حتى اذا ما جاء فــــى قوتــه.. يمكــن حصــارهم وهزيمتهم.

انتفض أيبك.. تحرك فى عصبية.. فأنتبه لــــه الجميع كما استدارت إليه شجر الدر.. تريد أن تتعـرف على رأيه النهائى.. قال:

- لا نريدها حربا بين مماليك الشام وممــاليك مصــر ونحن كما تعلمون قد خرجنا من معركـــة المنصــورة مثخنين بالجراح.. لاشك أن ما يأتى به الملك المعظــم من تصرفات مضادة لنا ولإتفاقنا معه.. يعطينا الحــق فى الدفاع عن أنفسنا.. لكن لابد وأن ابين لكم.. أنكــم اذا خالفتم المتبع فلن يكون لكم مكان فى العالم إلا هنــا فى مصر.. العالم كله سيكون فى ناحية. ونحن أمــراء المماليك وما معنا من مماليك.. سنكون فــــى الناحيــة المضادة..

تدخل إقطاى سريعا قبل أن يبــدد أيبــك ذلــك التقارب الذى أتمه.. حول هدف واحد محدد.. قال:

- يا أميرعز الدين.. نحن اذا تخلصنا من هذا الشـــاب الأرعن.. تحت ظلال انتصارنا علـــى الملــك لويــس وجيوشه، سنكون قد كتبنـــا صكوكــا بحريتنــا مــن العبودية..

أنه هدف يتضاءل أمامه كل خطر.. تأتينا فرصة الوصول إليه. وكل شئ بيدنا.. هنا.. الجيش والأسلحة وقصر السلطان.. وشجر الدر.. وقد كانت محل ثقة سيدنا.

وفى المقابل.. أخوة وأعمام مزقوا الشام فتمزقت قوتهم هناك، وكل ما استطاعوا إرساله مع الملك المعظم.. أقل من ثلاثة آلاف رجل.. معظمهم لم يمارس الحرب منذ مولده.. جاءوا للتركة والإرث.. جاءوا من أجل الغنائم التى غنمناها فى معركة المنصورة.. يا حضرات الأمراء.. كل شئ يهون أمام الموت.. لقد حكم علينا تورنشاه بالموت المؤجل.. فعلينا أن نحكم عليه بالموت المعجل.!



(١٠)
القطب فى مقابل القديس

حملة الملك لويس على دمياط.. وسقوط المدينة فى يده على أثر الاجتياح المفاجئ. وانسياح جيوش الحملة فى أرض الدلتا المصرية.. كان أشبة بجرح عميق أصاب جسم مصر.. فتداعت له كافة القوى.. بالسهر والحمى!

كما أن قرار الملك الصالح نجم الدين أيوب- وهو الشيخ العليل- بأن ينتقل بعرشه، وبكل ما يملك من مال وسلاح ومماليك إلى المعسكر الذى انشأه فى فراسكور على عجل.. كان يعنى أن يتبعه كافة المجاهدين من ملوك وأمراء المسلمين وهم يرونه يتصدى بنفسه- برغم مرضه وشيخوخته- لهذا الخطر الجسيم، الذى يدهم الأمة الاسلامية من باب مصر الشمالى.

واذا تقاعس الملوك، فان شعب مصر بجميع طوائفه بادر بالتطوع، أما بالرجال، أو المال، أو الجهد الجهيد.

الحرب تخللتها الحماسة الدينية من الطرفين وإن كان الملك لويس الذى رغب فى تثبيت لقب (القديس) قد أتى بعرشه الذهبى إلى دمياط مع خيرة فرسانه، وأمرائه وجنوده،ومن لف لفهم، فإن القوتين

كانتا من الضخامة والضجيج المحصور فى مساحة تقع بين دمياط وفارسكور، صارت ميدانا للقتال اليومى من كرّوفرّ.. وقد بدا الأمر فى شكل شد وجــذب، يحتــاج إلى النفس الطويل، والحنكة فى إدارة المعــارك، مــع شئ من الجرأة، والمغامرة، وشئ من الحرص وعــدم التهور!

وعلى عادة القادة من الســـلف، تقــدم الملــك الصالح مماليكه، فجاءت معه جماعات مـــن العامـــة، الحرفيين والتجار والشيوخ.. وعشرات الآلـــوف مـــن المجاهدين وشيوخهم. تطوعوا للمســاهمة فـــى هـــذه الحرب.. كسبا لثواب الجهاد فى سبيل الله والوطن.

والحرب طـــالت أيامـــها ولياليـــها.. وأخبـــار معاركها كانت تتناقل خـــلال المعســـكرين الكبـــيرين. وأحداثها تمتزج بالمزاج الشعبى الدينى، فإن كان الملك لويس هو [القديس] فإن الملك الصالح نجم الدين ايوب. هو [القطب].

وإذا كان بطل الفرنجة المغـــوار هـــو "الملـــك الصليبى رايدا فرانس"- الذى أعده الملك لويس ليحكـــم مصر، فإن الذى جندله وقتله بسيفه ورفع رأسه علـــى سن الحربة.. هو "الأمير بيبرس"..

" ومن هو الأمير بيبرس يا جماعة ؟! "

انه واحد من شجعان الأمير فـــارس الديـــن إقطـــاى.

والحديث عن معركة القصر فـــى فارســـكور. مافتأ يتفاقم، حتى أمكنه أن يغطى على أســـر الملـــك لويس نفسه.. والتحفظ عليـــه فـــى دار "ابـــن لقمـــان

بالمنصورة". الحديث عن شجاع من شجعان إقطاى، يدفع دائما بالأمير " فارس الدين إقطاى" إلى المقدمة، ويأتى بالأمراء القدامى من بعده. هؤلاء الذين ساهموا فى كسب معركة المنصورة، وانقذوا الأمة الاسلامية من حالة انهيار تام.. كان متوقعا.. ومخططا له..!

• • •

هل كان إقطاى يحلم بأن يكون سلطانا على مصر؟! أمام شرعية الحكم، وعدم اثارة أمراء وملوك الأسرة الأيوبية، وقد تركز ثقلهم فى الشام. كان تفكير إقطاى فى التسلطن على مصر. نوع من الجنون. فالمملوك لا ينسى أنه "عبد" من العبيد، وقع عليه إختيار سيده، بأن يجعل منه محاربا، يموت من أجله، مهمته أن يحفظ لسيده أمانه، ويسهر لحمايته، فكيف تسول له نفسه أن يفكر فى التسلطن؟

الباب مسدود بثوابت العصر!

ومن ذا الذى سيقبل ذلك من مملوك ويعترف به، بأن يتبوأ عرش دولة إسلامية؟ وللحاكم المسلم شروط..تكسبه المبايعة..لا تنطبق على المماليك الأرقاء..

والترك الذين خدموا فى الدولة العباسية لم يتجرأوا كعسكر لها، إلا أن يتقلدوا الوزارة والوكالة والنيابة.. وهم أحرار من جنس كانت له إنتصاراته فى العديد من الدول التى اسقطها واقامها المغول والتتر.

اقصى ما كان يحلم به أمراء المماليك عموما.. أن يخرجوا من الأزمة التى وضعهم فيها الملك المعظم

تورنشاه ابن الملك الصالح.. المتوفى.. خروجا سالما. أما تلك "المغامرة" أن يكتب لها النجاح.. ويمكن لهم إزاحة تورنشاه، وأن يتسلطن على مصر- طفل أيوبى- يكون أحدهم اتابكا له [وصيا]، ومن خلاله تمتد أيام الأمراء المماليك بعد وفاة سيدهم اثناء سير معارك المنصورة.. تلك الوفاة التى قد تفقدهم الكثير.تنقلهم من أمراء حاكمين.. إلى قرانيص محكومين. وهى فكرة ليست جديدة- بل أن لها أصل فى تاريخ الدولة الفاطمية.. وصلاح الدين الأيوبى- لم يصعد إلى الوزارة، إلا "كأتابك" لصبى من صبيان الدولة الفاطمية، أزاحة بعد حين، وأسس على انقاضها عرش الدولة الأيوبية.تلك كانت أقصى الأمانى. ومع ذلك لاح لإقطاى أن هناك من يستطيع أن يجمع فى يده أكثر من أمير قوى من أمراء المماليك المتنازعين. على أن يحتفظ كل أمير بخاصته وخصوصيته.. وما وصل إليه من مزايا. أنها السلطانة "شجر الدر"

وحمد الله أنها امرأة وليست رجلا..

ولعل إتفاق أمراء المماليك الصالحية على ترأسها لإجتماعاتهم، جاء عندما كانت أنفاس هينة تتلاحق فى صدر الملك الصالح.. أما والملك الصالح قد مات، فإن الإتفاق على أن تجالسهم أمرأة، وتترأس اجماعاتهم، جاء من أن "شجر الدر" صرحت بأن لديها معظم أسرار الملك الصالح. وعجلة الحرب كانت تدور بشدة لم تمهل الملك أن يدون وصيته أمام جماعة العلماء والشيوخ. إذ كان الملك الصالح يشحن كل قواه

أمواجهة كارثة الحملة التي دهمت بلاده، واحتلت جزءً عزيزاً منها، وكان يظن أن المرض قد يزول عنه ويستعيد عافيته..

• • •

منذ أن نقلت له شجر الدر بطولة بيبرس قائد مماليك القصر أثناء المعركة التي دارت حول القصر لاقتحامه.. اعتز الملك الصالح ببطولة بيبرس وتخيل لو أن فرسان الملك لويس فازوا في تلك المعركة واقتحموا عتباته، فإن وصولهم إلى قصره في فارسكور.. يعني أنهم عبروا على جثث أربعين ألف من مماليكه.. وشجر الدر تحاول أن تخفف عن نفس الملك.. وتبعد عنه شبح الهزيمة. سارع وأدلى لها بأخر أسراره.. منحها (الأمارات) والعلامات التي تستعيد بها الأموال من الأمناء.. كما أنه أوحى بأن لا ينتقل العرش الأيوبي في القلعة إلى أخوته بالشام. هؤلاء الذين خذلوه ولم يرسلوا بقواتهم لمعاونته متعالين بتجاورهم لجاحفل من المغول، وأنهم هناك، مهددون بأجتياح أراضيهم، ورأى برغم أنه كان لا يزال غاضبا على ولده تورنشاه•• سرعة إرسال من يستدعيه حتى يوصيه خيرا بزوجته الحبيبة "شجر الدر" وبأمراء مماليكه الذين يجاهدون في سبيل الله، ورفعة شأن الإسلام، وحمايته من سلطة المستبدين الذين لايتفهمون جوهره .

• • •

كان كل ما يهم شجر الدر.. التى بادرت وأرسلت بالرسل الفصحاء من العلماء إلى تورنشاه، لكى يزيلوا من نفسه الغضب، ويصلوا معه إلى تعهدات قبل أن يأتى ويسمع من والده "كيف يعامل شجر الدر كملكة تستحق كل تقدير".

وقد قامت شجر الدر بعد إرسال الرسل إلى قلعة كيفا بديار بكر بتجهيز الشهود من أرباب السجاجيد، والعلماء، ليشهدوا لقاء تورنشاه كأمير بالملك والده.. قبل أن يصعد الأمير إلى عرش مصر. ويتحول الى ملك. ليعمل بمقتضى الوصية.

لكن الملك الصالح مات، واضطرت شجر الدر بأن تكشف الأمر لأمراء المماليك الكبار، ويوافق الجميع على إخفاء هذا الأمر الجلل الذى يفت فى عضد المماليك المحاربة. ويثير فى نفوسهم كثيرا من الأطماع.. بل قد يبدل كثيرا من النفوس فتنقلب الأوضاع فى الميدان رأسا على عقب.

• • •

فى ذلك الوقت عمل إقطاى مع شجر الدر على اصدار قرار سلطانى- والأختام بيدها- لصالح بيبرس لترقيته إلى أمير ركن، وهما يعلمان صعوبة تقلده لمزايا هذه الترقية بالفعل.

"هل كانا يعدانه للمهمة الصعبة؟!

يلوحون له بمزاياه كأمير ركن مقابل تلك المهمة الثقيلة.. أن يضع خطة لتخليصهم من تورنشاه الذى بات يترصد الجميع؟!

بيبرس منذ صباه كان يحلم بمعركة يخرج منها منتصرا فيكافأ بالإمارة والأقطاعية. ودون كل الأمراء القدامى والجدد، دفعت الاقدار إليه بالملك الصليبى "رايدا فرانس" ليصل إلى عتبات القصر السلطانى ويتحداه.. وجد نفسه مضطرا فى خضم هذه المعركة بأن يلقى بنفسه "يا قاتل يا مقتول". فاذا بالحظ يواتيه ويخرج من الخطر الذى دهمه.. "هو القاتل".

والرواة صنعوا من معركة القصر الجانبية.. حواديتا وحكايات، يروونها ويضيفون عليها كثيرا من رموز واساطير المزاج الشعبى.. يحلو لبعضهم أن يلقيها تشخيصا وتجسيما مع اضفاء التفاصيل المثيرة، فتمتلئ لياليهم بالإثارة. وهم يشاهدون بيبرس يجندل امراء وملوك الحملة الصليبية فيضاعفون أحزان الملك لويس حتى يفقد عقله ويقع أسيرا.. إذ أنه يهيم فى البرارى، فيقبضون عليه ويحتجزونه فى دار ابن لقمان. فمن يعتدى على دار الاسلام لابد وأنه مجنون أو فى الطريق إلى الجنون!

والناس فى تلك الفترة الذى يتعرضون فيها للاخطار الخارجية يسعون إلى تضخيم البطولة. والفنان الشعبى يجسم بيبرس فى دور الفارس الذى يواجه الشر ممثلا فى الملك "رايدا الصليبى" ولابد وأن الفارس المسلم يتخلق بكل الحسنات والمكرمات، والشرير فى المقابل، يتمسك بكل السيئات والسفالات، فى تحديد قاطع مبالغ فيه!

[ولما استدار الملك الصليبى ليهرب من سيف بيبرس، لحق به واعترضه، حاول أن يفلت من المواجهة لكن بيبرس كان يصيح "الله اكبر" فإذا بالرعب يشل قدرات الصليبيون فتتجمد خيولهم فى أماكنها.. والهلع يغزو قلب الملك رايدا فيسقط السيف من يده "الله اكبر" هذه الصيحة التى شتتت جحافل الغزاه الصليبيين- ياجماعة- وجعلتهم يلوذون بالفرار. ومن لحق به "بيبرس" كان يجندله ويسقطه من فوق حصانه ليداس تحت الاقدام]

والناس تصرخ فى انفعال: الله اكبر.. الله اكبر يا بيبرس- ويرفع الرواة من حرارة الرواية- ويظهرون كيف أن الشرق الآمن المسالم إذا ما أثير بالظلم.. انتفض كمارد عملاق، وكيف أن الغرب الشرير.. يزعج الآمنين فى ديارهم.. ويأتى بالطامعين فى ركابه..

[لذا كان بيبرس يحارب فى قوة عنتره العبسى، ويفكر فى براعة ابن العاص، ويلقى بالمحكمة وكأنه عمر بن الخطاب].

[فلما انهزم الملك الصليبى ياخلق ياهووه، ونزل سيف بيبرس البتار على ذراعه.. قطعه ومزق زرده هنا جحظت عينا الملك الصليبى هلعا. وعيونه الزرق كانت تتوسل "ارحمنى ايها الأمير المسلم الشجاع" ورفع فى وجه بيبرس بكف ذراعه الأخرى ليشاهد فى أصبعه [خاتم الملك] وبأنه يستطيع أن يفتدى نفسه بالمال الكثير والذهب الوفير...

لكن البطل بيبرس كان قد جعل باب القصر السلطانى فى ظهره.. وصاح صيحته التى تزلزل كيانهم "الله اكبر، وشهد بأن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله" ونزل بسيفه الحق على رقبة الباطل فاطاح بها.. وجاء من رفع رأس الملك الصليبى على سن الرمح ليشاهد رأسه الطغاه..، ومن بقى من فرسانهم.. كيف ينهزم الباطل أمام الحق. وكيف يكون مصير المعتدين على ديار الاسلام التى يحميها الله سبحانه وتعالى.].

والجمهور الذى يستمع يتمايل نشوه واستحسانا. والرواة جعلوا من فرسان الملك رايدا فرانس مئات الألوف، بينما جعلوا من القوات التى تتصدى لهم فى معركة القصر تتناقص إلى قلة قليلة شجاعة، حتى تتجسم البطولة تحديدا فى البطل المغوار "الأمير بيبرس" وحده.!

•••

ولعل الأمراء القدامى إذا ما استمعوا إلى ما يرويه الرواة حول البطولة التى يستأثر بها بيبرس فى معركة القصر، أيقنوا بأن أتباع الأمير القوى "فارس الدين إقطاى" من جمهور الأهالى هم الذين يضفون كثيرا من الأخيلة على الرواية كما يضفى عليهم إقطاى حمايته.. جاءوا ليثبتوا له بأن تأثيرهم على العامة من نفس تأثيره على أمراء المماليك. وقد دأبوا وهم يرفعون من قدر "قائد مماليكه بيبرس" أن يتوقف الراوى- فيهدأ الجميع- ويبدأ فى تأكيد أن المغوار بيبرس ما هو إلا

أمير من أمراء "فارس الدين إقطاى".. فاذا كان الأمير هكذا شجاعا، فما حال أمير الأمراء يا أخوان؟

فينظر الجميع إلى فارس الدين إقطاى.. بكثير من الإجلال والإحترام..

محفوف ذلك الإحترام بشئ من الرهبة والخوف الذى يتسلل حثيثا إلى النفوس،وهم يرون ذلك الأمير القوى الغامض.. قابضا على مصائرهم وأرواحهم.



(١١)
الشمس والقمر

الأحداث الكبرى تطـــوى صفحـــات، وتـــأتى بصفحات جديدة.. فى الملمات تكون الأجـــواء مهيئـــة لولادة أبطال جدد على الساحة، فإذا كان "فارس الديـــن إقطاى" وهو أقوى أمراء الملك الصالح من الممــــاليك قد سمح بأن يعلو صيت الأمير بيبرس بطـــل معركـــة القصر الجانبية على صيته- وثمة بطولات عديدة فـــى معركة المنصورة التى أوقفت الملـــك لويـــس بقواتـــه الضخمة فى دمياط، ثم بدأت فى حصـــاره، والقضـــاء عليه- فهناك أمراء كبار فى حجم فارس الدين إقطـــاى من أمثال عز الدين أيبك وسيف الدين سنقر الرومى، وشمس الدين بلبان الرشيدى.. لعل ذلك حدث بتخطيـط ذكى، ليكون "إقطاى" فى مكان كالشمس، وبيبرس فـــى مكان كالقمر.. لا يشع بيبرس بالضياء إلا لأنه إنعكاسا لأشعة شمس "فارس الدين إقطاى"..

• • •

ولما كان لكل أمير ركن مـــن كبـــار أمـــراء المماليك حزبه عند "العامة" يضفون عليـــه حمايتـــهم، ويستمدون منه صيتهم وقوتهم- أمام السلطان- فـــإن التوصية بأن يتحدث العامة عن أهمية "معركة القصـــر" التى أحدثت التحولات الخطيرة.. مما أدى إلى هزيمـــة

الصليبيين وتسليمهم ورحيلهم.. وكأن النصر منذ البداية إلى النهاية، كان من صنع الفريق الذى يترأسه إقطاى.. فى وقت كان يعلم فيه، كبار أمراء المماليك على الأقل، بوفاة الملك الصالح اثناء سير العمليات الحربية.

مما جعل الأمير عز الدين أيبك يرى، خطورة ذلك على مركزه كأمير منافس لفارس الدين إقطاى، فأوعز لشيوخه ومن يدورون فى فلكه من "الأهالى" إلى الإشادة بجسارة قائد مماليكه "قطز". وكيف أنه كان يفتح الثغرات،ويقوم بالمهام الصعبة،وينهش فى قوات العدو.. فى جرأة الأبطال الصناديد.

لكن أنعكاس صورة الأمير عز الدين أيبك كأمير يحفظ كثيرا من الأحاديث النبوية، ويميل إلى التشبه بالمتصوفة، ويحاول أن يستشهد فى أحاديثه بأبيات من الشعر العربى.. جعل المماليك الذين تقولبوا فى قالب المحارب الذى ليس له قلب. يرونه كأزهرى متفقه، وصاحب حديث. وأمثاله يميلون إلى السلم، ويترددون كثيرا فى اتخاذ القرارات العاجلة بجرأة المغامر.

الأمر الذى انعكس على مماليكه وعلى قطز بالذات، الذى تمادى فى الخيال فتصور نفسه من أبناء "الدولة الخوارزمية" المنهارة أمام هجمات التتار.. حاول أن يبدو فى مسلكه المعتاد بعيدا عن ميادين القتال كمثال لاستاذه عز الدين أيبك. هادئ الطباع، يأخذ الأمور بالتعقل والبحث ويدير الصراع بعد

تفكير.. تلك المسائل لا يؤدي ترويجها في وقت الحروب إلى تحقيق "دعاية وصيت" لحزب عز الدين أيبك. وقد تأتي تلك الخصال بعكس ما يبغى. بل أن التركيز عليها. يرفع من قدر "الأمير فارس الدين إقطاى".. وقائد مماليكه "بيبرس" وكلاهما.. يتعاملا مع أعداء الإسلام بالشدة والحسم، بل بالضراوة الواجبة في الجهاد..

لذلك كان لإقطاى وبيبرس شهرتهما في حواديت الناس، وروايات الرواة أثناء إحتدام المعارك في المنصورة.

أما إذا استتبت الأوضاع بالصلح، وتوقفت الصدامات بين المتحاربين، وشرع الصليبيون طبقا لإتفاقيات التسليم في مغادرة أرض المحروسة، فإن دور "عز الدين أيبك.." العاقل الرزين، وقائد مماليكه قطز.. الأمير الحصيف الذى ألقت به المقادير ليكون مملوكا.. يبدأ في الانتشار، وينشط أيبك بين العامة في أن يتناولها بالميزان الحساس الذى يزن بالعقل والمنطق خلفيات الأحداث، فيكون لكل مقام مقال، ويعلو صيت عز الدين أيبك على صيت إقطاى.

* * *

..المماليك في قلاعهم وابراجهم خلال أوقات السلم الطويلة.. يتدربون على القتال بدون استخدام الأسلحة الحقيقية.. يستعيضون عن الأسلحة بالنبابيت، وقد لا تنتظم التدريبات.. والقتال بين الزملاء يشوبه "التمثيل والتشخيص" والإتفاق على من يكون الغالب

والمغلوب فى كل جولة.. وإذا ما ابتعدت الأجسام عن الإصابات الحقيقية التى يعتريها الألم.. والدماء الحقيقية التى تنبثق حارة ومتخثرة.. قد تستعيد تلك الأبدان طبيعتها المسالمة التى خلقت عليها.. والشجاعة الخارقة التى تتبدى فى الحروب التى تجئ مفاجئة.. قد تخون البعض ويحل محلها الجبن.. وقد تتفجر عند بعض من كان ينظر اليهم على أنهم مسالمون طيبون بطولات خارقه لم تكن متوقعة.

والأمر يصير مرتهنا بأمر خاص يكمن فى طبيعة الذى يواجه الحدث الأكبر، ومدى رباطة جأشه، عندما يكون الموت هو المعادل لاستخدام العقل، والركون إلى الطبيعة الإنسانية المسالمة.. يفرض على الشخص خياران لا ثالث لهما،أن يكون "قاتلا أو مقتولا"..

• • •

بيبرس وهو يواجه الموت فى معركة القصر لم يشاهده موتا يريحه.. بل شاهد موتا مكللا بالعار، وسقوط للملك وحريمه وأمواله واسلحته فى يد الصليبيين.. ومع الخوف الشديد- لعل هذا الخوف كان أحد أسلحته- قام بتطبيق نفس الخطة. أضرب القلب ليتداعى باقى الجسم، وقد فعلها وهو مرعوب.. ولما أسقط الملك الصليبيى رايدا فرانس عن فرسه، ووضع على عنقه سيفه. رآه يظهر له خاتم الملك على اساس أن رأسه يساوى كومة من الذهب. وأسره يخفف ضغطا.. ويحقق نصرا.. لكن بيبرس كان يرى أن قوات الملك رايدا التى إخترقت الحصار، وقطعت تلك

المسافة الطويلة بين دمياط وفارسكور دون مقاومـــة.. تمثل خطرا قائما.. على قواته قليلة العدد، وأنه لابـــد وأن يوقع الرعب في قلوبهم. كعادة المغول يجعلـــون من أعدائهم دروعا ومن رؤوسهم اكواما ليصيبوا أبنـاء جلدتهم بالهلع.

قام بيبرس بدافع ذلك الخوف.. بذبـــح الملـــك الصليبي. فاذا به في لحظة ينتقل من حال المدافع إلـــى المهاجم، ومن حال الإحساس بالهزيمـــة، إلـــى حـــال النصر والبطولة.. لا يكاد يصدق أنه ينجـــو برأســـه. ويتحول إلى "الفارس المغوار" الذى أنقذ "القلـــب" مـــن طعنة محققة.. يستحق من أجلها أن يرفع إلى مصـــاف الأمراء الكبار.. بقرار سلطاني.. فتح شهيته، ورفـــع من آماله، وجعله يحلق في أجواء الإمـــارة والنفـــوذ.. لكن الموت الذى رفعه بقتل الملك الصليبي. هو نفســـه الموت، الذى أخذ الملك الصالح.. فلم يتحقق لـــه مـــن آمال داعبته شيئا.. إلا أنهم يساومونه الآن.. لقتل الملك المعظم تورنشاه.. وهو يكاد يرى مصيره "يقتل الملـــك المعظم سليل البيت الأيوبي المجاهد.. فيقتلونه.." وربما قام بقتله الأمراء المماليك الكبار.. ليكون قدوة لـــهم.. وعلى جثمانه يعبرون أزمتهم..!

• • •

الخيط الرفيع بين التوفيق وعدم التوفيق خـــلال أحداث كبرى لا عقل لها.. يكون محفوفا بكثـــير مـــن "الحظ" وبيبرس الذى ارتفع صيته خلال أيام معركـــة المنصورة. كان يتقبل التهاني، وفي نفس الوقت كـــان

بداخل بذته العسكرية، يرتعد.. أما وقد حطت الحـــرب أوزارها.. فقد وقع عليه الإختيار.. بأن تستمر حربـــه قائمة، حتى يتم اختفاء الملك المعظـــم تورنشـــاه عـــن مسرح الأحداث.. لعل بيبرس هو الأمير الوحيد الـــذى استخدم سيفه الخاص فى القتل والذبح.. والدماء التـــى انبثقت اقترنت بنظرات الـــهلع والصرخـــات.. ومـــن قطعت رأسه.. كان يُتحرك أمامه جسما بـــدون رأس.. ومن طعنه فى قلبه كان يتهاوى ليسجد علـــى الأرض وكانه يصلى صلاة الوداع على طريقـــة مـــن جـــاء ليقهرهم.. والدماء التى غطت سيف بيبرس وملابسه.. آلمته.. فلم يعد يدرى، أهى دماء اصابة لحقت بـــه؟. أم هى دماء من جندلهم؟. وفى تلك الحالة تجتاح المقـــاتل مشاعر مؤلمه، تأتى على توازناته، تفسد ضماماتـــه.. فيكثر من الطعام والشراب، ويكثر من لقـــاء الجســـم بالجسم.. يحاول أن يستعيد أيامه التى ولت. فلا تأتيـــه الإ أيام مشحونه بالقلق والتوتر.وقد يتخيـــل أحداثـــا لا يستطيع أن يتنبأ بنهايتها.. فى تلـــك الحالـــة.. يحـــدث التدشين للنوايا الحسنة..والركون إلـــى الدعـــة..فـــأن بيبرس الذى كان قبيل معركة القصر.. ليس هو الـــذى يأتى بعد معركة القصر!

• • •

أما وقد وصل إلى مصاف الأبطال، فـــهو قـــد يبتعد مسافة ليتأمل هذا البطل.. الذى يتناولـــه الـــرواة بالحكايات.. يجعلوا من معركته اليائسة بداية النهايـــة لهزيمة كبرى لحقت بجحافل الملك لويـــس التـــى تـــم

تعبئتها بالكراهية للمسلمين.. لقد صوروا لهم المسلمون على أنهم الذئاب الغبراء والثعالب الماكرة.. وأن قتلهم وسحقهم يكون تقربا لسماء المسيح الإله..

ولا أحد يدرى بأن بيبرس قد خرج من بذته العسكرية وتركها لشخص أخر يحلو لحزب إقطاى الأهلى أن يتصورونه ويتخلقونه.. وأن بيبرس الذى ابتعد ليتأمل ما يجرى، صار أميل إلى الأمير عز الدين أيبك.. بل صار يتقرب إلى "قطز".. يرفعه إلى درجة عالية فى نفسه.. يتمنى أن يكون فى وداعته، يتمنى أن يكون مكانه، هادىء النفس مثله.

•••

الأمير سنقر الرومى.. والأمير بلبان الرشيدى كلاهما أمراء كبار.. دأبا بأن يأتيا بقادة مماليكهما، أسوة بما يفعله عز الدين أيبك- وفارس الدين إقطاى- إلى الاجتماعات الكبرى وقد لجأ الأمير سنقر والأمير بلبان إلى الإشادة بما جاء به "بيبرس" فى مغالاة مقصود منها إثارة "فارس الدين إقطاى" وهما يدركان أن ردة الفعل الغاضبة من إقطاى ستأتى سريعة.. فى تنحية بيبرس عن مجلس الكبار، أو الزج به فى كمين ليرتاح منه ويريحهما.. كلما تعمد سنقر الرومى وبلبان الرشيدى الإشادة ببيبرس. سارع بيبرس وقلل من شأن ما أتاه فى معركة القصر. وأضاف بأن "لولا النجدة التى أرسلها لى الأمير إقطاى.. ما حققت شيئا ذوبال.." حتى لا يثير حفيظة أميره الكتوم!

لكن بيبرس كلما هون من دوره.. تمادى الأمراء فى تجسيم هذا الدور والأرتفاع به.. عندها، يكاد يشاهد الدخان يخرج من أنف وفم إقطاى..
الدماء تتجمع حمراء فى عينيه الملونة وعصبيته تزداد وهو يداعب لحيته الحمراء، يضغط على مقبض سيفه.. هنا يشعر بيبرس بدنو النهاية التى لابد وأنها ستأتى من حيث لا يحتسب.

واحساس بأن معركة المنصورة حطت أوزارها فوق كاهله، تغور فى نفس بيبرس.. يتضاعف بأن عليه أن يخلصهم من الملك المعظم تورنشاه.. ثم يلتفتون نحوه ويشيرون

"ها هو قاتل الملوك.. إقتلوه.."

ذلك المشهد بات يراه فى صحوه ومنامه. "لماذا لا يفعل عكس ما يبغيه هؤلاء الأمراء الذين لن يفسحوا له مكانا بينهم بسهولة.. يذهب إلى الملك المعظم، ويفضح عنده مؤامراتهم ضده. ويرسم له خطة التنكيل بهم.. ويطلب منه أن يتحصن بقلعته فى القاهرة.. ويحصل عليهم فرادى..

واذا ما قضى عليهم، لن يكون إلاه بجانبه.. كبيرا لأمراء سلطنته.. ووارثا لوظائفهم وإقطاعياتهم.. فهو مع الملك المعظم سيكون مع الشرعية، خادما أمينا لآل أيوب، ولهم نفوذهم الكبير من مصر إلى الشام ولهم تاريخهم الموقر عند العامة والخاصة؟!!

(١٢)
الوسائل والغايات

□ "**الوسائل** تبرر الغايات" فى مؤامرة المماليك الصالحية ضد وارثهم.

فقد دبجت الرسائل باستدعاء الملك المعظم تورنشاه وأرسلتها "شجر الدر" مع رسول من كتابها، وجعلت من جملة المرافقين، ثلاثة من كبار العلماء، حتى يعملوا لإقناع الملك الشاب بأن "يتفضل" ويسارع ويأتى إلى قصر السلطان فى فارسكور.. ليتثنى له حضور آخر المفاوضات مع الملك "لويس الاسير" بشأن التسليم والفدية، ورحيل حملته عن دمياط.. ثم يؤكدوا عليه..

"ولتتسلم يدك الكريمة "الفدية" التى سيفتدى بها الملك لويس نفسه.. "

وأوصت "شجر الدر" الرسل،بأن يحاط "الملك" بما فعلته، وبما قام به أمراء المماليك الصالحية من إنجازات أدت لتحقيق النصر المؤزر فى معركة المنصورة. وأنهم جميعا فى انتظار قدومه الميمون ليتسلم "مفاتيح خزائن" والده، وجملة القرارات المبصومة بخاتمه، بضرورة صرف مكافأة لأمراء المماليك الذين أبلوا بلاءا حسنا خلال أحداث الغزو الصليبى.. فكتب الله للمسلمين النصر..!

كان على الرسل أن يحثوا الملك الشاب على عدم الابطاء فى "القاهرة" وضرورة حضوره إلى (أرض الحرب) التى لها الأولوية على (أرض السلم) حتى يكون له النصيب فى الجهاد الأعظم الذى كان لوالده الملك الصالح "المجاهد الكبير" الذى يتشبه بالمجاهد الاكبر جده "صلاح الدين".

كما سيعمل الرسل على إظهار أعمال أمراء المماليك وطاعتهم له، ويوصون بأن فى إمكانه وحالة جيوشه المنتصرة، عالية، أن يقودهم ويمد نفوذه كخليفة لملك منتصر مات فى ميدان القتال وهو يجاهد الفرنجة- أن يمد نفوذه على دمشق وحلب- والجميع يصبحون قوة يفكر اعداؤها عشرات المرات قبل أن يتجرأوا ويتصادموا معها..

•••

كان الأمير تورنشاه "شبه منفى" فى حصن كيفا بديار بكر- على الحدود الشامية الشرقية- لجفوة بينه وبين والده، وخلافات تفاقمت اذا ما رفع والده من شأن إحدى جوارية الكرديات، وتزوج منها لتصير بجانبه فى موقع الصدارة من حريمه. وملازمة له فى حياته، وهو الشيخ الذى وهن. وبات تورنشاه يخشى أن تأتيه "شجر الدر" بالولد الذى يتم اختياره خليفة للملك على عرش مصر.. وهو ما اعتادت أن تقوم به الجوارى فى الدولة الفاطمية، حتى ضعف شأنها وزالت على يد جده الأكبر صلاح الدين. وجاء لها خليل لكنه مات

والملك الصالح كان يرى فى تصرفات ابنه شيئا من التهور، وكثيرا من نزق الشباب المدلل، وأن ابنه أعطى اذنه لأعمامه فى الشام يحرضونه عليه حتى يزيحه عن العرش.

اراد الملك الصالح- الذى اعتمد على مماليكه- كأمراء، وفرق، تدافع عن عرشه ومصالحه. أن تؤدب قلعة كيفا البعيدة ذلك الولد المدلل، وتجعله صالحا لحكم مصر من بعده..

• • •

تورنشاه عندما تم استدعاؤه من قلعة كيفا ذهب إليه الرسل يحثونه على سرعة الذهاب الى المنصورة طبقا لإتفاق أن تظل "شجر الدر" متمتعة بمركزها كسلطانة، وأرملة والده المتوفى، والأمراء القدامى يقر لهم بما بين أياديهم من مقرارت ومزايا.. بحكم أنهم جاهدوا وانتصروا على حملة الفرنجه الغازية، وعليه أن ينفذ القرارات المبصومة بخاتم الملك الراحل..

• • •

لكن الملك الشاب، خالف الشروط وانعطف على أعمامه فزودوه بجملة من المماليك فى حدود الثلاثة ألاف.. ونصحه أمراءه بأن يتوجه إلى قلعة الجبل بالقاهرة، ويعلن نفسه ملكا.. ثم يستدعى أمراء مماليك والده ليحاسبهم على الأموال التى بين أيديهم والفديات التى حصلوا عليها من الصليبيين.. وتلك

الاتفاقيات المتساهلة التى أضرت بالبلاد.. وكان على المماليك عدم ابرام أى شئ إلا بعد حضوره..

• • •

أما وقد حضر تورنشاه إلى قصره بقلعة الجبل في رهط من شيوخ الشام، بينهم الشعراء والمداحين والمستشارين.. ومنهم من كلف من قبل أعمامه بالالتحاق بحاشيه الملك الشاب- كعيون عليه- يعملون على استمرار إستمالته إليهم.

• • •

فقد صوروا له بأن أمراء مماليك والده، ما هم إلا عبيد- ورثهم- فلا يحق لهم طبقا للقانون المتعارف عليه إلا أن يتحولوا إلى "مماليك قرانيص" ليس لهم مشورة فى دولته.. وأنه يجب أن يعاقبهم على الجرائم" التى ارتكبوها فى حقه؛ إذ كيف سولت لهم نفوسهم بأن يمارسوا "الحكم" واصدار القرارات السلطانية اثناء معركة المنصورة. والملك الصالح توفاه الله.. متعللين بالمعارك مع الفرنجة- هذه واحدة- أما الجريمة الأعظم هو إرغام الملك الصالح- وهو شيخ مريض لين العريكة- بأن ينقل عرشه بما يحتويه من مال واسلحة وعتاد الى ساحة المعركة.. تسقط مدينة دمياط فينشأ قبالتها مدينة أخرى* فى قلبها المعسكر الأيوبى بفارسكور.. يضم القصر السلطانى** وما فى ذلك من خطر جسيم على عرش الأيوبيين الذى كان لابد وأن يبتعد كثيرا عن ميدان المعركة. فاذا هجم الملك لويس حتى على القاهرة.. يمكنه أن يفر إلى

الشام لتستمر المعركة، طالما كان العرش الأيوبى فـى مامن.. أما أن يتقدم العرش بداخل القصر إلى ميـدان المواجهة، فإن ذلك لابد وقـد حـدث مـن "الجارية التركية" وزملائها من المماليك الكبار..

• • •

والملك المعظم تورنشاه لا يزال شـابا يعطـى أذنه لمن يوسعون الشقة بينه وبين مماليك والده.. الذى وقع عليهم عبء الحرب والجـهاد فـى المنصـورة ودمياط.. حتى كتب لهم الله النصـر.. ووقـع ملـك الفرنجة "لويس القديس أسيرا".. وهـذه كرامـة مـن كرامات الملك الصالح "القطب" الذى ظهرت بركاتـه.. حتى وهو ميت!

• • •

وفيما يبدو كانت دكة الحكم واسعة على مقعـدة الملك الشاب الذى لا يسـتقر علـى حـال.. الذيـن يحيطون به ركبوا رأسه وتسلموا أذنه يملأونه بـاللغو والأسئلة الملغزة، يصورون له بأن ما يحدث من أمراء المماليك الصالحية مـا هـو إلا نـوع مـن الدعايـة والمبالغة.. فهم فى حربهم ضد الصليبيين صنعوا مـن "الحبة قبة" مهونين مما حدث فى المنصورة من معارك على أساس أن هذا ليس بأعظم أحداث التاريخ، ويجب أن لا يعلو شئ على ما قام به جده المجـاهد الأكـبر الذى تغلب على عدد من ملوك أوربا. جاءوا متحـالفين وبصحبتهم جيوشهم الجرارة، بينما الملك لويس جـاء وحده!

وأى ملك هذا الذى يقع فـــى الأســر.. إلا أن يكون ملك يحارب بشرزمة من المتعصبين.وقالوا:

"لقد تمادى أمراء الممـــاليك ومعـــهم الجاريـــة "شجر الدر" وتجاوزوا الحدود.. إذ يقرون برحيل الملك لويس بمهماته الحربية التى تملأ دمياط، وهذا كله كـان لابد وأن يصير غنيمة للمسلمين..و..

"ووقع الشقاق بين الملك الشاب.. وأمراء والـده من كبار المماليك، وهو منذ البداية كان يرى فى "شجر الدر".. شيطانة استغلت جمالها لتفوز بقلب والده الشيخ وتطرده منه!!

• • •

والناس أمسوا فى بلبلـــة، ومجـــالس العامــة صارت تخوض فيما هو شرعى، وفيمــــا هـــو غــير شرعى..، يناقشون ما هو متوارث وما هـــو محــدث، بسبب ظروف الحرب.. وذلك النصـــر الــذى يرتــب حقوقا جديدة لأمراء المماليك.. وأثير موضوع الفديـــة لأطلاق سراح ملك اجنبى. هذه الفدية الكبيرة تعنـى أن الأمراء المماليك تواطأوا مع ملك الصليبيـــن ليعــود الى بلاده مع سفنه وما تبقى من عساكره. وقد صحـب توابيت بها جثث قتلاه من النبلاء.. وهو الملك الصليبى الذى دنس البلاد، كان يجب إزالته هو وجيوشـــه مــن الوجود، وسفنه وعتاده غنيمه للسلطان.. وبات النــاس يتناقلون- أحاديث مدسوسة- بأن الأمـــراء الممـــاليك حصلوا على أموال الملك الصالح الـــذى ســلم ذقنـــه

لزوجته الجميلة الشابة، فاستحوزت على أختامه، واستصدرت القرارت السلطانية بأسمه..

• • •

لقد تم الخلط بين ما هو حقيقى وما هو مزيف ولم يكن أمام الملك الشاب تورنشاه.. وهو منذ البداية أخذ موقف المعارض الذى يميل إلى التهوين من انتصار المماليك فى معركة المنصورة إلا أن يتهمهم بالعمل فى كل الأحوال- لصالح أنفسهم- والمستشارون المرافقون له يحضونه على سرعة عزل هؤلاء الأمراء القدامى.. وأن يبدأ عهده ملكا مستقلا من كل شئ يتعلق بقرارات والده الشيخ الذى لم يكن فى كامل طاقته، وبالتالى فى أنه لم يكن "يعقل" أوضاع كثيرة من حوله. حتى جعل "عبيده أمراء" واصحاب نفوذ واقطاعيات وصاروا الأن هم المجاهدون فى سبيل الله. أن كل هذا يقوى من مركزهم، فلا يأخذك بهم شفقة، ولا تنس أنهم جزء من تركة..

فماذا انت فاعل يامولاى الملك المعظم بمن جعلوا القرى والنجوع والبوادى مع المدن القريبة والبعيدة تحكى وتتحاكى بانتصارهم المزعوم؟!

• • •

تمسك الملك المعظم تورنشاه بأن يأتى إليه أمراء مماليك والده- وهم جزء من تركته- للامتثال أمامه فى قصره بالقلعة.. فأرسل إليهم الرسل.. لكن الرسل كانوا يعودون محملين بفروض الطاعة والولاء والاعتذارات بأن ترك ميدان الحرب.. وقد تجمد كل

شئ حتى يحضر مولانا الملك المعظم.. قد يقلب انتصار الملك الصالح الراحل إلى هزيمة، وسفن الأعداء تملأ الميناء، وقد تأتى إليها سفن أخرى محملة بالمدد والجيوش.. وعليهم اليقظة وعدم ترك الميدان وعلى الملك المعظم أن يبادر ويأتى إلى "قصره" فى فارسكور، "وقد أجلنا اطلاق سراح الملك لويس إلا فى حضورك يامولانا" ونحن مماليكك وليس لنا أن نبت فى شئ إلا اذا أمرتنا.. ولعلنا أول من ناشدك سرعة الحضور، عندما اختار الله "سيدنا" إلى جواره.

• • •

لقد انعقد أمراء المماليك الصالحية فى اجتماع دائم. يتبادلون المشورة، ويتمسكون جميعا بالعمل كفريق.

قال إقطاى:

- الوقت هو عدونا الأول،وفى كل يوم يمر نهبط درجة، والملك المعظم يرتفع درجة، فنحن لن نستطيع أن نبقى على أطراف الدلتا طويلا عقب رحيل قوات الملك لويس.. وعودة أجناد الحلقة إلى ديوانهم بالقاهرة، وهم معظم أجنادنا.. اذا عادوا لا نستطيع تحريكهم، كما اننا لن نستطيع صرف رواتبهم بانتظام.

ويقول أيبك:

- ضرورة طرق الحديد وهو ساخن. اذا تمسك تورنشاه بالقلعة. قد نضطر إلى الذهاب إليه طائعين!!

وعندما أدلى الأمراء بدلوهم بين متردد وثائر.. من يتسم بالجرأة ومن يخشى العاقبة.. جاء الدور على

بيبرس ليتكلم. كان قد أدار الحـــوار بداخلـه سـاخنا واقتطف ما توصل اليه على طريقة إقطاى.. قال:
- لن ننتظر حتى يعود أجناد الحلقة.. فيضربنا بـــهم. أرى أن يذهب الوشاة إلى الملك المعظم يبلغونه بـــأن أمراء الصالحية منقسمون بين مؤيـد لأن يـأتوا إلـى قصره بالقلعة كما يريد- وهؤلاء على رأسهم عز الدين أيبك- وفارس الدين إقطاى وشـجر الـدر. وهنـاك أميرين لا يوافقان ويطلبان حضوره إلـى فارسـكور، ليقود بنفسه الحرب، ويضع فى أخرها نقطه الختـام.. أنهما الأميران الأضعف. وكما ترون كـلا الفريقيـن معه، وذلك سيبعث فى قلبه الطمأنينة بأن أقوى الأمراء معه.. ولعل ذلك يجعله يتخلص من آراء مستشـاريه الذين ينصحونه بأن يبقى بالقاهرة** ويرسل من يقـوم مقامه بتصفية آثار الحملة على دمياط.. وعلى "الوشاة" أن ينصحونه بأن يخادع الأمراء حتى يمسـك بأعنـة الموقف ثم يفعل ما يراه صائبا".

•••

ووجد اقتراح بيبرس موافقة. وتم تكليف الرسل الذين سيلعبون دورا مزدوجا فى اقناع الملك المعظـم بأن يسرع فى إنهاء الحرب، واطلاق سـراح "الملـك لويس" واستلام الفدية الكبيره بنفسه.

ولم يدر الملك المعظم أن الذى يقـوم بتقديـم النصح له.. يقدم له الطعم الذى يمكن أن يصطاده بـه أمراء المماليك الصالحية. اذ ابلغـوه بـأن اجـراءات الصلح والتسليم ورحيل قوات الفرنجة توقفت. وبعـض

الأراء تقترح الاتصال بالملك الناصر فـــى الشـــام اذا تأخر حضورك حتى يتم الأتفاق مع ملك أيوبى يكون لوجوده أمام الفرنجه أثره فى عدم التفكير مرة أخـــرى فى الهجوم على ديارنا..

•••

وخشى الملك الشاب من اطماع فـــى عرشـــه .. وقد اطمأن على طاعة الأمـــيرين الكبـــيرين له.. وما هو إلا يوم وليلة،حتى شرع الملك المعظـــم يعد العدة ليذهب بنفسه من القاهرة إلى المنصـــورة.. وذهنه مشغول بالكيفية التى سينهى بها نفـــوذ أمـــراء المماليك القدامى.. ومن سيولية من أمراء جدد يـــأمن لهم.. وينام فى حراستهم قرير العين..!!



(١٣)
الصفحة القديمة والجديدة!

من القاهرة إلى فارسكور، احتشد الأهالى يحيون ملكهم الشاب، ويترحمون على ملكهم الراحل بالهتافات والدعاء- وأحيانا بالطبل والزمر- اذ أن انتصار الملك الراحل على الفرنجة قد تم وجاء الملك الشاب ليجنى ثمرة جهود البيت الأيوبى. والناس تأمل فى عهد جديد من السلم الطويل الممتد.. بعد معركة المنصورة المريرة.

لكن بداخل الهتافات كانت تذكر أسماء أمراء المماليك ومنهم بيبرس.. على أساس أنهم مماليك الملك الصالح الذين انتقلوا كإرث للملك الشاب. فهم الآن من جملة مماليك الملك المعظم تورنشاه.. وبهم ستمتد أيام السلم، ويحفظوا المحروسة من الأخطار والمحن.

•••

والذين يحيطون بالملك الشاب تركوا كل الهتافات، وكلمات الترحيب، التى كان ينظمها ويطلقها مشايخ وقاطنى القرى والنواحى التى يمر بها الموكب الملكى، وأخذوا يبينوا له تلك "الأسماء" التى تزاحم اسمه الكريم، وبينوا له خطورة أن يكون لهولاء المماليك شهرة واسم معروف، كأسياد لهذه البلد خاصة وأن من يذكرونهم بالخير، هم شيوخ أجلاء،

يحملون كلام الله، والعامة تطيعهم، وما كان يجب أن يهتف الناس باسماء خدمك وعبيدك يامولانا الملك المعظم، وإن نم هذا عن شئ، فإنه ينم عن إلحاح المماليك فى أن تذهب إليهم فى معسكرهم بالمنصورة لتسمع بأذنك كيف يردد الناس حكايات عن بطولاتهم فى طول البلاد وعرضها،فيشلون ارادتك فى أن تبدأ عهدك، جديداً فى كل شئ.

***

.. كلما أقترب الموكب الملكى من المنصورة أظهر المستشارون له تأثير أمراء المماليك على الناس، حتى بات الملك المعظم يشعر بأنه يزور "سلطنه" ليست له. أهلها دانوا لإقطاى وأيبك وسنقر وبلبان وشجر الدر وذلك البيبرس الذين دبجوا فيه القصائد ومثلوا أمامه مشهداً من بطولته.. انشادا وعزفا على الربابة.. يصور بها الراوى كيف أجتز بيبرس رأس الشرير رايدا فرانس، وكيف أنقذ الملك الصالح وحريمه وأمواله وعتاده، وكل ما يحتويه قصر السلطنه فى فارسكور. ولعل الملك الشاب بدا فى الإعجاب بذلك الشجاع. عندما مال على اذنه من يهس له.

"كان الصواب حليفك يا مولاى- عندما غضبت لنقل "العرش" إلى فارسكور- ها هو الخطر الجسيم، كاد أن يطيح بالعرش الأيوبى. وهم اذا احتلوا القصر.. انفتح الطريق أمامهم إلى القاهرة، ومنها إلى دمشق وحلب، وأمكن لهم قطع شأفة "البيت الأيوبى" من على وجه الأرض".. فعاد الملك الشاب إلى أفكاره، وإلى ما

كان قد تناساه من شكوك، عاد إلى صفحته القديمة التى تتلائم وأهداف من يأملون فى المناصب والقيادة كبدلاء لأمراء الملك الصالح.. أنهم أمراء "الملك المعظم" الذين يسطرون له تلك الصفحة الجديدة الخالية من أى أثر للماضى.. يحوزنها لأنفسهم لكتابة تاريخا بعيداً عن عباءة والده، وخلافاته مع أعمامه وأقاربه فى الشام يأمل أن يكونوا عضده وقوته هناك!.

• • •

مع الاستقبال الحافل الذى أعد للملك المعظم فى المنصورة، وقد اصطف المماليك فى بذاتهم الرسمية، وفرشوا له الأرض بالسجاجيد حتى القاعة الكبرى بالقصر.. كان على تورنشاه أن يشعر بالزهو.. لكن الملك الشاب نظر إلى ما يحدث على أنه "نظام" يتم فى غيبته "وكأنهم يقولون له بالمحسوس" يا مولاى، نحن لسنا فى حاجة إلى ملك نأتمر بأمره، وكل شئ معد ويسير سيره الطبيعى.وكان الأجدر بالملك أن يطلب من الهامسين فى أذنه أن يكفوا عنه، فقد قلبوا كل شئ يعجب به، ويقربه من المشهد الذى يعيشه،إلى حالة من الزعر. وهو يرى النصر بعينه فيضعه فى خانة الهزيمة، ويرى البطولة فيزيحها إلى حالة من الإدعاء.. ويشاهد الاحتفالات والبهجة والبشر بقدومه فلا يبتهج بها، يظن أن كل شئ أعد لخداعه، وتقوية مركز الأمراء الصالحية!

• • •

بادرت شجر الدر وأمرت الكتاب بأن يقدموا لجلالته مالديهم من سجلات، كان المتوقع من أن لا ينشغل بشئ أكثر من عملية إنهاء الحرب والظهور أمام "الملك لويس" لبدء رحيل قواته واستلام الفدية لكن الملك الشاب أخطأ وأمر الكتاب المرافقين ومستشاريه باستلام ما يقدم له وفحصه.. ونظر إلى ما يقدم له باستهانه، فى اعتقاده أن ذلك أقل كثيرا مما يتصور أن مملكة كبيرة مثل مصر تقدمه لملكها الجديد، متناسيا نفقات الحرب الهائلة، التى وقع معظمها على عاتق خزينة والده.

والملك الشاب بهذه التصرفات أزال الحرج من نفوس أمراء المماليك الذين كانوا لا يرتاحون إلى عملية التخلص من الملك الأيوبى، ولا يطمأنون بأن عملهم هذا قد يغفر لهم، ويمكن ازالته من نفوس المسلمين الشرفاء..!

•••

قام "عز الدين أيبك" ليبلغ الملك المعظم بأمر رسل الملك لويس وبأنهم على وشك الوصول بالفدية المقررة، وعليه أن يستقبلهم فى حشد من جنوده وبنظام متبع قد أعد، حتى يوقع فى قلوبهم الرهبة من "قوته" لكن الملك الشاب أثر أن ينشغل بمراجعة ما قدمته السجلات من حسابات لم يكن مقتنعا بها، وتحت إلحاح "الأمراء" بأن يفرغ مما أعدوه- إذ طال انتظار رسل الفرنجة- تلبس الملك بشئ من العظمة، وأخذ يتعامل مع أمراء مماليك والده على أساس أن الكلمة الأولى

والأخيرة تكون له، فلم يجد من الجميــــع إلا الطاعــة والانصياع.ومع ذلك بادر واعلن فى كلمته، "بأنه طبقـا للعادات فى الدولة،فأن أجلابه من المماليك ستسند لـهم الرئاسة فى الفرقة المكلفة بحراسة القصر".

ثم أخذ ينظر فـــى وجــوه أمـــراء المـماليك الصالحية،وانفجر ضاحكا، وعاد وأعلن بأنه عندما لـم يجد منهم إلا الطاعة. فقد رأى أن يكون الأمــير عـز الدين أيبك ومماليكه مكلفين ومعينين لفرقــة "الحــرس السلطانى"، وينضـــم اليـــهم جماعـــة مـــن مماليكـــة الخاصكية.!

• • •

تبادل أمراء المماليك النظرات. فقد ابتلع الملـك الشاب الطعم. وهو يظن أن بينهم حزب لـــه وحــزب عليه.. ووعد بأنه فى نظـــام دولتـــه الجديـــد ســيبقى المماليك الصالحية بجانبه•• لكن عليهم افساح مكـــان لمماليكه؛وأشار بأن فى ذلك عادات جديدة حدثت نتيجة لما أبداه هؤلاء المماليك من جهاد وطاعة لوالده حتـــى تم كسب معركة المنصورة.

وحياه الجميع على هذا الإعلان.. الذى أوقـــع أمراء المماليك القدامى فى إشكالية•• هل ينفـــذون مـــا اتفقوا عليه؟ أن يتم الخلاص من الملك المعظـــم فـــى أقرب وقت ممكن، وينصب مكانه أمير طفل؟ أم أن ما أعلنه الملك الشاب بالموافقة على كسر العادات، وعـدم التخلص من ممـــاليك والـــده وابعـــادهم واعتبـــارهم

قرانيص، قد أتى بجديد يجب أن يوضع علـــى بســـاط البحث!؟

• • •

قبل أن يقوم الملك المعظم بزيارتـــه التفقديـــه للمعسكر والذهاب إلى دار ابن لقمـــان، واللقـــاء مـــع "الملك لويس"، كان قد قرر أن يعامل "الملـــك لويـــس" كملك كريم على وشك الرحيل من بلاده، حتى يزيـــل من نفسه أثر الأسر والعداوة. ويضرب له مثـــلا مـــن أمثال جده صلاح الدين. عندما كان يعامل أعدائه فـــى رفق، ويطيب جراحهم، فيبدل الأفكار عن المســـلمين، ويخزل الدعاية المقيتة التى كان يطلقها النبلاء والملوك الصليبيين بغرض حشد الحشود لتحقيـــق أغراضـــهم الشخصية. وقد وجد ذلك قبولا لدى أمـــراء الممـــاليك القدامى والجدد..

• • •

.. لكن عندما قامت شجر الدر بتقديـــم القـــرارت المبصومة بخاتم الملك الصالح، لتنفيذ ما ورد فيها، مـــا يخصها، وما يخص الأمراء المماليك.. كانت كمن تريد أن تستوثق من نوايا الملك الشاب النهائية، بعد مهادنتـــه لأمراء المماليك القدامى. وقبل أن تفصح له باســـرار الملك الراحل التى فى حوزتها، وتلك الودائـــع التـــى تعرف وحدها أين يكون مخبأها، ومـــن هـــو الأميـــن عليها..!

لكن الملك الشاب لـــم يكـــن حكيمـــا ويصـــبر ليشترى كل ما لدى أمراء المماليك الصالحية.. ســـارع

وشكك في صحة الأختام، وأشار بأن والده عندما مات استمر الأمراء وقتا يخفون خبر موته، واشار إلى أن في ذلك الوقت يمكن إصدار القرارات السلطانية، وذلك دون أن ينظر فيما تحويه تلك القرارات أو يؤجل النظر فيها بعد الإنتهاء مما هم فيه. وعودتهم جميعا إلى قصره بالقلعة.. كان ذلك التسارع يمثل غباءً ظاهراً من الملك الشاب وقال:

- علمت أن الملك الوالد كان قد مات، والشاهد أنه وصل إلى المنصورة شديد الوهن والمرض.. وأختام الملك، كانت فى حوزة من تحددت لهم المزايا التى فى القرارات..

وقال: من يدرينى بأن جميع القرارات مبصومة بخاتم الملك الصالح بناء على رغبته هو.. وفى حياته.. لماذا أنتم فى عجلة لإقرار هذه القرارات.. لقد كان ذلك ضمن الشروط التى أرسلت إلىّ وأنا فى الشام.. بأن أحضر لأجلس على بساطكم وأحكم بما ترونه أنتم صالحا..؟!

فبادر عز الدين أيبك ليوقف تدهور الموقف:

- عفوا يا مولاى. إن ما قامت به "السلطانة" شجر الدر، وما قام به أمراء المماليك.. كان جزءً من انتصارنا على الفرنجة. وعليك يا سيدى الملك المعظم أن لا تشكك فى أية قرارات مبصومة بخاتم الملك الصالح، وقد شهد شيوخ أجلاء وكتبة القصر السلطانى صدورها فى حين كان الملك الصالح حيا..

وهو برغم مرضه كان يعقل كل شئ ويدير المعركة من على سريره.

رد الملك المعظم على عز الدين أيبك باستهانه. قائلا:

- يشهد الشيوخ والكتبة على ماذا؟. وهم شيوخكم وكتبتكم الذين يشيعون عن افعالكم التهويلات..

توتر الموقف.. وأدرك الملك الشاب بأنه يخوض فى مسائل شائكة لم يحن أوانها بعد.. فانتقل إلى ابداء الرغبة فى أن تترك هذه القرارات للدراسة والبحث، وأنه سينظر فيها بعين العطف.. فى وقت لاحق، كان قد تورط وافصح عن سريرته. قال:

- دعونا الآن ننتهى من آثار هذه الحملة المزعجة حتى لا تصير أرض عن أرض مميزة.

فى إشارة إلى ما ابداه أمراء "مماليك والده" بأن أرض الجهاد فى المنصورة لها الأسبقية فى الزيارة الملكية عن "أرض القاهرة"..

وقال فى غمز:

- اعتقد أن بعد عقد الصلح.. تصير أرض المملكة كلها أرض سلم..

وتضاحك الملك فى خفة، فتضاحك أتباعه وأمرائه. وظل فارس الدين إقطاى واجما.. واذا ما نظر نحو بيبرس.. تأكد له بأنه لم يحد عما كلفه به. كما أن الأمير بيبرس كان قد شاهد بعينه اهمال القرارات المبصومة بخاتم الملك الصالح.. وبينها القرار الخاص بترقياته، وعتقه ووظائفه.. إذ دفع بها

الملك الشاب خلف ظهره، تحرك بيبرس ليقف خلف عز الدين أيبك بجانب قطز، نظر إليه قطز بطرف عينه وابتسم. لكن بيبرس كان جامد الملامح متصلب الجسد.. ينظر فى فراغ. وهو يرى بأنه بعد الصيت والبطولة. يقبض الريح. أماله العظمى تتبخر.. وعشرات من الذين جاءوا فى حاشية الملك المعظم فى انتظار أن يتلقفوا- فرصته- ويقسروها، لتكون فرصتهم. وبها يهتبلون نصيبه الذى كان يجب أن يتضاعف مع النصر على الفرنجة، وما بذل من جهاد.

•••

انتقال بيبرس من خلف ظهر إقطاى ليقف خلف ظهر أيبك. كان متفقا عليه. أن يصير بيبرس تابعا للفرقة التى ستقوم بحراسة الملك ويأمن لها.. ليتاح له الإندماج مع مماليك الملك الشاب.. وعز الدين أيبك الذى أبدى معارضة وتحذيرا من قتل الملك الشاب لم يحتفظ باعتراضاته على طول الخط.. وقد تحول الاعتراض الصريح إلى مخاوف على مراكز الأمراء الصالحية، وجد من يخفف تأثيرها على نفسه.. ويهدئ من روعه تجاهها.

والشئ الذى أقنعه بخطة إقطاى..هو موقف الملك المعظم الذى يشاهده الآن بنفسه، يغور فى الأحشاء ويؤلم.

•••

بعد أن قام الملك المعظم بلقاء الملك لويس واهداه "خلعة" وطيب خاطره، متمنيا أن يكون الملك الفرنجى قد إتعظ بنتائج هذه الحملة الفاشلة..

كان أحد مماليك توركشاه.. يبلغ بيبرس بأن الملك المعظم استمع إلى تفاصيل معركة القصر، وكيف أبليت فيها، وكيف قمت وحدك بقتل أكثر من "نبيل" من نبلاء الملك لويس،فإنه يطلب اللقاء بك في جناحه..

ظل بيبرس لبعض الوقت يفكر فيما سيسفر عنه هذا اللقاء. اضطر أن يذهب إلى إقطاى ويبلغه،، تفكر إقطاى قليلا وقد فرك لحيته مع ذقنه ثم قال لبيبرس:

– فى هذه المرحلة الفوارة بالآمال، ربما تكون قد ادهشته بطولتك يا بيبرس.. قتلك لملك صليبى بسيفك شئ ليس هينا.. قد يجعل "الملك المعظم" يستعين بذلك السيف.. لتخلصه من أشخاص يراهم أعداء له.. وهم فى مصاف الملوك أيضا.

وأخذ إقطاى يعيد فرك لحيته الحمراء القصيرة متفكرا...

لا يريد أن يفصح بشئ مما يفكر فيه..

(١٤)
السندان.. والمطرقة

▭ **بين سندان** -الملك المعظم، ومطرقة أمراء المماليك العظام- كان بيبرس يغرس بذرة دولة المماليك الأولى. لحظة مصيرية فى مسيرة حياة بيبرس. سراط مستقيم رهيف يمشى عليه، تحته النار جمرات مشتعلة.. اذا مال يمينا أو يساراً.. انتهى أمره. كان عليه أن يحسم قراره ويحدد موقفه.. لا مجال بأن يتبع سياسته المعهودة بأن يتكتم ما فى صدره ولا يظهر حقيقة ميوله وينتظر ما تأتى به الأحداث، وما يحمله التيار إلى حيث تحط به الأقدار..

يأمل أمراء المماليك فى أن يخلصهم من الملك تورنشاه، ولا يدرى مصيره، اذا ما أتى بذلك الحدث الخطير.

هل سيضفون عليه الحماية، أم يقدمون رأسه قربانا لآل البيت الأيوبى؟!

الملك المعظم تورنشاه يدعوه للقاء به، بعد أن سمع عن "موقعه القصر" وأبدى إعجابا بما أحدثه فيها من عنف، أنقذ عرش مصر من الإجتياح الصليبى.. أنه يستدعيه فى جناحه. وإقطاى يلمح له بأن السيف الذى قطع رأس الملك الصليبى قد يوجهه تورنشاه ليقطع رؤوسا لها نفس المكانة.. أنه من الذكاء أن يفهم

التلميحات، بأن الملك الشاب قد يستخدمه ضد "خشداشيه" زملاء السيد الواحد. الواقع الذى خلفه الملك الصالح بعد وفاته، أن مماليكه الصالحية مهددين بتحويلهم إلى قرانيص "أجناد حلقة" يؤمرون بالقتال، والموت مقابل راتب وحياة معسكرات وقلاع حتى ينتهى أمرهم..

هم أبطال الجهاد فى المنصورة قد يفكرون فى التخلص منهم قبل وصول الملك لويس إلى بلاده وتضميد جراحه!

• • •

الأفكار المتضاربة فى ذهن بيبرس، تحولت إلى كابوس ثقيل، خاصة وأن إقطاى يعقد على جسارته الأمل فى أن يستل سيفه ويجندل الملك المعظم تورنشاه..

يظنون أن ذلك الأمر سهلا..؟

"لكن اذا لم يكن هذا الأمر سهلا.. فإن ما هو أصعب أن يخالف ما اتفق عليه أمراء المماليك القدامى.

وكلما مر الوقت تواصل الطحن فى رأس بيبرس تفتتت عزيمته، تشتت أفكاره، وصار يعصف به الاضطراب.

كان على بيبرس أن يبدو متماسكا أمام أمير من أمراء مماليك الملك الشاب. رآه يعامله فى شئ من الود والترحيب والإشادة، مما يدل على أن اللقاء المزمع عقده مع الملك المعظم سيكون وديا للغاية، وأن

"معركة القصر" الذى يهون من نتائجها أمراء المماليك الصالحية، لها صداها عند الملك المعظم. وهو اذا ما أبدى طاعة للملك الشاب، فإن ذلك اتفاقا بينه وبين إقطاى، وبقيه الأمراء، بأن يفعل ما يفعل دون أن يتلقى لوما.. أو يحاسب على ما يبديه متخطيا الأمراء القدامى.. فمسعاه جزء من خطة أمراء المماليك التى باتت تزعجه.. ويفكر فى تسويفها والإنقلاب عليها..!

•••

فى غرة المحرم من عام ٦٤٨ (ابريل١٢٥٠م) صار بيبرس أميرا من جملة المماليك المعظمية [خاصكية الملك المعظم] فهو عندما ذهب للقاء الملك الشاب فوجئ بأن الملك يرحب به ويذكر أمامه بأنه أحيط ببطولته وشجاعته فى معركة القصر. وأمام مماليكه، راح يمتدحه، ويعلن ضمه إلى جملة حرسه ومماليكه فى القصر.. ويسمح له "كأمير" أن يقابله ويظهر أمامه فى أى وقت يشاء، كما يمنحه حقوق أمراء مماليكه التى سيعمل على أساسها عقب العودة إلى القاهرة!

•••

كان بيبرس يود أن يشير إلى القرار السلطانى بترقياته، والذى بات ضمن القرارات التى القاها الملك وراء ظهره. لكنه آثر أن لا يعكر صفو العلاقة الطيبة التى بدأت تتصاعد بينه وبين الملك الشاب.وقد حصل على نفس المزايا تقريبا، من باب يخصه وحده، ولا يكون لأحد من الأمراء القدامى فضل عليه.!

كانت هذه المرة الأولى التى يتكلم فيـــها مـــع الملك المعظم تورنشاه. أبن سيده الملك الصالح. فقـــد قربه ولمس جسمه وشم رائحة عطره، ومع أن الملـــك الشاب هو الذى أشار على بيبرس بأن يدنو منه، فقـــد شعر بيبرس بأن الملك يقوم بدور لا يميل إليه كثـــيرا، دور رسمه له مستشار يخالف طبيعته.

ومع إبداء مظاهر الطاعة الواجبة من بيـــبرس، لم يفتح قلبه للملك الشاب الذى بدا له متعاليا يلعب لعبة مكشوفة. يقربه إلى حاشيته بينما هناك الأمراء الكبـــار من أمثال أيبك وإقطاى وسنقر وبلبان وهـــم الأبطـــال الحقيقون لمعركة المنصورة. الذين ألحقـــوا بـــالغزاة الخسائر الفادحة. كما تكبدوا الكثير من الخســـائر فـــى العتاد وأرواح مماليكهم الذين اشتروهم من اعطياتـــهم وأموالهم. وذلك قد يثير حفيظة هؤلاء الأمراء ضـــده، وظن أن الملك يختبر قدرته على تفتيت صفهم الذى قد يراه موحدا.

بيبرس كان يرى أن الملك الشاب ينتزع كلمات الإطراء به من نفسه انتزاعا، وبعضها يصدر من أنفه. لعل بيبرس وهو ينحنى ثم يشمخ. كان قد أعاد التفكـير فيما خطط له أمراء المماليك الصالحية بقيادة " شـــجر الدر"!

• • •

لما صار بيبرس قريبا من كرسى العرش للملك الشاب. اعتاد أن يواجهه ويتلقى منه الأوامر. فينحنـــى ثم يشمخ، وفى ذلك اللقاء بالأمراء فى أحتفالهم برحيـل

آخر السفن الأفرنجية. كان بيبرس لا يلتقـــى بـــأمراء المماليك الصالحية. إلا أثناء حضورهم ذلك الإجتمـــاع الذى يشمل الإعداد لترك المنصورة والعودة للقاهرة..

كان بيبرس يرى فى عيون الأمـــراء القدامـــى كثيرا من الاسئلة فهو- وهم أيضا- يكاد يعلمون بـــأن الملك الشاب يهادنهم حتى يعود بهم إلى قلعة الجبـــل.. وأنه سيعمل أولا على تفريقهم.. ثم يتعامل مع كل حالة على حدة.

• • •

الأسئلة المثارة التى تكاد تصـــرخ فـــى وجـــه بيبرس "ماذا أنت فاعل يابيبرس؟. ها نحن نجتمع معـــا وربما لأخر مرة فى حياتنا" وقد تعمد إقطـــاى بـــأن لا يلتفت نحو بيبرس** وبدا أن أيبك الذى تم تقريبه مـــن الملك الشاب صار من جملة مستشاريه، ووزرائه. كما بدا كأن إقطاى قد أحل بيبرس من التكليف الثقيل. وأن الأمور التى لـــم تتصـــادم بيـــن الأمـــراء المعظمـــية والصالحية قد تستتت على ذلـــك الحـــال إلـــى فـــترة طويلة..!

• • •

عندما التفت الملك المعظم تورنشاه نحو بيبرس أو نحو المكان الذى يقف فيه بيبرس مع جملـــة مـــن أمراء مماليكه الجميع يحملون ســـيوفهم ويتمنطقـــون بخناجرهم.. بيبرس وجد نفسه يندفع ويواجـــه الملـــك المعظم، وكأنه ناداه فاستجاب له سريعا، انحنى أمامه.. كانت إنحناءة بيبرس ركوعا تحت أقدام الملـــك. ممـــا

لفت نظر أمراء المماليك الصالحية بأن المغـالاة فـي تقديم فروض الطاعة هكذا ليست من شيمة بيبرس. اهتم إقطاى بما يحدث. ثمة علاقة طويلة بينه وبين بيبرس جعلت الحوار بينهما قد يكون غير منطوقـا. يجـرى بالعيون، والحركات، والتصرفات!

انعكس إهتمام إقطاى المفاجئ على بقية الأمراء فتهيأوا.

كان الأمراء الصالحية يقفون فى مقدمة الصف الأيمن وخلفهم عدداً من قواد فرقـهم. وعلـى يسـار "الملك" كان هنـاك صـف مـن الشـيوخ والعلمـاء والأعوان، أما المماليك المعظمية فيقفون حوله فـى نصف دائرة.. وقد انسلخ عنهم بيبرس، وظل منحنيـا حتى سمع الملك الشاب يأمره بأنه لا يريد منه شـيئا، وأن ما بدر منه إلتفاته ليس غير. القوة التى أتى بـها الملك الشاب كانت فى حدود الثلاثة آلاف. لكن القـوة التى حاربت الفرنجة كانت تزيد عن الأربعين ألفا مـن المماليك الصالحية.. لا يدرى بيبرس لماذا فكر فى هذا العدد.. قارن بين القوتين.. وهو لا يـزال منحنيـا، التفت إلى موقع إقطاى.. تشابكت نظراتهما فى حـوار صامت.. واذا برأس إقطاى يهتز عدة هـزات ويـده تقبض على سيفه، يرافق ذلك، تلك الأبتسامة التـى لا تعبر عما فى عينيه من اصرار وتصميم.. سرى بيـن الأمراء الصالحية ذلك التيار الذى ينم عن توالد خطـب قد يؤدى إلى حدث كبير وخطير. كان ذلك عند عـز الدين أيبك عصبيا، وعند سنقر وبلبان متهالكا.. ولكـن

إقطاى كان يواصل إرسال رسائله فى تلك اللحظـــات القليلة التى ظل فيها بيبرس منحنيا.. وما كـــان يقلـــق بيبرس أن لا يكون الأمراء قد أعدوا للأمـــر عدتـــه.. ووضعوا أمام كل سيف من سيوف الملـــك المعظـــم.. عدة سيوف.. هنا كان لابد وأن تصدر من إقطـــاى أو أيبك إشارة ما.. فى اللحظة الفاصلة التى كانت- كاملة بيد بيبرس- كان يمكن أن يتخطاها ويجعل من المشـــهد برمته، تدريبا عمليا. وفيما بعد يقول للأمراء.. أنه لـــم يتلق من أحد إشارة واضحة بأن يفعلها.. كان بيـــبرس فى الواقع قد انتصب شامخا أمام الملك الشـــاب بعـــد الانحناءة الطويلة. كان يبتسم فى وجهه ويركز بصـــره فى عينيه.. رأى أن الأمراء الكبار الأربعة يقبضـــون على مقابض سيوفهم. لعله لو رأى خلاف ذلك لآثر أن يمضى ويقف فى مكانه، فى لمح البصر قفز الببر من الأرض، وقد استل سيفه وصـــرخ صرخـــة الحـــرب المغولية المفزعة، وهبط بالسيف علـــى رأس الملـــك الشاب الذى تراجع فى خفة القط. وتلقى سيف بيـــبرس على كتفه الأيسر، قطع جزءً من بذته مختلطة بلحـــم كتفه.. ابنثقت الدماء.. وجه الملـــك تورنشـــاه كـــان فزعا.. اختفى وعاد يملأ المشـــهد، تجمـــد المشـــهد، لحظات.. المفاجأة ألجمت الجميع فى أماكنهم لبعـــض الوقت.. واذا بأمراء ومماليك الملك المعظـــم يلقـــون بانفسهم أمام بيبرس وعددا من السيوف تتلقى سيفه فـــى ضربته التالية.. ربما كانت الرابعة أو الخامســـة. راح يبحث عن الملك الذى اختفى خلـــف مشـــهد الوجـــه

المفزوع الذى ملأ عينى بيبرس.. . لحظ أن سيوف المماليك الصالحية كانت قد أحاطت به.. وعند ظهورهم اشتبكوا مع المماليك المعظمية الذين فوجئوا بالهجوم فسقط منهم البعض، وفجأة ظهر الملك الشاب أمام بيبرس وبيدة سيفه، هو الذى يهجم.. اذن فالجرح جاء فى أعلى الذراع الأيسر - عندما مال وتلقى بكتفه الضربة التى كان يجب أن تكون الحاسمة.. واذا بسيف سريع يطيح بالسيف الذى بيد الملك الشاب. إنه سيف إقطاى الذى يقدم له المعونه فى الوقت المناسب. أنه يشاركه الحدث الجلل. والمسافة بين بيبرس والملك الشاب كانت أطول من الذراع مع السيف الذى بيده فمال بيبرس وطعن الملك فى الصدر على اليسار قليلا. كان يمكن أن يصل سيفه الى قلب الملك فيسقط أمام الجميع وتهدأ الزوبعة التى أثيرت فجأة. لكن الملك الشاب كان يميل إلى الخلف وقدماه يتحركان فى حركة لولبيه، فيتفادى الطعنات ويتمكن من أن ويهرب من الباب الذى يقع خلف الستائر الثقيلة فى ظهر كرس العرش، ، هنا يندفع مماليك تورنشاه يملأون المسافة بين الستائر وبيبرس، فينقض عليهم مماليك إقطاى.. يتعاملون معهم ضربا وطعنا ومبارزة بغرض شغلهم فيسقط أكثر من قتيل.. واذا ما تلفت بيبرس حوله رأى "أيبك" يصرخ فى الجميع بأن يكفوا عن القتال.. ويلوح بسيفه نحو أحد الابواب فيتقهقر "بيبرس" يحمى ظهره إقطاى وعدد من فرسان المماليك.. وإذا ما اندفع خارجا من نفس الباب.. سيشاهد الملك الشاب قد أحاط

به مماليك سنقر في حلقه، والدماء تصبغ ذراعه وصدره.. انهم يحتجزونه لبيبرس حتى يلحق به.. ما يكاد الملك الشاب يشاهد بيبرس قادما حتى يكسر الحلقة ويفر نحو احدى آلات تسلق الأسوار بما بها من درج وحبال وسلالم مرتفعة.. لعل الملك في تلك اللحظة رأى "المؤامرة واضحه" وأن مماليك سنقر حاصروا مماليكه خارج القاعة. وداخل القاعة كان أيبك قد اوقف قتالهم.. والصراع إنحصر في شخصين "هو. وبيبرس" الذى لم يتوقع منه الغدر، وقد قربه منه بغرض أن يستخدمه ضد كبار الأمراء الصالحية.

آلة تسلق اسوار القلاع كانت بجوار سور المعسكر.. والملك اذا ما تسلق أدراج هذه الآلة قد يلقى بنفسه خارج المعسكر ويفلت بروحه.. وهو لا يدرى كيف عزلوا خاصته عن الدفاع عنه، وكيف لم يتحرك مماليكه الحركة الواجبة ضد المماليك الصالحية!

يلحق بيبرس بآله تسلق أسوار القلاع. ويشاهد الملك يجرى كالقط على سلالمها برغم جراحه، يصعد إلى أعلى.. في محاولة للحصول على النجاة. وبيبرس كان هائجا. ففى نجاة الملك من الموت المحقق نهايته هو.. والضربة الطائشة ما كانت تطيش إلا لخفة وتوقع من هذا الملك الشاب الذى عاش في قلعة كيفا عيشة الفرسان الخشنة.

الملك تورنشاه وهو يرى الموت يطارده في شخص بيبرس. شعر بدنو النهاية، إذ وجد الصراع قد أنحصر بينه وبين صاحب الضربة الطائشة. والدماء

كانت تنزف منه غزيرة. وحارة، البداية النشطة بـدأت تخفت اذا ما واصل الصعـــود علـــى درجـــات آلـــة الحصار.. وقد تركه بيبرس يصعد سلالم آلة الحصـــار ووقف له تحتها. سيفه بيده يضوى. ولا أحـــد يتقـــدم لمعاونته يكاد يرى الجميع قد تحولوا إلـــى مشـــاهدين. وراح بيبرس يفكر فى الخطوة التالية. سوء حظ الملـــك أنه راح يتسلق هذه الآلة المرتفعـــة. الملـــك يـــود أن يهرب، كان يجب أن يهرب فى أحد النواحـــى علـــى الأرض.. وليس إلى السماء.. والمفاجأة التى وقعـــت جعلته لا يحسن التصرف.. لكن وهو فى طريقه إلـــى فوق، كان يعثر على الحراب وكور النـــار المعلقـــة.. اسلحة آلة التسلق.. وهو يصعد كان يلقـــى بـــالحراب، يرسل بالحراب إلى حيث يقف بيبرس، يتطلـــع إليـــه الملك ولا يدرى هل سيصعد إليه أم ينتظر.. وبيـــبرس متحيرا لعله يسأل نفسه؛ ماذا سيفعل الملك المصاب فى خطوته التالية. واحدى هذه الحراب كادت أن تقضـــى على بيبرس وتنغرس فى ظهره، وقد تنحى فى آخـــر لحظة. الوقت اذا ما كسبه الملك قد يتحـــول الموقـــف لصالحه..

افاق المماليك الصالحية وقدروا المســـألة مـــن زاوية أخرى، قد يهجمون جميعـــا. ليقتلـــوه وينتـــهى الأمر.

ولم يدر بيبرس أنه بعد الاشـــتباكات الأولـــى ومقتل عدد من أمراء مماليك الملك تورنشـــاه.. كـــان المماليك الصالحية قد سيطروا على الموقف..جمـــدوه

فى انتظار أن ينتهى بيبرس مــن مهمتــه الثقيلــة.. والملك الذى ارتفع عاليا شعر بالهواء البــارد يلفحــه، يجب أن يتخلص من بيبرس ويقفز خارج الســور، واذا به يشاهد من ارتفاعه أن سور القلعة يجــاوره النــهر العميق. فألقى بعدد من الكــرات المعــدة للاشــتعال لتعطيل صعود بيبرس خلفه. ذلك أوحى لبيبرس بفكرة اشعالها. بل أن بيبرس رأى أن يشعل النار فــى آلــه تسلق أسوار القلاع وهى من الخشب والحبال.. جــرى وتناول مشعلا.. وبالكرات التى تشتعل سريعا اذا مــا لمست النار.. راحت ألسنة اللهب تتصــاعد عاليــا.. والدخان يخفى الملك تورنشاه أعلــى الآلــة.. ابتعــد بيبرس ليشاهد الملك تورنشاه يلقى بنفسه فى النهر. لقد طار الملك مسافة هائلة حتى يسقط فى المياه العميقــة. شاهده أيضا من تحلقوا بالمعسكر وحول آلــه تســلق الأسوار، تحركوا نحو النهر، وظلوا ينتظرون صعــود تورنشاه إلى سطح الماء فلم يظهر فى مكانة.. حتــى ظن البعض أنه ألقى بشئ ليفلت هو بعد أن يصــرف انظارهم.. بدا بيبرس وبقية أمراء المماليك فى حالــة توتر.. واذا بصياح يأتى من طرف المعســكر البعيــد [جثة الملك الغريق تطفو] سحبوها ناحية البر.. وتــأكد لمن يهمه الأمر- أن تورنشاه ابن الملك الصــالح قــد مات غريقا وجريحا ومحروقا.

اختفى بيبرس من الساحة التى تعج بــالأحداث. بعد أن أيقن بأن الملك المعظم انتهى أمره..

وانعقد مجلس الأمراء الصالحية بدون بيبرس. كان الأمراء الصالحية قد قرروا أن يتم التخلص من أمراء المماليك المعظمية- وكانت أولى قرارات المجلس إعطاء الحرية للمماليك المعظمية فى الأنضمام لمن يشاؤون من الأمراء الصالحية إقطاى.. إيبك.. سنقر.. بلبان- أو العودة للشام لمن كان فى مهمة، ولم يكن من مماليك تورنشاه، فأختار معظمهم الانضمام إلى مماليك عز الدين ايبك.. وتوزع بعضهم على بقية الأمراء..

وبدا إقطاى راضيا عما حدث... كان يشغله أمر مهم. فقد كلف أحد مماليكه الشجعان بأن يقتل بيبرس اذا إلتقى به. تحت دعوى الإنتقام لمقتل سيدهم، بن سيدهم، ملك البلاد والعباد!

مقتل بيبرس يحل العقدة التى انعقدت بين المماليك وملوك وأمراء البيت الأيوبى الذين لن يسلموا للمماليك.. وقد يتوحدوا بمساعدات خارجية لقتالهم فى مصر لإسترداد عرش الأيوبيين من العبيد!

لكن التاريخ كان يسجل فى هذه اللحظة..

مولد دولة المماليك الأولى

بعملية قيصرية.

(١٥)
دولة المماليك وثبات العادة!

إذا ما فرغ المماليك من قتل "تورنشاه" وارثهم، وخليفة والده الملك الصالح على عرش مصر. بدا أن ليس هناك بين أمراء المماليك الصالحية من هو أقوى وأوسع نفوذا من "فارس الدين إقطاى"- وإليه يرجع التخطيط فى التخلص من تورنشاه بالقتل ويعتبر بيبرس "المنفذ".

وفى خطة الأمير اقطاى أن يحكم كوصى من خلف "قاصر" أيوبى، ويبادر ويستعيد الشام "دمشق" وحلب بالذات.مستغلا المد الذى أحدثه انتصار المماليك فى معركة المنصورة، وبذلك يقضى على أهم قوى البيت الأيوبى خارج مصر، ثم يقوم بنقل العرش إلى نفسه خالصا دون منازع.

ذلك ما لم يفصح عنه من خططه، وقد عمل على أن يورط جميع أمراء المماليك فى قتل "الملك المعظم تورنشاه"، ولكنه وقد بادر وشرع سيفه أمام كثير من الشهود، فى وجه تورنشاه، عندما استعاد توازنه أمام بيبرس على أثر ضربة سيفه التى طاشت، عقب تفاديها بخفه ورشاقه مكتسبة للملك الشاب الذى عاش أيامه الأخيرة فى قلعة كيفا، عيشة الفرسان التى يكتنفها النشاط الدائم.

إقطاى كعادته يظهر القليل من نواياه. ويخفى الكثـــير فإن عز الدين ايبك كان مذهولا وقلقا من كم الإنحراف عن السائد، والخروج عن قانون الواجبات المنوط بـها المماليك، فما الحال إذا علم بأن "إقطاى" يقـوم بتنفيـذ الجريمة المركبة.. يحرض على قتل الملك الشاب.. ثـم يحرض على قتل من قتل الملك الشاب. ويبـــدو أنـه زاهداً فى الحكم، وهو يعمل بكل قواه بأن تطيب الثمرة وتحط فى حجره..!

أيبك برغم ما وصل إليه المماليك من توفيق، يــدرك ردود الأفعال عند "المسلمين الاشـــراف" الذيـن لـن ينظروا إلى تمرد المماليك إلا بأن هذا خروج عنيـــف عن العادات والتقاليد، وتحد سافر لما اســتتبت عليـه الأوضاع منذ مئات السنين.

يرى أنه كان لابد وأن يتمسك باعلان رفضه لقتـل الملك الشاب مهما حدث. فان بشاعة ما حدث، والمهام الصعبة التى ألقيت على كـاهل الأمـراء الممـاليك. والطريق بات ممهداً لقيام عاصفة من الأطمـاع بيـن المماليك أنفسهم من ناحية، وبيــن الممـاليك وملـوك وأمراء البيت الأيوبي من ناحية أخرى، ففى ظنــه أن الدمار لهم جميعا بدأ.. وحالة الهدوء والتنعم التى اعتاد "المملوك" أن يعيشها عقب الحروب صارت مفتقدة.

فى كل الاحوال كان "عز الدين أيبك" يرى أن المــهام التى خلق لها المملوك.. لن تكون بأية حــال هــى أن يحكم "الأحرار" فان أفقر فلاح فى مصر.. لن يوافــق على أن يكون محكوما مباشرة من مملوك، وما يتوقعه

"أيبك" هو حدوث كثير من الهبات والثـورات بداخـل "المحروسه". فى تخيله أن "البلد" ابتلعت طعاما مسموما لن تهدأ أمعائها إلا اذا أرجعته ولفظته.
وقد بدا أيبك مهموما.. خشى إقطاى أن يكـون هـذا الأمير المنافس له، يفكر فى اسـتدراج سـيف الديـن سنقر، وشمس الدين بلبان الرشيدى لمعاضدته فيشكلون حزبا كبيرا ضده، يوجه له الإتـهام بـالخروج عـن القانون السائد.. ويفوزون هم بالغنيمة كمدافعين عـن حقوق الذى قتل؟!
إقطاى وقد حصر تفكيره فى ذاته، ومنافسه عز الديـن أيبك.. غفل تماما عن "شجر الدر" التى كانت ولازالـت زوجة "سيد" المماليك.. رفعت بالزواج السلطانى إلـى مرتبة عالية، غسلت ما سبق لها من عبودية، فتـألقت بما اشاعه حزبها عن دورها البطولى فى التغلب علـى ضعفها كسيدة.. وأحزانها كزوجـة ترملـت. وكيـف أخذت تدير المعركة مع الأمراء المماليك حتى كتب الله النصر للمسلمين على الصليبيين.. شجر الـدر- فـى موقعها الجديد- تمسك بيدها ما يفتقده أمراء الممـاليك بالنسبة للقبول من أهل مصر..وفى نفس الوقت فـهى زميلة للمماليك،يمكن أن تحكم بنفسها.. ومـا يذكـره إقطاى القوى.. أن "شجر الدر" بكل ما لديها من أسرار العرش الأيوبى، إنها أمرأة، وإذا كـان لا يجـوز أن يحكم عرش مصر مملوك رجل.. فإن حكـم عـرش مصر بمملوكة أمرأة فمن رابع المستحيلات.. فأذا كان إقطاى يرى أن الوصول إلى عرش مصر سوف يـأتى

بالأتابكية "الوصاية" فما الذى يمكن أن تفعلـــه "شـــجر الدر" إلا الطاعة للوصى على العرش؟ يكفيها أن تعيش بقية عمرها أرملة لملك .مصر.. سلطانة سابقة تستمتع بما كان يتمتع به "الملك الصالح" من إعزاز وتقديـــر. وما لا يدريه فارس الدين إقطاى.. أن لكـــل شـــخص مواهبه الخاصة، التى تشتعل ذاتيا بالحركة فى ســـاحة الأطماع وخاصة عندما تتعرض أمانيه للخطر.!!

كان المملوك الذى كلف بالبحث عـــن بيـــبرس وقتلـــه لاينى يتقصى أثر بيبرس، حتى اكتشف أنه لم يغـــادر معسكر فارسكور، وأنه يختبئ فى القصر الســـلطانى بالجناح الخاص بالسلطانة شجر الـــدر، راح يراقبـــه ونسى نفسه واقترب من ذلك الجناح حتى ضبط مـــن حراسه، وسيق إلى كبير الحراس الذى ظن أنـــه مـــن المتآمرين على "شجر الدر" يتربص بها لقتلها. اضطـــر المملوك أن يصارح كبير الحراس بأنه ما جـــاء إلـــى جناح الحريم، والذى يضبط به من الغرباء يقتل علـــى الفور.. إلا من أجل الأمير بيبرس، وســـألوه: كيـــف علمت أن الأمير بيبرس فى هذا الجناح مـــن القصـــر؟ اضطر المملوك أن يدعى بأن هناك مؤامرة على حيـــاة بيبرس، وقد جاء إليه ليبلغه بها.. فصحبه الحراس إلى شجر الدر التى قامت باستجوابه، ومنه، علمـــت بأنـــه مكلف من فارس الدين إقطاى بقتل "الأمـــير بيـــبرس" بسبب قتله للملك المعظم تورنشاه!

ذهلت شجر الدر لسماعها تفاصيل تلك المؤامرة التـــى يخطط لها اقطاى،فسارعت واستدعت "عز الدين أيبك".

وفور سماعه الأخبار من "المملوك" أصيب هو الآخـــر بالذهول.. وتدريجيا.. تكشفت للأمراء وشـــجر الـــدر، مساعى إقطاى لينفرد بالحكم وحده!
بيبرس كان كل ما يشغله فى مخبـــأه. كيـــف يتقبـــل المماليك - والأهالى - حالة الانحراف القصوى.. هـــو بطلها، نعم -- أما أن يكون بطلا لهم. أوضحيتهم، التـــى يشترون بها رقابهم، وكل ما كان يعزيـــه أن الامـــير "فارس الدين إقطاى" هو عضده ونصيره.. وهو أقـــوى أمراء المماليك. لكن أن يكتشف بأنه يسعى لقتله؟! لعله فكر أن ذلك قد يحدث، لكنه اذا مـــا حـــدث سيشـــعل أعماقه بالثورة والغضب ضد هذا الأمير المخاتل.. وها هو يرى حلفا بين شجر الدر وأيبك، فلمـــاذا لا ينضـــم إليه.. لينتقم لنفسه من ذلك الأمير الذى يسعى لقتله..؟!
لقد بات بيبرس يرى بأنه لن تستقيم الأحوال إلا اذا تـــم التخلص من "إقطاى".. حاصرته شجر الدر من ناحية، وعز الدين أيبك من ناحية، حتى تفـــاقم غضبـــه علـــى استاذه، ثار وأخذ يدق المنضدة بقبضته.. وكأنه يهشـــم له رأسه.. فتبادلا الحليفان النظرات المريحـــة.. ولأن اساليبها فى الدفاع والهجوم ناعمة. لـــم يفاتحـــاه فـــى أسلوب الانتقام من إقطاى، الذى يجـــب أن يـــرد لـــه اللطمة.. سهما مسموما يرشق فى ظهره..!
وبدا انهما اكتفيا بأن بيبرس ابتعد عن إقطاى، ليس مـــهما أن يعلن موقفه صريحا معهما.. "فمن يكون ليس مـــع إقطاى.. فهو معنا بكل تأكيد" هكذا غمغم "أيبك" فى اذن شجر الدر، فوجدت نفسها تمسك بيده وتتشبث بـــها..

فيبادر هو باليد الأخرى يربت على اليد البضة في رفق وتحنان مما جعلها تستعيد انوثتها وتميل بكتفها إلى صدره، ثم تفيق سريعا، بأن لا الوقت ولا الموقف يناسب الحالة العاطفية.!

عقب ظهور جثة "الملك المعظم" طافية على سطح النهر كان بيبرس قد توجه مباشرة إلى جناح الحريم بالقصر السلطانى.. طلب مقابلة شجر الدر فأدخلة حراسها إلى قاعة العرش والتى كان يحلو لها لقاء ضيوفها بها.. تجلس على كرسى "الملك الصالح" وحولها أبهة العرش من الستائر والزخارف.. جثى بيبرس عند أقدامها ووضع انجازه بين يديها .. هو الذى كان يتخوف من غضبها اذا ما أتى بالحادث الجلل. كان قد استشارها قبل أن يسعى إلى التنفيذ فسمع منها شكوى طويلة من تصرفات الملك المعظم وغروره وباحت له بأنه ضرب بعرض الحائط بكل الاتفاقيات التى عرضت عليه عند استدعائه من قلعة كيفا بديار بكر.. وأنه ينفذ ما يمليه عليه أعمامه في الشام، ويقلل من انتصار "الملك الصالح" فى معركة المنصورة!

وفهم بيبرس بأن "الشكوى" التى تقدم من تصرفات الملك الشاب.. تحمل فى طياتها موافقة ضمنية على أن يسلك ما يراه مناسبا.. هو أو أميره إقطاى، أما وقد ذهب إليها بعد التنفيذ.. فقد وجدها غير متأثرة بما حدث إلا بقدر ما يضفيه الموت حوله من رهبة.

شجر الدر اطنبت فى وصف شجاعته. وابلغته بأنـــــها ستكلف الرواة بأن يذكروا بأن "الملك المعظـــم" دبــر مؤامرة لقتل أمراء مماليك الملك الصالح، وهم أبطــال معركة المنصورة، لينصب أمراء جدد أتى بهم معـــــه من الشام. لتصير مصر تابعة للشام.. وأن مـــا حـــدث جاء عرضا، فإن الدفاع الشرعى عن النفـــس تطلـــب الكر، والفر، إذ أن البداية ستكون عندمـــا زار الملـــك المعظم الملك لويس، وخلع عليه خلعة، وهدايا متـــآمرا مع الصليبيين ليعطل رحيلهم عن الديار الاسلامية. مما أثار الأمراء.. وأنك يا بيبرس كنت فى حالة دفاع.. هو الذى بدأ بالتخلص من بطل معركة القصر. اســـتدعاك إلى جناحه وأمر مماليكه بقتلك، لكنك يا بيبرس أفلـــت من الموت باعجوبة، وعندما طاردوك قبل أن تكشـــف سر تأمرهم. المماليك دافعوا عنك.. فغرق الجانى فـــى النهر..

" وذلك من ارادة الله العلى القدير! "

بدا بيبرس مندهشا من تراكيب الحكايات. جزء حقيقـــى وجزء غير حقيقى، لتبدو "الحكايـــة" قابلـــة للصـــدق وخاضعة للمنطق.

وقد اخفته شجر الدر فى مكان آمن لا يؤمه إلا حرسها الخاص والأمناء على اسرارها، وكانت من حين لأخـــر تزوره وتدير معه الأحاديث.

بينت له أن "القوى" التى بيد أمراء المماليك أصبحـــت متوازنه بصورة حساسة، ولم يعد إقطاى هـــو أقـــوى أمراء المماليك، كما أن "أيبك" لن يتفوق على إقطـــاى

"وقد سيطرت على سنقر وبلبان، لا يأتيان شيئا إلا بعد أن يستشيرانى، أنهما معى حتى وأننى إذا ملـت إلـى احدى القوى، أمكن لتلك القوة أن تتفوق على الجميع".

كان كل ما يهم بيبرس أن لا يخرج من المولد خـالى الوفاض.والدولة الفاطمية كانت قد أكثرت من الموالد.. بات يأمل فى "خُرج" من الحلوى، طمأنته شـجر الـدر بأنها تعتبره منذ لجأ لها . "أميرا" لـه كافـة حقـوق الأمراء القدامى، وسوف تعضده لو أنه اسـتمر فـى الولاء لها.

الرأى الذى ساد أن يتم تنصيب طفل من أطفال الأسرة الأيوبية، يكون إقطاى اتابكا له، ذلك الرأى أعيد النظر فيه.بدأت مناقشته من جديد. ووجـد أن ذلـك يفتـح الطريق لملوك بنى أيوب فى زيارة القلعة والمكـوث بها. وحجز عدد من الوظائف فى بـر مصـر لـهم. والأمر برمته سيبدوا خداعا، إن لم ينكشف فى الأيـام الأولى.. سينكشف فى الأيام التالية..

ثم كان هناك تساؤلا خطيرا.

– لماذا فارس الدين إقطاى.. أتابكا..، لماذا لا يكـون بيبرس هو الاتابك؟!

والغرض من إلقاء هذا السؤال بتلك الصيغة، أن يتـم التمهيد ليحل أيبك " العاقل الرزين" بـدلا مـن قـاتل الملك، ومدبر المؤامرة ضد الملك!لقد بدأ حزب شـجر الدر.. يحرك الأمور فى رفق لتنتهى إلى صالحه..!

(١٦)
ولادة قيصرية لسلطنة المماليك

▭ **إقطاى** يعزل "الملك المعز أيبك" قبل أن يثبت أقدامه فى عرش مصر، وشجر الدر تستخدم حنكتها السياسية لتبعد إقطاى عن هدفه!

وحتى يخرج أمراء المماليك- بالسرعة الواجبة- من أزمة المنافسة التى اشتدت بينهم. ارتأوا، ولو بصفة مؤقتة.. ضرورة الاتفاق على أن تتبوأ "شجر الدر" عرش مصر كسلطانة نصف أيوبية بصفتها أرملة الملك الراحل "الصالح نجم الدين أيوب" وهى أيضا نصف مملوكية، فلن تغدر بهم، إذا ما كانوا عضدها وقوتها.

واذا ما تجمع الأيوبيين ضدها، أمكن لأمراء المماليك ردع الأيوبيين ونزع الممالك والأمارات التى بيدهم فى الشام. ويتولاها أمراء المماليك هناك بصفتهم وكلاء لعرش مصر.

ولأن ثمة حلف قائم بين شجر الدر والأمير عز الدين أيبك، فقد اختارته "مقدما للعسكر" وفاز بموافقة سيف الدين سنقر، وشمس الدين بلبان الرشيدى.. لكن فارس الدين إقطاى عارض هذا الاختيار بحجة أن هذه

المرحلة المحاطة بالأخطار تحتاج لأمير قـوى، ورأى أنه الأحق بمنصب "أمير الأمراء" مقدم العسكر.. وأخذ يلمح بأنه صاحب الفضل فى تخليصهم من تورنشـاه.. ولهذا السبب الأخير* أقنعته شجر الدر بـأن اختيـاره كمقدم للعسكر قد يفسر بعكس ما تـم ترويجـه بيـن العامة، بأن الملك المعظم هو الذى بدأ بالخيانة.. عندما رأى إقطاى أن الجميع يستفيدون من وجود أيبك فـى منصب مقدم العسكر لاذ بالصمت حتى لا يشق وحـدة الصف. لكنه كان لا يترك مناسبة حتى يثبت فيها بأنه الأمير الأقوى ومماليكه- مع حزبـه بيـن العامـة- صاروا يلقبونه بالملك الجواد** وهو اللقب الذى سـارع واختاره لنفسه، وفى ظنه أن شجر الدر ستتقوى بـه. ولم يدر أنهم وزعوا قوتهم على أربعة دوائـر حتـى يفوقونه. وهى دوائر تتماس مصالحها معا. وتخشـى اطماعه، فتقاربت بفعل قوته. وقد تتباعد اذا اطمـأنت بأنه لا يسعى ليكون "الملك الجواد" لعرش مصر..

وشجر الدر وبين يديها "الأمـوال" والأمـراء الثلاثة. كل منهم يخشى بأسه، فيتقوى بالآخرين- معـا - يأمنون انقلابه عليهم ويفوقونه قوة.

خطب المشايخ والأئمة والعلماء علـى منـابر مصر لشجر الدر سلطانة البلاد وملكة العباد** ونقـش اسمها على السكة، كانت الأمور فى السلطنة موكولـه لها، وذلك لمدة ثمانين يوما. وقد احبها الناس. وهـى التى أبدت عطفها على الأهالى والفقراء وأنفقت المـال الكثير لتكسب تأييدهم.. واحبها المماليك، فقد حـافظت

على مزاياهم وضاعفتها. وهم الذين كانوا سيتعرضون لفقد مزاياهم بموت سيدهم. صار البقاء على شجر الدر من أهم أهدافهم. إذ أنه فى هذا البقاء عمر جديد يمتد لهم فى المناصب والاستمتاع بالمزايا. يؤجل نزولهم إلى أن يكونوا قرانيص وأجناد حلقة!

لكن موقف الأمير فارس الدين إقطاى المعارض.. وعدم قبول أمراء البيت الأيوبى فى الشام ومصر لانتقال الحكم إلى المماليك باسم "قنطرتهم" شجر الدر، وهى الجارية التركية التى نشأت على مثالهم. ضاعف من عبء الأحوال، خاصة موقف الملك الناصر صاحب الشام- وهو ابن حفيد صلاح الدين الأيوبى- المجاهد الكبير- ولم يزل للأيوبيين منزلة عظيمة فى نفوس الناس، وقد هبت ريح المغول بجوارهم، أطاحت بدولة الخوارزميين، فانكسر حاجز السد ليندفع جحافل من المغول والتتار نحو بغداد•• وقد أعد الملك الناصر عدته لغزو مصر واستعادتها من المماليك البحرية، أرسل الرسل لاستمالة الأمراء والأعيان والمشايخ والقبائل فى مصر. ولابد وأن قطاعا وافق على حضوره.

• • •

•• كان موقف الخليفة العباسى فى بغداد يتسم بالاستياء والسخرية لتولى أمر المسلمين فى مصر جارية تركية. فقد أرسل إلى أمراء مصر وشيوخها يقول متهكما:

"اذا كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجلا من عندنا.."

والعادة أن يحكم المسلمين الرجال الأصحاء، فلم يتقبل الأعيان والشيوخ حكم "أمرأة" وإن لم يعلنو ذلك. والتحالف قائم بين أمراء المماليك وشجر الدر دون إقطاى. فى ذلك الوقت طمع مقدم العسكر أيبك فى أن يأول اليه عرش مصر. لكن عندما ناقش العلماء مع الأمراء هذه المسألة. اقترح بعضهم حلا يرضى شجر الدر المحبوبة. ويتفق مع القواعد المعتادة فى الحكم. بأن تتزوج السلطانة شجر الدر من أمير كبير وتتنازل له عن العرش. وهى بذلك ستشاركه الحكم كزوجة.

منحت شجر الدر فرصة الاختيار لواحد من الأمراء الأربعة الكبار.. ومرة أخرى لاحت الفرصة لإقطاى. لكنه كان يعرف بأنه لن يوافق مزاج شجر الدر.. فلم يعرض نفسه للإهانة. عندما طلبت منه أن يحضر اليها، أرسل لها بأنها تعرفه حق المعرفة، وتعرف أعماله العظيمة التى قدمها فى معركة المنصورة، وما قام به عقب تحقيق النصر وأنه هو الذى أعاد للماليك الروح، عندما خطط الخطة المجنونة وقام بتنفيذها.. وأن لولا سيفه ورجاله ما كان سيصل اليها العرش..

وعندما أصرت شجر الدرعلى اللقاء به، ذهب وهو يصحب كبرياءه أمامه، لم ينحن، الأخرون عاملوها كملكة وإقطاى عاملها كزميلة من المفروض

أن تقدر له أعماله وانجازاته، ولما سألته لماذا لم تنحن؟ قال:

- يا سيدتى أنا الرجل الذى جاء ليتزوج بك. اذا انحنيت لك فإن ذلك يخالف الشرع. والمرأة المسلمة هى التى تنحنى لزوجها.

ثم أخذ يذكرها بما جاء فى القرآن الكريم من أن الرجال قوامون على النساء..

وعندما قالت له:

- أتيت لتفسد فرصتك يا إقطاى..

قال لها:

- فرصتى فسدت منذ اجتمعت أنت وبقية الأمراء ضدى. خوفا من قوتى. فى وقت، البلد كانت تحتاج لهذه القوة. بينما أنت تفضلين لنفسك زوجا مطيعا يحصل منك على الأمر باللقاء معك فى الفراش.

كظمت غيظها فلم يبد الغضب على شجر الدر. كانت فى الواقع معجبة بقوة إقطاى. لكن الصعود إلى عرش الأيوبيين كان يحتاج منها إلى تضحيات جسيمة فقالت:

- يا فارس الدين إقطاى. لو لم تكن قويا جدا. ومتكبرا جدا لصرت زوجتك التى تهدهدك.. ولصعدت إلى هذا العرش..

نظر إقطاى فى عينيها وابتسم وهو يغمغم:

- أنه "المسالم" أيبك.. اليس كذلك؟ أكاد اتبين اختيارك.

ثم صاح فيها وهو يشير إليها بأصبعه.

– احذرك. أنه ذئب يخفى مخالبه. ثعلب ماكر، أنه لا يختلف عنى الإ فى أنه غير صريح. انا واضح كما ترين ياسيدتى.. ما أرغب فيه أعلنه.

فقالت شجر الدر وهى توليه ظهرها:

– كان يجب أن تتنازل عن كبرياءك يا إقطاى.تتنازل قليلاً أمام سلطانة البلاد..

دب إقطاى بيده على صدره وقال:

– انا الذى جعلتك تصعدين إلى هذا العرش، ردية إلى.. وستفخرين بأنك زوجة "الملك الجواد"

• • •

مالت شجر الدر إلى المسالم أيبك، وأبدت رغبتها فى الزواج منه.. وهنا جاهر اقطاى وأعلن معارضته. وصار يتصرف فى البلاد على أساس أنه "الملك" يتحرش بعز الدين أيبك لكى يتنازله بقواته. لاحت نزر الحرب بين المماليك، فعقدت الاجتماعات، وتحركت الوساطات نحو حل آخر يرضى الحزبين المتنازعين.

لكن عز الدين أيبك بدا غاضبا وثائرا ضد تصرفات إقطاى وجمعه للضرائب دون وجه حق واستيلاء مماليكه على القلاع ونواصى الطرق.

كان لابد وأن يتصدى أيبك بالقوة لإقطاى، لكن الأمراء المتحالفين معه نصحوه بأن ذلك هو ميدان إقطاى ومسعاه لندخل معه فى معركة. قد تكون وبالا على المماليك الصالحية جميعا.

ومع ذلك فقد أعلن أيبك نفسه حاكما للبلاد باسم "الملك المعز" عز الدين أيبك بن عبد الله الصالحى النجمى. فازدادت تصرفات إقطاى تحديا.

شجر الدر رأت أن يحزم "الملك المعز" أمره فى عمل يخلص البلاد من الفوضى.. وخاصة وأن قوات "الملك الناصر" قد تجمعت وبدأ زحفها نحو مصر..

• • •

لم يوافق "الملك المعز" على ما تقترحه شجر الدر تلميحا وليس تصيريحا، بأن يرسل من يقتل إقطاى. شجر الدر كانت تميل إلى فعل خطير يوقف الفوضى فى البلاد. ضرورة التخلص من إقطاى. ولكن قوة مماليكه كانت البلاد فى أشد الحاجة إليها. والأخبار تأتى بأن حشودا كبيرة حشدها الأيوبيون الذين توحدوا أمام فقدهم لعرش مصر.

• • •

كانت سلطنة "الملك المعز" فى ربيع الأخر عام ٦٤٨هـ اغسطس ١٢٥٠م ولم تمض على سلطنته "خمسة أيام" حتى بدأت الاجتماعات الكبرى ووساطات العلماء تعقد، بأن يتقابل الأمراء المتنازعين فى منتصف الطريق ليلتئم الخلاف وتصفو الأجواء بينهما، وإلا انكسرت جرة اللبن، وضاع جهدهم وجهادهم فى المنصورة!

والملك الناصركان يقود ملوك وأمراء بنى أيوب فى موقف .. لم يحدث من قبل.. ولم تزل لهم

مكانتهم فى "المحروسة" ولهم منزلتهم فى قلوب الأهالى من كافة الطوائف، هؤلاء الذين لا يقتنعون بأن يحكموا بواسطة "العبيد" دون وجود لسيد يوجههم.

وقد شاعت الإشاعات وتحركت القوى ضد ما جاء به المماليك الصالحية من تجاوزات لا يقرها الشرع، فقد يتحمل الناس الكثير من العنت والفقر وأن يستمتع المماليك بمحاصيل حقولهم وناتج صناعاتهم وثرواتهم. لكن لن يتحمل الناس أن تخترق عقيدتهم وتداس معتقداتهم!

وفوجئ أمراء المماليك بإقطاى يطلب تنفيذ الاتفاق المعقود بين المماليك، بأن يكون المُلك من بنى أيوب، والأتابك له من المماليك.. وبذلك تسحب من ملوك بنى أيوب الثائرين فى الشام.. تلك الحجة، التى تجد صدى عند جمهور المسلمين.

وأيد هذا الاتجاه شمس الدين بلبان الرشيدى. وسيف الدين سنقر الرومى، وهما أمراء لهما مماليكهما. وفى هذا الاجتماع أمكن لإقطاى أن يعزل شجر الدر والملك المعز فى ناحية. وتمنى لو ان شجر الدر تمسكت بمعارضتها. أو تمسك عز الدين أيبك بلقبه ومنصبه الجديد.. فى هذه الحالة، القوة العظمى فى يد إقطاى ومماليك عز الدين أيبك ليس لها حليف، ولن تستطيع التغلب على قوة الأمراء الثلاثة فسوف يكسبها لنفسه، وقد أدركت شجر الدر لعبة إقطاى الجديدة، تدخلت بحنكتها وسألت:

- يعنى أنكم.. تريدون الأمير عز الدين أيبك "أتابكا" وليس سلطانا؟

فوافق سنقر وبلبان على ذلك.. على أساس أنه نفس الرأى القديم الذى لن يثير الجمهور ضد المماليك. وضغطت شجر الدر على يد عز الدين أيبك أن يهدأ فقد حصلت له على منصب الأتابك بعد أن لاح لإقطاى أنه سيفوز به، وبأنتقال بلبان وسنقر إلى صفه مرة أخرى. وأمام علماء البلاد تمت موافقة الملك المعز على أن يكون أتابكا بما فى ذلك من تنازل وتضحية منه، طلبا للحلول الوسطى. وكسبت شجر الدر معركتها بحنكتها. والأمر لن يعدو إلا تبديلات طفيفة فى الأسماء، لكن المال والنفوذ والسلطة ستكون فى يد زوجها، ويعنى ذلك أنها الشريكة القوية التى تحسم المواضيع وتعقلها.

وبذلك التصرف سيهدأ اعيان البلاد وخليفة المسلمين فى بغداد، وقد يحبط الملك الناصر.. كما سيجد ذلك صدى طيبافى نفوس الناس بمصر، فثمة "سيد أيوبى" سوف، يوجه المماليك ويتسيدهم.. وعليهم تذكر بطولاتهم فى "المنصورة" دون شائبة تشوبها.

• • •

وقع الاختيار على الطفل "موسى" بن الملك الناصر يوسف بن الملك مسعود بن الملك الكامل ابن الملك العادل، شقيق الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى" وسلطنوه باسم "الملك الأشرف موسى" وهو طفل صغير السن" خطب الخطباء باسمه من فوق

المنابر. على أن يأتى أسم "عز الديـن أيبـك" بعـده كأتابك "وصى".. فهدأت الأوضاع الملتهبة إلى حيـن. لكن المشاكل عادت تثار أمام الأتابك عز الدين عندمـا كان الخطباء من على منابرهم. يكيلون الدعاء له، لكى يقوم بصد المعتدين المرافقين للملك الناصر، صـاحب الشام، حتى يبطـل الله مقصـده فـى غـزو مصـر المحروسة..

أما وقد عبرت قوات الملـك النـاصر أرض فلسطين،وبدأت تحتشد على حـدود مصـر الشـرقية، وتتجمع فى غـزة . فقد بات على الأتابك عز الدين أيبك، أن يجهز مماليكه.ويخرج لملاقاة هـذا الملـك الغاضب الذى يتوعد الممـاليك الصالحيـة بالعقـاب الشديد، ويذكرهم على انـهم "عبيـد" دنسـوا الشـرع والعادات.

وتقاعس إقطاى عن معاونة عز الدين أيبك كما تراخى الأمراء الآخرون . فأسقط فى يد أيبـك.. وبات أى قرار يتخذه.. هو قرار خطير. قد يدفع ثمنـه غاليا.. إذ كيف سيخرج بقواته لملاقاة الملك النـاصر خارج العاصمة،ويترك إقطاى بكامل قواته بداخلها؟!

(١٧)
سيف ينتمى لصاحبه

▭ **تحرك** جيش الملك الناصر صاحب الشام نحـــو مصر، جمع عددا كبيرا من الطامعين فى المنـــاصب والنفوذ، فالمشهور عن مصر انها "البقرة الحلـــوب". مهما شربوا من لبناتها فهى معطاءة.. والملك النـــاصر فى حربة، معضد بالشرعية يقوم المعوج، الذى أتـــاة المماليك الصالحية بغرورهم وكسرهم للعوائد.

ومازال لآل البيت الأيوبى فى نفوس جمـــهور المسلمين مكانة واعزاز، ولم يكن للممـــاليك قاعدتـــهم التى أسسوها، إلا ما استمالته شجر الدر فى ســـلطنتها التى لم تتعد الثلاثة شهور قمرية. ثم حـــدث الضغـط عليها حتى تنازلت..

واذا ما صعد عز الدين أيبك إلى عرش مصـــر بأسم "الملك المعز" لم يجد ذلك قبـــولا مـــن جمـــهور العلماء والأعيان والأهالى. وحتى من أمراء الممـــاليك أنفسهم، فأنزلوه إلى درجـــة الوصـــى "أتـــابك" لذلـــك الأشرف موسى الطفل. والخطـــر يحـــدق بالممـــاليك الصالحية عموما، فقد تقاعس الأمـــير فـــارس الديـــن إقطاى عن المساهمة فى صد قوات الملـــك النـــاصر. ورأت شجر الدر أن خروج أيبك بمماليكه من "مصـــر" لملاقاة قوات الملك الناصر دون حسم لتصرفات الأمير

إقطاى. كمن يسلم مصر - بل العرش - إلــى إقطــاى ويذهب هو للموت. اذا لم ينهزم هزيمة كاملة، فسيأتى فى قوات ضعيفة منهوكة يمكن القضاء عليها فى جولة واحدة..

لذا فإن شجر الدر أصرت بأن يتفرغ عز الدين أيبك قليلا وهو المشغول بأعداد مماليكه، ويجتمع بــها لأمر له أهميته القصوى!

•••

عندما استمع عز الدين أيبك لمقترحات شـــجر الدر - ومع تغليفها للمقترحات فى الحرير السندسى - فقد رأى بأنها مقترحات بشعة. هاله أن شجر الــدر تدبــر مؤامرة لقتل إقطاى والأستلاء على مماليكه فى ذلـــك الوقت العصيب، والبلاد يحيق بها الخطر. اعـــترض أيبك بداية على مبدأ قتل أمراء المماليك. وحجتـــه أن ذلك يفتح الباب الخطير، فالموت اذا دخل بين جماعـــة كحل سهل. قد يستسهله الجميع، فيأتى على الأخضـــر واليابس. البطال والنافع..حاول أن يدفعها بـــأن تفكـــر فيما يمكن أن يوفق ويقرب بينه وبين إقطاى. وأوضـــح لها بأن الناس تخشى بأس المماليك الصالحية لوحدتهم، فإذا تقاتلوا فيما بينهم.. ماذا يتبق لهم؟!

وقالت له شجر الدر متأسية:

- ياعزيزى أيبك، انت رجل مثالى تمتلـــئ بالمبـــادئ السامية. ولكن ذلك لا يصلح فى غابة تمتلئ بـــالوحوش الكاسرة.. طيبة قلبك وترددك قد يأتيان بكارثه، أدفع انا ثمنها. انا التى كنت سلطانة هذه البلاد لمدة قصـــيرة.

وأنت كنت "ملك" هذه البلاد لمدة قصيرة. نحن سويا تذوقنا هذا العرش.. والعروش لها حلولها الحاسمة للمشاكل التى تصادفها!

•••

كان عز الدين أيبك قد أصم أذنيه. هو يعرف بأن حديث شجر الدر الشيق قد يقوده إلى غرضها النهائى الذى لم يوافق عليه بداية.

وعندما وجدت انه لا طائل من لفها ودورانها هدأت وابتسمت فى وجهة ولمست جبهته.. وجعلته برهة فى أحضانها.. ثم أطلقته لتقول:

– عزيزى أيبك.. دعنى أصرف لك هذا الأمر.. وأحل لك هذه العقدة التى قد تعقد المسأله كلها.. وثق فى مواهب شجر الدر.. فقط.. ارسل لى قائد مماليكك.. قطز.. يأتى بقوة مناسبة لحراسة القلعة والقصر.. والمداخل والمخارج..

•••

ومع أن هذا الطلب الذى تطلبه منه يعنى بأن شجر الدر ستأتى عملا خطيرا، كان عز الدين أيبك عصبيا وقد حصره إقطاى فى ركن وضغط عليه. يأمل فى أى منفذ يؤدى إلى نجاح يتحقق، حتى يفلت من المازق الذى وجد نفسه فيه مضغوطا. وكان أمامه الكثير من الأعمال فى تجهيز مماليكه، وإعداد أجناد الحلقة، وجمع المال اللازم، وشحذ الأسلحة، وتوضيب الدواب للزحف وملاقاة الملك الغازى.. الذى باتت قواته

تتحرك داخل الأراضى المصرية بعد أن عسكرت أياما فى "غزة"..

"فليدع زوجته شجر الدر تحل له هذه المسـألة المعقدة مع إقطاى.. هو على كل حال أبدى إعتراضه، ويعتبر أنه سحب يديه بعيداً عن دماء زميلـه.. ومـع احساسه بالقلق، كان ينبه على "قطز" بأن يحرص على تنفيذ أوامر شجر الدر كما يجب. وأن يصحـب معـه القوة اللازمة من المماليك، التـى يتطلبـها الموقـف، وعندما سأل قطز، ليحصل على تفسير يمهد له ما هـو مقدم عليه؟ أحاله الى شجر الدر..

وقطز رأى أن الأمر مشترك بينهما. ما ستراه شجر الدر، وافق عليه زوجها مقدماً!

***

قامت شجر الدر باستدعاء الأمير بيبرس فـى نفس الوقت الذى تلقى أمرا من إقطاى بأن يتقاعس عن مصاحبة الأتابك عز الدين أيبك لصـد جيـش الملـك الناصر.. وظن بيبرس أن استدعاء شجر الدرله سوف يدور حول استمالته لكى يستجيب لمعاونة "أيبك" فـى حربه، لقوات الملـك النـاصر، صـاحب الشـام. أو ستوسطه لإقناع استاذه إقطاى حتى يتحول عن موقفـه المتعنت وتبين له الأخطـار التـى تحيـق بالممـاليك الصالحية جميعا دون تفرقة. بيبرس اذا ما لمح لإقطاى بهذه الأفكار.. نظر اليه إقطاى طويلا، ثم هز رأسه بما يعنى أنه يدرك هذه "الأخطار" جيـدا.. ويعمـل لـها حساباتها الخاصة!

شجر الدر استقبلت الأمير بيبرس فى ترحـاب. وبيبرس يذكر تماما بأنها اخفته وكشفت لــه مؤامـرة إقطاى ضده لقتله. هذه المؤامرة التى نفاهـا إقطـاى تماما. وقد بدل المملوك أقواله بأنه جاء إلـى الحريـم لأجل اللقاء بجارية يعشقها، واضطر أن يؤلف حكايـة تنقذ رأسه، لم يكن بيبرس مقتنعـا بتلـك الأكـاذيب، والأحوال تبدلت سريعا بسلطنة شجر الدر التى طلبـت منه ان يستمر مع إقطاى على اعتبار أنه رجلها الـذى يقود مماليكه. كان بيبرس قد ارتاح بإبعاد إقطاى عـن العرش. بيبرس أمن على نفسه، مع ما يمثله ذلك مـن خسائر.

كان بيبرس- فى الواقـع- ينتظـر اسـتقرار الأحوال وتنفيذ القرار السلطانى بإقطاعياته ووظائفـه.. وللحظة.. ظن أن الوقت قد حـان، فـهم يسـتميلونه ليعاون الأتابك فى حربة. لكنه لا يملك القوة المؤثـرة. والمماليك الذى يترأسهم هم مماليك إقطاى، يدينون له.. ولا يزال حتى ساعته مجرد زميل لـهم، لا يملـك إلا الشهرة والمبالغة فى بطولاته، من بـاب رفـع شـأن إقطاى نفسه على بقية الأمراء الكبار. كان بيبرس فـى هذا اللقاء متلهفا أن يعرف سـبب الاسـتدعاء علـى عجل..

• • •

ابلغت شجر الدر بيبرس بما لديها من أخبـار حول حملة الأيوبيين على مصر "اعتبر بيبرس ذلـك مقدمه" ثم انعطفت لتبلغ بيبرس بأن من ضمن أهـداف

الملك الناصر الذى سيغزو البلاد الثأر من قاتل الملـك المعظم تورنشاه.وممن يضفى عليه حمايته "هنا جديـد مشكوك فى صحته" وعندما لم يبد بيـبرس انزعاجـا، أشارت إلى سيفه وقالت:

- سيفك يا أمير بيبرس علق به دم الملك فرانـس الصليبى، وعلق به دم الملك المعظم تورنشاه المسـلم.. دعنى اسألك "إلى أى ملة ينتمى هذا السيف؟!

كسر الأمير بيبرس بعينه المنقوطة،ونظر إليـها بالعين السليمة وابتسم فى هدوء وقال:

- أنه ينتمى للمماليك الصالحية ياسيدتى.. وقد صـارت لهم ملتهم وخصوصياتهم!

ابتهجت شجر الدر. وكانت منذ أن صعدت إلى عرش السلطنه تتصرف كسلطانة.. ولا تقابل زوارهـا الا فى قاعة العرش، قد تقف أو تتمشى.. ولكنـها اذا جلست، جلست على ذلك المقعد العالى المحاط بالستائر والزخارف. جعلته يقترب من العرش وسألته:

- واذا كان الأمر سيذهب من بين أيدينـا يـا "أمـير بيبرس" هل يدافع سيفك عن مصالح الأمراء الصالحيـة حقا؟

تملى بيبرس كرسى العرش برهة ثم راح يتملى أناقتها كأمرأة جميلة وقال:

- وهل تشكين فى ذلك ياسيدتى. سيبقى سيفى دائما فى خدمتك. ولكن إذا ما تم تنفيذ القرار السلطانى وصـار لى جماعة من مماليكى،فان سيفى سيكون أقوى وأشـد، أنه الآن سيف لشخص واحد مع من أقودهم ولا أملكـهم..

مهما طلع أو نزل فهو سيف واحد. اذا تكاثرت على شجاعته مجموعة من السيوف الجبانة ارهقته وخذلته.

بيبرس لاينى يذكرها بالوعود والقرارات المقطوعة له.

قالت شجر الدرفى شئ من الاسف:

– الأحداث التى توالت شغلتنا عنك يا أمير بيبرس، سوف تنل حقك فى الأقطاعيات والوظائف كما تأمل تماما.

كان بيبرس يرى أن السلطانة شجر الدر لم تطلبه من أجل ذلك فقط.. فقد بدأ يشكرها ويقدم لها آيات العرفان، فقالت:

– ليس بالكلام يا أمير بيبرس. إذا وددت أن ترد جميلى لك لابد وأن يكون ذلك عمليا.. أريدك أن تثبت لى بأننى ادخرت لنفسى شيئا نافعا. عندما استدعيه لا يخذلنى.

توقع بيبرس بأنها ستدفع به لمعونة زوجها عز الدين أيبك فقال:

– لقد طلب منى الأمير إقطاى بأن ألتزم حدودى. وانا قائد مماليكه لا يحق لى بأن أحيد عما يراه. ومع ذلك فقد بينت له بأنّ انتصار الملك الناصر صاحب الشام على عز الدين أيبك سيسقطنا جميعا فى حبائله.

– وماذا كان رد إقطاى؟

– أبلغنى بأن نترك الأثنان حتى يضعفان ومن يفوز منهما يسهل ازاحته بقليل من الجهد.. فيكون الطريق أمام "الملك الجواد" مفتوحا..

- إلا ترى أن فى ذلك مؤامرة محفوفة بالأخطار؟
- كل ما استطيع تقديمه يامولاتى هـو جـهادى مـع "الأتابك" عز الدين أيبك، ولعلى أصل إلى رأس الملـك الناصر فأقطع رأس الحية.

اقتربت شجر الدر من بيبرس حتى بدت وكأنها فى احضانه، وهمست فى اذنه:
- رأس الحية هنا يا أمير بيبرس.. فى أمكانك أن ترث كل ما تتقوى به وتأمل فيه.

عندما أخذته الدهشة وراح يفكر فيما تقولـه.. أخذت تفح فى اذنه:
- اقتل إقطاى يا بيبرس.. أنه البادئ بالتـآمر عليـك، والآن يتآمر علينا جميعا.. اطماعه ليس لـها حـدود، عندما تسلطنا كمماليك صالحية أفسد علينا الأمر وأصر بأن يأتى بواحد من بنى أيوب.. والأمر كان يمكـن أن يستتب لنا. هنا خير كثير، يكفينا جميعـا.. يريـد أن يستحوز عليه وحده.. اذا ملك الفرصة.. لن يتردد فـى قطع رؤوسنا جميعا..

هلع بيبرس قليلا.. ثم تماسك.. وقال:
- إذا طلب الأتابك عز الدين ذلك.. ساقوم بالعمل.

نظرت إليه شجر الدر مليا ثم قالت:
- تعلم أن عز الدين أيبك لن يطلب منك هذا الطلـب مطلقا، انا الذى اطالبك بهذا العمل.

وبعد قليل من الوجوم.. قال بيبرس:
- أتدرين يا سيدتى بأن دم الملك المعظم أفسد بطولتـى فى المنصورة، وانا الذى قطعت رأس الملك الصليبـى.

ماذا سيكون موقفى وانا قاتل أميرى إقطاى.. الا اننى ألب الجميع على قتل بيبرس نفسه.. ويصير قاتلى كاسبا للدنيا والدين.

– أنت بذلك ترفض طلبى يا بيبرس؟

– قتل إقطاى ليس مشكلة، قد يقوم به خادم قليل الشأن، لكن إذا ما قمت انا به، لن أرث من تركته شيئا، هناك أخطاء لا تغتفر يا سيدتى.. لماذا أنا بالذات؟!

– حسنا، يمكنك أن تنس ما دار بيننا وتتصرف.

واستدار بيبرس على الفور وانصرف. ووقفت شجر الدر تلاحقه بنظراتها حتى خرج من الباب البعيد رفت على شفتيها ابتسامة وقد ارتاحت اساريرها، فقد حصلت على موافقة بيبرس الضمنية على قتل إقطاى. ضمنت عدم هياج مماليكه.. وأن يقوم بيبرس بالامساك بزمام الأمور بعد قتلة، وهو ما كانت تسعى اليه فى الأساس..!

•••

عندما كان بيبرس يغادر الجناح السلطانى شاهد قطز يدخل.. اندهش كل منهما لرؤية الآخر. وكل منهما كان يخفى علاقته بزميله لتنازع الكبار.. كما كانا يخفيان ارتباطهما بشجر الدر.. فى هذه اللحظة أيقن بيبرس بأن شجر الدر– داهية– ولن تعدم وسيلة لكى تتخلص من "إقطاى" الذى تمادى واظهر نفسه بأنه "الملك الجواد" الذى ينتظره عرش مصر. بادر قطز.. بيبرس بالسؤال:

- أراك قادماً من داخل القصر يا أمير بيبرس؟

قال بيبرس:

- لقد أقنعتنى السلطانة شجر الدر بأن انضم للأتابك بقواتى المتواضعة.. يبدو أن الملك الناصر قد اقترب من ديارنا بشدة.

هلل قطز.. وقال:

- هذا يسعدنا كثيرا يا بيبرس. لكن ذلك يتعارض ورغبة الملك الجواد!

ضحك بيبرس من انفه وقال:

- إن ذلك لن يستمر طويلاً يا صاحبى. وبين يوم وليلة يغير الله من حال إلى حال

• • •

وقف قطز يعتصر ذقنه بأصابع يديه متفكرا فيما وراء كلام بيبرس. وكل منهما ذهب فى اتجاه مضاد. وكل منهما كان يصحب الآخر معه فى نفس الاتجاه!

(١٨)
بين السياسة والقوة
يفوز الأكثر مثابرة

حوصر عز الدين أيبك بالإحباط. الأخطار الجسيمة باتت تحدق به، تهدل وهو يقول:
- كل ما أملكه أنى أثق فى الأمير قطز، سأتركه مع جملة من المماليك يحرسون القلعة ويغلقون المسالك إليها.. مع أنى سأكون فى أشد الحاجة له ولمن معه من المماليك.

ضحكت شجر الدر من أنفها وقالت:
- هذا كله رائع يا زوجى العزيز.. هذا كله ينم عن روحك المسالمة.. هذه الروح التى جعلتنى زوجة لك.. أنك تقدر الأمور وتحللها ولا تحيد عن الأصول المتبعة:

"ثم قالت فى مرارة"
لكن أنا وأنت لا يمكن أن نصل إلى ما يفكر فيه إقطاى.. أطماع هذا الرجل لن تتوقف عند الحصول لنفسه على عرش مصر، أنه يسعى لإزلالنا وإجبارنا على الركوع.. ها هو يعيش بيننا بصفته الملك الجواد.. لكن ما يسعى إليه حقا هو أن لا يكون فى مصر سلطان غيره.. هل تدرك ما يفكر فيه إقطاى

ياعزيزى؟ أم أن إنشغالك بالمسائل العامة التى أغرقت نفسك فيها، صرفتك عن أهداف إقطاى الخفية؟!

•••

حدس عز الدين أيبك أن شجر الدر تتقرب إليه كزوجة وتحثه للفعل كسلطانة، فقال بعد قليل من التفكير:

– سبق وابلغتك بإنى لا استطيع فى هذا الوقت الحرج أن أعتقل إقطاى. سوف يسبب لنا مماليكه ارتباكا فى الداخل، ولابد وأنه أعد للأمر عدته واستعد.. فمن يأتى بتلك التصرفات لابد وانه هيأ قواته للنزال.. وأخشى أن يبادر وينضم للملك الناصر.. وموقف باقى الأمراء غامض، وفى النهاية، نظهر أمام الجميع أنا وأنت. المتمردان على الشرع والدين والعادات المتبعة، فيحق للملك الناصر فى حالة انتصاره أن يوقع علينا العقاب الذى يراه..

ظلت شجر الدر تتأمل عز الدين أيبك وهو غير منتبه لها.. ثم قالت:

– لحسن الحظ يا زوجى العزيز أن الذى كلفه إقطاى بقتلك واحد من ابطال معركة المنصورة الأوفياء لى..

اندهش عز الدين أيبك إذ سأل:

– قتلى أنا؟

وانتبه إلى أن شجر الدر انتقلت إلى موضوع آخر، بدا أنه لم يستوعبه.. وعندما أدرك تفاصيله أصيب بالانزعاج.. لكنه وقد علم بزيارة بيبرس لشجر

الدر.. وقد استدعت قطز أيضا، ذلك جعله يربط بين زيارة بيبرس لها وأهداف إقطاى وانقلابه، أخذ يغمغم:
- بيبرس؟! لابد أنه بيبرس؟!
وقال فى نفسه "لعلها شجر الدر التى دبرت لقاء الداخل والخارج من القصر السلطانى.. أن يشاهد قطز بيبرس".
قالت شجر الدر وكأنها تعتذر بأنها حاولت علاج المشكلة المستعصية دون إزعاجه:
- لقد أتى إلى بيبرس واخبرنى بأن إقطاى سيظهر بأنه غير موافق على اشتراك بيبرس فى محاربة الملك الناصر، لكنه فى الواقع سيتركه يحدد موقفه بنفسه وإن شاء يذهب، ولكن بناء على خطة يلتزم بها، ينتهز بيبرس الفرصة ويقتلك اثناء المعركة.. وإذا ما كانت قوتك وقوة الملك الناصر قد أرهقتا يقوم هو بحسم الأمور لصالحه على وعد بأن يجعل من بيبرس "أمير الأمراء" ومقدم لعساكره.
عندما كانت شجر الدر تحكى ما عندها كان عز الدين ينظر فى اتجاه قطز فيراه يهز رأسه بالموافقه وكأنه على علم بما حدث ويحدث.. واذا ما انتهت شجر الدر من اقوالها.. بادر قطز وقال:
- بالفعل شاهدت بيبرس خارجا من مقابلة السلطانة، وقال لى "بين يوم وليلة يبدل الله من حال إلى حال".

•••

جلس عز الدين أيبك مذهولا مما يدبر له فى الخفاء. ابتسمت شجر الدر راضيه عما دبرته لتخرج

أيبك من تلك السلامة النفسية، عندما يميل دائما إلى "المثالية" والتعقل. ولا يحاول اجتياز المغامرة- في نظرها- تكون المغامرة مطلوبة أحيانا. وقد رأت أن التخلص من إقطاى سيعبد نصف الطريق إلى هزيمة الملك الناصر صاحب الشام. ويخلص عرش مصر من اثنين أقوياء ينافسونهما. وواصلت شجر الدر دق الحديد وهو ساخن:

- يا زوجى العزيز، إقطاى لن يحاربك وجها لوجه، هو ليس نبيلا مثلك. إقطاى يرى أنك سلبته عرش مصر. لن يكف عن التآمر ضدك حتى يتخلص منك ومنى. يقتلنا جميعا.. فنحن شركاء.. وهو لا يحترم حق الشركاء مطلقا.

وبدا عز الدين أيبك مسلما لما تراه شجر الدر على أساس أنها وجهة نظرها والتى تتحمل نتائجها. وقد مال إلى طريقتها فى حل المعضلات والمشكلات العاجلة.

•••

كتبت شجر الدر رسالة إلى الأمير فارس الدين إقطاى وارسلتها له مع مخصوص..

"إذا كنت لا تزال ترى نفسك سيدا لقلعة الجبل وأنك الملك الجواد، قابلنى هذا المساء للأهمية. احضر إلى القصر السلطانى. على أساس أنك ستقابل "الأتابك" فهو يستعد للزحف بقواته إلى الشرق لملاقاة الملك الناصر، وقد لا يعود من حربه الخاصة به!!"

وختمت الرسالة بخاتمها السلطانى القديم.

فض اقطاى الرسالة وقرأها فى حضور بيبرس قائد مماليكه. ابتسم فى غرور. لعله اعتقد أن الدنيا تبسمت له أخيرا. ففى الرسالة كثير من الإجابات على الاسئلة التى يثيرها الموقف المعقد.. ويمكن أن تقرأ الرسالة على أكثر من وجه. حدس أن الشقاق قد دب بين أيبك وشجر الدر.. ولابد وأنه يطلب منها الأموال لتجهيز الجيش، وشجر الدر لا يمكن أن تفرط فيما تراه لب قوتها الرئيسة. بينما يرى إقطاى نفسه الآن سيد الموقف بقواته الأقوى وأمواله الأكثر وأنه ليس فى حاجة لما بين يديها. رأى بأن شجر الدر، أخيرا قد لانت وأعترفت بأنه "الأفضل".

•••

الرسالة المختومة بخاتم المُلك القديم تفصح بأنها بدلت موقعها، فليذهب فى رهط من حرسه، ويصعد القلعة وليصحب معه بيبرس. لعل الفرصة تسنح له وينفذ ما طلبه منه. وفكر بأن مماليك أيبك يملأون القلعة.. لأول مرة يفكر فى صوت مسموع، على غير العادة. وبيبرس يستمع إليه ويتصنع عدم المبالاة، فإقطاى لا يحاور إلا إقطاى. ولا يستمع إلا لما يقوله لنفسه.

قام بيبرس مع ثلة من المماليك بصحبته حتى العتبة السلطانية.. دخل إقطاى.. وانتظر بيبرس هناك يتلفت حوله بين الحشود والتجمعات عن شخص يعرفه ثم جلس وقد أسند ظهره إلى الجدران الحجرية الغليظة، لعله فى هذه اللحظات بالذات كان يشاهد بعين

الخيال ما ستأتى به الدقائق القادمة من أحداث. لم يعد الموقف العاجل، يتحمل التأخير و التأجيل أكثر من ذلك و الملك الناصر يواصل جهوده ورسائله وزحفه.

رسالة شجر الدر بطلب أقطاى، أكدت لبيبرس بأن لقاؤه بالسلطانة تم بدون أن يفشى، وإذا ما اختلطت الأمور وتشابكت فقد يختفى بين الطيات أول وآخر الخيط- يكون على طالب الطرف أن يتحلى بالصبر- لكن الصبر فى هذه الحالة سيكون محملا بحمل من الكوابيس والضغوط. عموما بعد قليل سوف يرى إن كان سيصعد نجمه ليكون ثالث الاثنين بلا منازع، أما إذا عاد "إقطاى" ليمارس عليه نفوذه. قد يفكر فى أن يقفز إلى الكفة التى تقول كل الشواهد بأنها الكفة الشرعية، الراجحة، أنه "الملك الناصر". الذى يمكن أن يجعل منه طوق النجاة، ينضم إليه ضمن المماليك الصالحية، لعله يرفعه إلى السماء ليجعل منه قمرا.. يكيد به من لم يفكروا فى الانضمام إليه.. الذين لا يستجيبون لرسائله.

كان بيبرس وهو مستغرق فى أفكاره يقطع بها الانتظار المتوتر وهو جالس بالقرب من عتبة القصر.. يبدو كمن يتسلى بمشاهدة جنود الحلقة يشهلون للسفر. وبينهم أعداداً من مماليك الأتابك عز الدين أيبك.

راح يبحث حوله عن "قطز" وكل من يسأله عن قطز يرد بقوله: كان هنا.. وسيظهر حالا..!

• • •

استقبلت شجر الدر الأمير فارس الدين إقطاى وهى فى أبهى زينتها، عندما تقدم نحوها، كان برفقة أربعة من مماليك شجر الدر العظام، يسيرون خلفه خطوة بخطوة كتشريفة لكبار الزوار. أوصلوه إلى باب القاعة الكبرى. ادخلوه وأغلقوا الباب..

وقفت له شجر الدر عندما ظهر فى أول القاعة.. إقطاى اذا ما دخل القاعة تمهل، وقد أغلق الباب العريض فى ظهره. اخذ يتلفت حوله.. ثم رنا إلى المقعد السلطانى.. مرتفع ومهيب.. نزلت شجر الدر من أجله درجة من درجات السلم العريض.. العرش خلفها مذهبا ومحاطا بالستائر المخملية، يعلوه شعار السلطنة القديم.. النسر الأيوبى الذى لم يتبدل.. نسر صلاح الدين فاردا جناحيه.

راح إقطاى يقترب فى خطوات بطيئة واثقة من المكان الذى تقف فيه شجر الدر، حتى توقف على مسافة أربعة أقدام من الدرج واستمر يتأمل كرسى العرش من فوق كتفها الذى انعقدت عليه عباءة تنسدل خلفها لتكون غلافا للثوب المحبوك على جسمها الأنثوى الناضج. وبدا له أن شجر الدر تزينت بصفة خاصة. ارتدت من أجله الملابس ذات الالوان المبهجة، فى وقت تحاط فيه السلطنة بالأخطار. وأن ذلك يتم على شرفه، كان إقطاى يبتسم لكرسى العرش، وشجر الدر كانت ترحب به وتبادله حالة الترحيب.. ولما كانت شجر الدر قد نزلت درجة من السلالم الخمس فقد

نزلت درجة أخرى اكراما له.. فسارع وصعد درجة وتوقف، ثم صعد أخرى حتى دخل فى مجال عطرها الأخاذ ودائرة فتنتها الأسرة.

هو أيضا كان يرتدى أبهى حلله، تلك الحلل التى لا يظهر بها المماليك الكبار ألا فى المناسبات المهمة، فهم دائما فى لباس الحرب والعمامة معقودة على نصف بيضة صلبة وتحت العباءة زرد مضفور من جلود ونحاس يعطل ولوج السيوف إلى اجسامهم.

قال لها وهو يضحك متفكها ومحذرا:

- يا سيدتى، لن أركع.

قالت له ضاحكة ومتأسية:

- أنك لم تركع لى وأنا سلطانة، أنا الآن زوجة أتابك.. مجرد زوجة وزميلة يهمها مصلحة أمراء المماليك الكبار.

مدت له ذراعها، فصعد الدرجة الأخيرة، جعل ساعده تحت كفها لتتحامل عليه قليلا. ثم تركته واستدارت لتصعد الدرجات التى نزلتها وهو يتبعها.. صار واقفا بالقرب منها. عطرها لم يشغله، قالت له دون أن تنظر اليه وقد أراحت يدها على ساعد كرسى العرش، بينما هو كان لا يزال يتملى ذلك المقعد الذى يملأ عليه جوانحه. قالت شجر الدر:

- هل اناديك بالامير إقطاى.. أم الملك الجواد؟

ملأ إقطاى صدره بالهواء، تلفت حوله فى كبرياء اعتاد عليه، وبيده المرصعة أصابعها بالخواتم ذات

الأحجار الكريمة راح يربت علـــى الســاعد الأخــر للعرش، فإذا بتيار من البهجة يمور فى نفسه، يســرى مسرى الخدر، ينتقل من كرسى العرش إلى عروقــة، ظل يربت على مسند كرسى العرش وينتظر ما ستقوله شجر الدر، وعندما لم تتكلم قال:

– لقد صرنا وحدنا يا سيدتى، هل يمكننـــى أن أســأل سؤالا؟

استدارت شجر الدر نحوه بصدرهـــا.. كــانت تميل برأسها نحوه فى دلال انثوى، وكأنها تمنحه اذنــها ليتكلم.. قال:

– علمت بأن أتابك السلطان، خرج اليوم غاضبا ثائرا.

تنهدت شجر الدر وقالت:

– لا يخفى عليك خافية يا أمير إقطاى. فمن أجل ذلــك أرسلت اليك.. لعلك قد خمنت هذا.

قال إقطاى فى شئ من الغرور:

– افهم من ذلك يا سيدتى أنى ملاذك الأخير؟

قالت شجر الدر وهى تتنهد مسلمة:

– لا أحد ينكر قوتك وبأسك أيها الملك الجــواد. أنــت الذى تنكر علينا قوتنا، وتستكثر علينا مناصبنا.. لذلــك كان تجمعنا ضدك.. ونحن فى الواقع نقدرك ولا نبخس من شأنك، نحن بدونك..

وابتعدت شجر الدر تجر ذيل ثوبـــها الطويــل المحبوك على صدرها. ابتعدت عـــدة خطــوات، ثــم توقفت لتتأمله وهو يقف بجانب كرسى العرش ويــــده تقبض على مسنده. اشارت إلى المقعد وقالت:

– انظر يا أمير إقطاى، من أجل هذا المقعد يحدث ما لا يرضى عنه الإنسان فى الظروف العادية.. أنا لا أخفى عليك. جربت الجلوس عليه، ورأيت كيف يملى علىّ بأشياء لا أرضاها وأنا انسانة عادية.. وجدت نفسى غريبة عن نفسى. ستجلس على هذا المقعد.. وستجد أنك لست أنت بأية حال.

طنت عبارة "ستجلس على هذا المقعد" فى رأسه فأنتشى إقطاى وقال:

– هذا العرش يحتاج لمن هو أقوى منه حتى يتغلب عليه.

عادت شجر الدر وأشارت إلى العرش وقالت:

– فى المرة السابقة طلبت منك الركوع لسلطانة البلاد. فأبيت. لكن فى هذه المرة سأطلب منك طلبا لن ترفضه، بل تتمناه أيها الملك الجواد..

اكتفى إقطاى بأن نقل بصره من تأمل جسمها وانفعالها إلى أن يتأمل كرسى العرش السلطانى..أنها ابرزت مفاتنها، ولكن فتنة ذلك الكرسى أروع.. ولا مانع لديه أن يجمع بين الفتنتين فى أول الطريق "وكما توقعت شجر الدر" كان قد التصق بكرسى العرش عندما سمع شجر الدر تقول له:

– يا أمير إقطاى. تفضل واجلس على كرسى العرش.. هل توافق؟

استدار إقطاى وأخذ يتملى وجة شجر الدر.. انها ترضخ له فى النهاية. كاد أن يلقى على مسامعها بعتاب غير مهذب "ألم أقل لك ذلك من قبل، لو أنك

اطعتنى ما وصلت الأمور للتأزم" وتوقع أنها ستطلب منه فى الخطوة التالية.. أن يقتل أبيك.. وإلاكيف سيخلو الطريق له إلى ذلك المقعد الرهيب. ضرب إقطاى طرفى شاربه بسبابته واستدار، وجلس على كرسى العرش. تشبث بالمسندين وأراح ظهره على مسند المقعد العالى. وللحظات شاهد الأمراء والأعيان والشيوخ والكتبة ورسل الملوك والشعراء والخدم والحشم يملأون الردهة التى تمتد أمامه.. حتى وهو جالس سيكون رأسه أعلى من كل الرؤوس.. الجميع يحنون له رؤوسهم، تركته شجر الدر يستمتع بتلك الأحاسيس التى جربت تيارها يدغدغ الأفئدة، تلك الأحاسيس التى تجتاح من يجلس على كرسى العرش لأول مرة قبل أن تستغرقه المشاكل والأزمات..
وعندما استعاد إقطاى نفسه قال:
- والثمن يا سيدتى، لابد وأن هناك ثمنا، أرجو أن لا يكون باهظا، ويكون فى إمكانى دفعه.. لكن حذار أن يكون ذلك على حساب كرامتى كأمير قوى ورجل..

حاول أن يقوم من فوق المقعد العالى. لكن شجر الدر اقتربت لكى تثبته على العرش. تستبقيه على المقعد. وابتعدت تتأمله ثم قالت:
- أن هذا العرش يليق بك ايها الملك الجواد، واذا ما خيرت بين أن أعود جارية فى معية الملك الناصر الأيوبى.. أو أكون زوجة لملك قوى، فأنت تعرف ماذا سأختار.

وإذا بالملك الجواد يشرئب برأسه في لحظة زهو وقد ملأ صدره بالهواء فصار منتفشا فاردا ذراعيه على المسندين وقد اغمض عينيه وأراح رأسه على ظهر المقعد فى تنهيدة مسكرة.

هنا ستصدر شجر الدر إشارة سريعة لعبد أسود رهيب بشع الوجة، لتنفرج عنه الستائر ويتقدم فى خفة الببر الأسود ويثبت رأس إقطاى بظهر المقعد، وباليد الأخرى القابضة على الخنجر المسلول، يقطع رقبة إقطاى، يذبحه ذبح الشاة.. واذا بالدماء تنبثق فوارة فى إتجاهات مختلفة، يصل رشاشها إلى ثوب شجر الدر تتناثر الدماء قانية على صدرها وساعديها، طالتها رشاشات الدم والعبد الاسود سيبقى مثبتاً إقطاى على المقعد يشل حركته ويكبت انتفاضاته وهو مذبوح حتى يهمد جسده..

شجر الدر لم تتحمل المشهد، فقد فرت هاربة خلف الستائر وتبعها العبد الاسود بعد أن تأكد من موت الأمير.. وتخلو قاعة العرش إلا من الأمير قطاى المذبوح.. جالسا على عرش مصر، وكأنه فى غفوة...

واذا بالمقتول يقوم ويقف.. يترنح وهو ينزل الدرجات الخمس العريضة، يمشى إلى منتصف الردهة السلطانية ثم يتعثر وينكفئ على وجهه مبعثرا على أرضها، فتتدحرج عمامته حتى ترتطم بباب القاعة العريض. الباب الذى يفتحه الحرس، ومن ينتظرون خارج القاعة. فيشاهدون الأمير إقطاى غارقا فى

الدماء.. يذهب أحدهم ويأتى بالأمير بيـبرس فيتنـاول عمامة سيده من فوق البسط.. ثم يقـترب مـن جثتـه ويميل ويغلق له عينيه، وهو يتمثل الغضب والثـورة.
يسأل المماليك الحراس ومن تواجد معهم من الخدم:
– هل شاهد أحدكم قطز؟
فيجيب المماليك:
-لا.. لم نشاهد قطز.. الأمير إقطاى كان بالداخل وحـده مع السلطانة شجر الدر.
ويقول لهم بيبرس:
– أنتم شهود على ما حدث.. ابحثوا عن قطز، أريد أن اعرف أين كان عندما قتل استاذى إقطاى؟!





(١٩)
القتل يأتى بالقتل

▭ **تحققت** نبوءة عز الدين أيبك.. فالقتل لا يـأتى إلا بالقتل، ففى هدوء ينزل بيبرس مع مماليكه من قلعـــه الجبل وفى صحبته جثه سيده الأمير إقطاى. لكن خـبر مقتل الأمير إقطاى سينتشر ســـريعا. وســوف يقــوم الأتابك عز الدين ايبك بالقاء خطبة فى عسكر الحلقـــة ومماليكه، ومن صعد إلى القلعة من الشيوخ والأعيان.. ومن خلال عرضه للخطر الخارجى والأحداث الداخلية التى قد تكون مرسومة فى "حلب" ومنفذة فى القـــاهرة. فقد عرض على مماليك إقطاى أن يطيعوا بيبرس بطل معركة المنصورة. وأنهى كلمته بأن قال:

"دعونا نوقف الملك الناصر ونرده خائبا إلـــى الشام، ثم نرى من الذى قتل الأمير أقطاى".

وأعقب ذلك بأن سمح بصعود حملـــة الأخبـــار الواردة من الشرق إلى المنصة، يصرحون بما لديـــهم من أخبار ويعلنون بأن جيش الملك الناصر تحرك مـن العريش واقترب بشدة من ديارنا..

أخذ "الرواة" يصفون قوات الملـــك النـــاصر وأعدادها وأغراضها. ومع أخبار جيش الناصر ومـــا ينتويه للمماليك، تخففت انفعالات كثيرة كانت متوقعـــه

عقب مقتل إقطاى" ومعظم الحضور كانوا على علـــم بموقف إقطاى من تلك الحرب التى تهدد الجميع..

• • •

انضم معظم مماليك أقطاى لمرافقـــة ممـــاليك الأتابك أيبك حتى يكون لهم نصيب فى الغنـــائم، ولـــم يرحل الأتابك بجيشه من القاهرة حتى رافقـــه الأمـــير سنقر الرومى بمماليكــــه والأمـــير بلبـــان الرشـــيدى بمماليكه. وقد سرت اشاعة بأنهما أرسلا من جهتـــهما رسلا إلى الملك الناصر، ليكون لهما قدم هنـــا وقـــدم هناك. وبقى بيبرس ليشرف على دفن جثمان اســـتاذه ويأخذ فيه العزاء.. على أن يلحق بما تبقى معـــه مـــن مماليك اذا ما تأزمت الأمور. وكان "الأتابك أيبك" قـــد أوصاه بأن لا يغادر القلعة، ولا يـــترك شـــجر الـــدر بحراستها القليلة.. عرضة لأى مؤامـــرة تـــأتى مـــن الداخل.. ولكل أمير حزبه. وحتى للأيوبيين حزبهم من الأهالى!

• • •

•• وسريعا ما وصلت الأخبار بتغلب الأتابك عـــز الدين أيبك على قوات الملك الناصر الذى لم يتوقـــع أن يخرج له المماليك بتلك القوى الموحدة- وهو الذى يعلم مدى التنازع بينهم. وفى ظنه بأن كل الذين اتصلوا به، سيقومون بما كلفهم من مهام..!

وقيل أن الأميرين سنقر وبلبان حاولا الانقـلاب على أيبك اثناء المعركة، فكشفت خيانتهما واجبرهمـــا على الفرار بقلة قليلة من اتباعهما مع المنـــهزم، نحـــو

الشام، وبذلك صادر املاكهما لصالح الأمراء من مماليكه. وقيل أن من دفع بهما إلى تلك الأفعال، ليس هو الملك الناصر، ولكنها السلطانة شجر الدر والهدف قتل "أيبك" فى المعركة ليخلو لها الطريق ليتبوأ بيبرس مكانته المأمولة، ومع أن تلك الأقاويل لم يثبت صحتها. وبعضها أو معظمها اثيرت للوقيعه واضعاف وحدة أمراء المماليك، إلا أن أيبك كان صدره قد امتلأ بالغضب من بيبرس، وشجر الدر، ورأى فيهما قاتلان. وفى ظنه أن من قتل إقطاى هو- بيبرس- حتى يرث مماليكه ووظائفه وحريمه وكل ما يمت له، بتحريض من شجر الدر.

• • •

الواقع أن أيبك- الذى شارك فى التخلص من إقطاى بالصمت.. وذهنه مشغول بحملة الملك الناصر على مصر، فهو اذا ما حقق النصر حاول أن يستعيد "أيبك" المسالم، طاهر الذيل.. وأن يبرئ ساحته من قتل أقطاى، فقد توعد بعقاب ينزل على قتلته، على أثر عودته إلى مصر- وشبهاته جميعها- حامت حول بيبرس" ليس غيره" قاتل الملوك. الملك رايدا فرانس والملك تورنشاه. والملك الجواد..

• • •

أيقن بيبرس أن أيبك لن يسمح له بإرث ضخم من مماليك سيده، بجانب ما عنده، وهو بذلك سيصير خطرا على [أيبك].وشجر الدر "المتهة معه" قد تستخدمه كخنجر يندب فى صدر أيبك.. أو ان أيبك

سيسارع ويتخلص منهما.. لذا آثر أن يصحب مماليكه وما بقى له من مماليك سيده، وما أمكن جمعه من أموال ونفائس ويغادر مصر.. إلى الشام.. للانضمام إلى الأيوبيين هناك!

• • •

عندما عاد عز الدين أيبك منتصرا.. كان قد تخلص من الشركاء جميعا. إقطاى بالقتل- والملك الناصر بالهزيمة- وشجر الدر بوضع الاتهامات فوق رأسها،إن تحركت ضده حاكمها كقاتلة.. وبيبرس بالهروب من أمامه.

لذا والظروف تساعده تماما، فقد أعلن خلع الملك الطفل "الأشرف موسى" وترقية نفسه من أتابك إلى "الملك المعز" وأخذ يستعد ويزيد من قوته لمقابلة خصومة من الأيوبيين أو من تسول له نفسه التمرد من المماليك الصالحية والبرجية !

• • •

لما استقرت الأحوال فى مصر للملك المعز طلب من صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ أن يزوجه من ابنته الجميلة، فلما علمت زوجته شجر الدر بذلك، ثارت ثائرتها كامرأة وسلطانة.. وقد قررت الخلاص منه قبل أن يتمم زواجه من أميرة موصلية- لكن الملك المعز- وقد خبر الخيانة والقتل.كان يحتمى بعدد كبير من حرسه وخاصته. ودائما كان بين مماليكه.. المكان الوحيد الذى يوجد به وحده هو "الحمام" المعطر، ومغطسه المتسع.. هنا لا يوجد إلا عبيد أحباش- كما

اشترت واحد منهم ليذبح لها إقطاى، فلن تعدم وسيلة بأن تشترى أكثر من واحد.. ليخلصونها من الملك المعز.. الذى مافتأ يهتم بنفسه ويتمرد عليها ويركنها على الرف!

"يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول عام ٦٥٥ -الموافق ابريل عام ١٢٥٧ م ضرب الخدم الملك المعز.. على أم رأسه بالقباقيب السنط الثقيلة التى يستخدمها العبيد فى اقدامهم الكبيرة، وتم أغراقه فى مغطس الحمام، ليصعد إلى عرش مصر أبنه الغلام الأخرق باسم "الملك المنصور نور الدين على" ويكون أتابكه-" الأمير قطز.."

وقد ظن بيبرس وهو بالشام بأن صاحبه قطز يلعبها خرساء بكماء.. حتى دانت له، فقطفها لنفسه!

• • •

لعل بيبرس وهو فى منفاه قارن حظه بحظ قطز فامتلأ صدره بالسخط. والشام تهب عليه ريح التتار والدمار ومصر بعيده فى مأمن.

ولما علم بيبرس بأن الأتابك قطز أعطى الفرصة كاملة لتنتقم" أم الملك المنصور" لمقتل زوجها - قامت الأرملة الحزينة بقتل شجر الدر فى نفس مغطس الحمام.. وبنفس قباقيب العبيد الثقيلة. بعدها جمع "قطز" الأمراء والعلماء وأعيان البلاد، وأظهر لهم خطورة الأخطار المحدقة بمصر، بسبب العاصفة التى تدمر كل ما تطوله ولا تخلف خلفها إلا الخراب والموت. أنهم المغول الذين يحرقون الأخضر واليابس.

كما أنه راح يظهر لهم الخطر الصليبى الـــذى عاد يحدق بهم..

وصل بيبرس إلى القاهرة فى نفس اليوم الـــذى اجتمع فيه كبار القوم يناقشون تلـــك الأخطـــار. وقـــد استقبل بيبرس استقبال الأبطال، يـــأمل الأهـــالى فـــى مساعدته الصادقة وتحقيق نصر آخر علـــى الأعـــداء الذين يهددونهم. اكرم قطز وفادة الصديق القديم، وقام بيبرس بتحريض كبار البلد بأن يضعـــوا الأمـــر بيـــد الأتابك قطز ويثقوا فيه.. اذ ضرورة وجـــود ســـلطان قوى على البلاد ليخاطب المغول باللغة التى يفهمونها ولأن بيبرس كان قريبا من الأحداث فى الشام فقد راح يصف للناس بشاعة ما يحدث هناك على يـــد جحـــافل التتار..

وكان بيبرس أول من رفع يده مؤيدا.. ســـلطنة قطز وعزل الملك المنصور الأبلة المريض.

حصل بيبرس لقطز علـــى موافقـــة الأعيـــان والكبار. لينصب ملكا، ولم يكن أمـــام بيـــبرس إلا أن يفعل ذلك حتى يحصل لنفسه على مكانـــة "الوزيـــر" الأول وقائد جيش السلطنة الجديدة.

إذا ما تم خلع "الملك المنصور". وتوليه السلطنه لقطز، باسم "الملك المظفر".

(٢٠)
الخطر المغولى يدهم الشام

▭ **قبل** أن ينصرم عام (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) قام هولاكو - عقب توجيه انذار للملك الناصر صاحب حلب- بدفع جيشه من بغداد فى اتجاه الشام. وفى مقصده النهائى، عدم التوقف إلا فى كروان سراى. "محط الرجال" مصر" واسقاط حكم المماليك. وقد كشف له جواسيسه تنازع المماليك بعد قتل الملك المعظم تورنشاه. وأخبره جواسيسه أيضا بأن الحملة الصليبية على دمياط انهكت جيش مصر، وأفرغت أيدى قادتها من الأموال** فلن يتمكنوا من التصدى له وتنازع الأمراء قائم فسيسلموا للمغول. وحكم الشرع، أنهم أرقاء وعبيد لا يجوز لهم حكم البلاد الإسلامية..

تطلع هولاكو لاحتلال الشام ومصر وبأن يستخدم "الملك الناصر" صاحب حلب والذى بادر وارسل إليه باشارات الطاعة والولاء، كواجهة يبرر بها الزحف على الشام، ومنها إلى "كروان سراى".

وإن كان المغول ليسوا فى حاجة للتبرير* لكنهم يعملون لتفريق القوى واضعاف المواجهة.

وقد انضمت إلى قوات هولاكو.. قوات صليبية من جيش "هيثوم ملك أرمينيا الصغرى" وبوهيموند السادس أمير أنطاكية. كان ذلك طبيعيا أن يتعاون

الصليبيون مع التتار ضد "الأمراء المماليك" وهم القـوة الاسلامية الفتية الجديدة، المعادية للمغول، والصليبيين، وبنى أيوب فى الشام.!

•••

سار هولاكو بقواته إلى حلب. وأمـــر بإقامـــة ثلاثة جسور على نهر الفرات، أحدهم عند "ملطيـــة"- مدينة بشمال حلب من ناحية الشرق. وهى قاعدة بــلاد الثغور. والثانى عند "البيرة" قلعة بشرق نهر الفــرات- والثالث عند "قلعة الروم" قلعة حصينـــة غربـــى شـــط الفرات، مقابل البيرة، وتعرف بقلعة المسلمين.

عبرت القوات المغولية نهر الفرات بواســـطة هذه الجسور، وفى الطريق قصد هولاكو ديار بكـــر، ونزل على "آمد" وهى مدينة فى ديار بكر واقفة علـــى نهر دجلة، وارسل إلى الملك السعيد نجم الدين أيلغازى صاحب مردين "وهى قلعة "ديار بكـــر" واقعـــة بيـــن الجزيرة الفراتية وأرمينية". أرسل إليه يستدعيه. ولكـن "الملك السعيد" آثر أن يرسل ولده ومعه الملك المظـــهر قرا أرسلان، وقاضى القضاة مهذب الدين محمد بـــن مجلى والأمير بلبان** ومعهم هدية ورسالة منه تتضمن الإعتذار عن الحضور لمرضه الشـــديد، فلـــم يقبـــل هولاكو ذلك العذر، وعلل تأخره بتخوفه من مهاجمـــة الملك الناصر صاحب الشام لبلاده.

ومن ثم حجز هولاكو الرسل عنده، وفيهم ابن "الملك السعيد"، وأعاد القاضى بمفرده ليخـــبر "الملـــك السعيد" بما قاله هولاكو، فندم "الملـــك الســـعيد" علـــى

إرسال ولده. وأخذ فى الإستعداد لقتال جيش هولاكـــو، فأرسل إلى الملك الناصر يحثه على أن يضم جيشـــه إلى جيش حلب لمواجهة العدو المشـــترك، حــاصر التتار ماردين فلم ينالو منها كثيرا، فتركوها محــاصرة، وساروا إلى ميافـــارقين "وهـــى قـــاعدة ديـــار بكــر" وحاصروا أهلها حتى أكلوا- مع عدم وجود الأقـوات- جلود النعال، وتولى حصار المدينة القائد "يشموط بـــن هولاكو" وكان صاحبها هو "الملك الكامل محمـــد بـــن الملك المظفر شهاب الدين غازى بن العادل الأيوبى".

وقد قاوم أهالى ميافارقين الحصار، وصـــابروا التتار، واستمروا على المقاومة سنتين، حتـــى نفـدت الأقوات وانتشر بين أهل ميافارقين الوباء، والمـــرض، مع الجوع وقلة الأقوات مما يسر على التتار الإسـتيلاء على المدينة وقتل الملك الكامل واستباحتها، وتبع ذلـك استيلاء التتار على حران، وبلاد الجزيرة، ثـــم أمـــر هولاكو ولده "يشـــموط" بـــالزحف بمقدمـــة الجيـــش المغولى، وعبوز الفرات، والاستيلاء على "بلاد الشـــام جميعها"، وقد زودة بجيش كثير العدد.

جفل الناس فـــى حلـــب واصابـــهم الرعـــب والفزع، فتركوها إلى دمشق.

وقد استعدت حلب بأسوارها المحكمة البناء.

وأمام الانذار المغولى، اجتمع جيش المســـلمين فى "حلب" وتشاوروا فى الأمر، فأشار الملك المعظم ابـــن الملك الناصر صاحب الشام بألا يخرجوا لقتال العـــدو لكثرة عدده وعظم قوته ولعجز المسلمين عن لقائـــهم،

فلم يوافقه على ذلك جماعة من العسكر، واصروا على الخروج لملاقاة العدو حتى لا يطمع فيهم، أو حتى يكون لهم مخرج للهروب فى أى اتجاة قبل ضرب الحصار على المدينة، لكن الذين لاقوا العدو على جبل بانقوسا ارتدوا فى فوضى إلى مدينة حلب، وعسكر المغول يتابعونهم بالقتل، والأسر، والتنكيل، ومن تمكن من دخول المدينة كتب له النجاة، ومن كان خارجها، أما وقع فى الأسر، أو أصابه القتل.

•••

بعدها رحل التتار من حول اسوار حلب إلى بلدة "عزاز" شمال حلب، بينها وبين حلب مسيرة يوم، فتسلموها بالأمان، وعاد التتار إلى حلب، وأحكموا حولها الحصار، حتى استولوا عليها، وكان ذلك فى التاسع من صفر ٦٥٨هـ يناير ١٢٦٠م- وكعادتهم بعد أن ملكوها، غدروا بأهلها، وقتلوا، ونهبوا، وسبوا، وأسروا النساء والذرية، وقد استباحوا المدينة خمسة أيام، حتى امتلأت الطرق، والمسالك بجثث القتلى.

والذين سبوهم من حلب، يزيد عددهم عن المائة الف من النساء والصبيان، وكان الملك المعظم، بن الملك الناصر، قد مات أثناء الحصار لمدينة حلب، وقد أدى ذلك إلى تسليم المدينة، مات يوم الاثنين الحادى عشر من ربيع الأول سنة ٦٥٨/ فبراير ١٢٦٠م.

كان الملك الناصر فى دمشق عندما تلقى نبأ سقوط حلب واستباحتها، وموت أبنة الملك المعظم، وتبع ذلك وصول رسل المغول يهددون ويتوعدون.

وقد وصل رسل المغول إلى قرية حرستا، وهى قرية كبيرة عامرة فى وسط بساتين دمشق على طريق حمص، بينها وبين دمشق مسافة قليلة.

دخل المغول دمشق ليلة الاثنين السابع عشر من صفر ٦٥٨/ فبراير ١٢٦٠م وهم يحملون فرمانا من هولاكو بتأمين المدينة وأهلها وما حولها، ويطمئنون الملك الناصر بأن له عند هولاكو تقديرا خاصا، وتعهد هولاكو بسبغ الحماية عليه، وعلى أهله وولده. وفى الفرمان يذكره بما تم التراسل بشأن "كروان سراى" مصر.

● ● ●

وقد اضطربت أحوال الملك الناصر وكذلك أعيان دمشق وقادتها، أمام كثافة هجوم التتار، وأخبار القتل والتدمير فسلموا مرغمين، إلى صدق الوعود المغولية، وقد تأخر الملك الناصر فى التحالف مع أمراء المماليك فى مصر، ورأى بأن يذهب وفد من أعيان دمشق للقاء التتار ومعهم الفرمان المتضمن الأمان، مال الملك الناصر إلى وعود التتار للاتفاق على تسليم دمشق، وفى ٢٦ ربيع الأول ٦٥٨/ مارس١٢٦٠م وصل منشور من هولاكو متضما تولية القاضى "كمال الدين بن عمر بن بندار التفليسى قاضيا للقضاة ببلاد الشام والموصل وميافارقين وماردين والأكراد والأوقاف، وقد قاومت قلعة دمشق. وكان بها جماعة من "المماليك الصالحية"، فنصب التتار عليهم المجانيق، فارتدوا إلى خارجها، وتسلم التتار القلعة

بالامان فى ابريل ١٢٦٠م ونهبوا ما فيها، خربوا سورها وآلاتها، وفريق من التتار هاجموا بعلبك واخذوها، وهدموا قلعتها، ولما علم أهل حماة بما حدث، خرج أعيانها وسلموا مفاتيح المدينة إلى المغول. وطلبوا الأمان. وولى المغول على حماة رجلا أعجميا يدعى "خسرو شاه" وقد أكثر الملك الناصر من التردد، بين التسليم والقاومة، فبدد الوقت الذى كان من ذهب، حتى تحول إلى معدن عديم القيمة، عندما جمع حوله مماليكه ومن انضم إليه ووجد أنه فى مائة الف رجل، هنا قرر التحالف مع مماليك مصر، وأرسل إلى الملك المظفر قطز صاحب مصر، وإلى المغيث صاحب الكرك بأن يرسلوا إليه بقواتهم لمواجهة التتار. وصد هجومهم.!

•••

هذا القرار الجرئ أتى متأخرا، إذ أنه لم يستجب إلى ما أبداه له امراء المماليك فى حينه، هو الذى عجل بفتح شهية هولاكو، عندما حرضه على مماليك مصر، ولم يكن يدرى بأن التتار لن يعطوه الوقت حتى تصل جيوش مصر والكرك، فقد سارع المغول بمحاربته واضعفوا قوته وأنهار جيشه سريعا، ولم يعد أمامه إلا الموت أو التسليم. وقد أدرك زوال ملكه فاشتد اضطرابه وتردده.

وكان بيبرس فى جماعة من مماليكه قد انضم إلى جيش الملك الناصر، بعد مقتل فارس الدين إقطاى بمصر، وقد شاهد بعينه حال ما يجرى فى الشام،

وتخازل بنى أيوب وتنازعهم، ولما أشار الأمير زين الدين الحافظى على الملك الناصر بمدراة التتار والدخول فى طاعتهم، انتفض بيبرس وهجم عليه يسبه ويضربه بيديه قائلا:

"أنتم سبب هلاك المسلمين".

•••

وقد رأى المماليك كيف يتخازل الملك الناصر. هنا اقترح بيبرس على من حوله، قتل الملك الناصر وتوليه آخر يستطيع القيام بالجهاد الأكبر، حتى يعطل زحف التتار على مصر، وأنه كفيل بأن يقنع "قطز" بدفع كل قوته للتحالف مع جيش الشام. لكن ذلك لم يتم، والملك الناصر، حتى آخر لحظة يرى أن "المماليك المسلمين" أخطر عليه من المغول.!

•••

وقد حاول المماليك الصالحية قتل الملك الناصر فى الشام إلا أن المحاولة تفشل ويهرب الملك الناصر بخاصته إلى قلعة دمشق، فيسعى إليه الأكابر والأمراء لتنفيذ التسليم بالأمان، واستغلال الفرمان الذى أرسله له هولاكو، الأمر الذى يجعل بيبرس يعجل ويسارع مع عدد من المماليك، ومن انضم إليه، بالرحيل إلى "غزة" ومن ثم إلى مصر.

دخل بمن معه فى طاعة الأتابك قطز، وقد رحب بهم قطز واكرمهم. وأمام الخطر الأكبر الذى يدهم الجميع تناسى بيبرس ما بينه وبين قطز. وعمل على رفعه لمنصب السلطان، باسم الملك المظفر قطز.

والملك الناصر، الذى كان لا يزال غير مستقر على حال، بعد أن وافق على رأى المتخاذلين وفكر فى التسليم، عاد وعبأ قواته، وسار نحو الديار المصرية ونزل العريش، وصل إلى قرية القطيا، بين القنطرة والعريش فى صحراء سيناء. وقد سبقته جماعات من جنده قصدت مصر، إذ رأوا بأن ما كان ينادى به بيبرس هو الأفضل لهم، إلا أن الملك الناصر، خشى أن وصل إلى مصر طالبا الحماية والعون، بذلك يعطى للمملوك قطز الشرعية فى حكم بلاد الأيوبيين. عاد بمن معه إلى فلسطين، ونزل بوادى موسى، ثم نزل فى مكان يسمى "بركة ويزاء" وقد أدركه التتار هناك، كان فى نفر قليل من اتباعه ومماليكه مما اضطره إلى الاستسلام، وقد زالت قوته، احتفظ به المغول حتى ينفذ هولاكو خطته، المطالبة باسمة بعرش "كروان سراى" "مصر"، المستهدفة أصلا منذ حرك هولاكو جيشه من بغداد. عندما عبر المعابر التى أقيمت على نهر الفرات.

• • •

ظل الملك الناصر معلقا بفرمان هولاكو، لا يعامل كملك، كما لا يعامل كاسير، فى قصر قليل الشأن، بعد أن استقبله هولاكو، ووعده برده إلى مملكة تضم مصر والشام واملاكهما فى الشرق والغرب، هولاكو عبأه بالأمانى وتركه منفوخا ليتحرك مع أقل نسمة هواء!

(٢١)
الظروف تخدم كروان سراى

▭ **هولاكوخان**، حفيد جنكيزخان وابـــن تولـــوى وأخو "منكوخان" الخاقان الأعم للمغول، شهرته وهيبتـه وقسوته فاقت كل تصور، منذ انطلق بجيوشه الجــرارة من "توران" واستولى على ايران، وهبط علـــى بغـــداد كالعاصفة، قتل خليفة المسلمين العباسى، وعبر نــــهر الفرات بعد أن حوله، إلى نهر مـــن الدمـــاء مغطـــى بالجثث، واستولى على الشام، دمر قلاعـــها وضـــرب مدنها وسبى أهلها، تهيأ فى جيش لا طاقة لأحـــد فـــى صده، أو رده، للزحف على مصر، والهدف الأعظـم الذى تحرك من أجله هولاكو أن يعبر من مصر إلـــى المغرب، ويطرق أبواب أوربا من الأندلس، ويزحـــف على الفرنجة هناك ويمضى إلى وسط أوربـــا لتلتقـــى جيوش المغول فى أسيا، ويتم إخضاع العـــالم لخلفـــاء جنكيزخان..!

•••

شاءت الأقدار، وهولاكو يقود المعارك باقتدار، من تخوم الصين إلى باب مصر الشرقى، أن يتخلـــى عن قيادة جيوشه "لكبتو بوفانوبان" الذى يوصف عندهم بالأسد الهصور، والتنين القوى، وتلك لظروف تتعلـــق بعرش الخاقان الأعظم، إذ علم هولاكو بوفـــاة أخيـــه

منكوخان، "الخان الأعظم" على جميع التتار، وأضطر أن يعود إلى الشرق طامعا في أن يختاره مجلس الكورتولاى، خاقانا أعظم، مكان أخيه منكوخان.

•••

لكن، كان هناك أخ ثالث اسمه قوبيلاى، كان واليا على بلاد الصين من قبل أخيه، وقد خلف منكوخان على جميع بلاد التتار. وفى هذه المسائل لابد وأن تتصادم قوى التتار، ويفوز من يتغلب على الآخر، فدارت الحرب بين الأخوين، قوبيلاى وهولاكو، وهما من بيت جنكيزخان.

كان ذلك عام٦٥٩- ١٢٦٠م "أنها الأقدار التى تتدخل فى الوقت المناسب لإنقاذ مصر".

بينما رسل المغول يدخلون القاهرة، ويقدمون إنذارهم المرعب إلى الملك المظفر قطز، يتلونه عليه فى الديوان السلطانى أمام الأمراء والشيوخ وأعيان البلاد، وقد جلس قطز على عرش الأيوبيين وعلى يمينه مقدم عساكره، الأمير ركن الدين بيبرس، وقد تناسى الجميع أمام الخطر الأعظم ما بينهم من خصومات وعداوات وتنافسات.

"إنذار هولاكوخان.. إلى أمراء ومماليك المرحوم الملك الصالح نجم الدين أيوب"

وكان عدد رسل المغول خمسة رجال، يتسمون بالشجاعة والوقاحة، تقدم كبيرهم، وقبل أن يتلوا الإنذار قال:

"علمنا أن السلطان المعز أيبك التركماني زميلكم قد قتل، وعلمنا أن السلطانة شجر الدر قد قتلت، وعلمنا أنكم أزحتم الملك المنصور من حكم مصر، وعلمنا أن أحوالكم الداخلية مضطربة وسيئة، خاصة وأن الفارين من الشام جاءوا لكم بدون أموالهم، وعلمنا أن نظمكم في استغلال البلاد سيئة، مما جعل الزراع في أسوأ حال.وعلمنا أن من يملك المال يهرب إلى المغرب والصحراء العربية واليمن، وعلمنا أن الشقاق دب بين الأمراء الكبار بعد مقتل كبيركم إقطاي.

وصاح فيه بيبرس؛ ما على الرسول إلا البلاغ بما يحمله من رسائل، لا نريد أن نسمع ما تعلم به، فنحن أيضا نعلم الكثير.

"وتحرك بيبرس خطوة إلى الأمام في عصبية وقال:

- نحن علمنا أن منكوخان، الخان الأعظم مات، وأن هولاكو عاد إلى الشرق، وعلمنا بأحوال كثيرة تدور بين خان الصين، وخان ايران فلا تزعجنا بما حمله لكم جواسيسكم.

وأشار قطز إلى بيبرس أن يهدأ، وأشار إلى كبير رسل المغول بأن يقرأ رسالة هولاكو، ويكف عن إلقاء ما علم به.وقال قطز:

"ربما يكون كثير مما تعلمه غير حقيقي، أنت الآن تخاطب أهل مصر، وعلى ضوء رسالة هولاكوخان، سيكون ردنا.

سريعا ما اندمج كبير رسل المغول فى تــلاوة رسالة هولاكو، وهو إنذار المغول المعتاد الــذى قــد يتلونه، بينما قواتهم تتحرك ولا تنتظر ردا، وقد حــددوا هدفهم منذ البداية، أما تمسكهم بإرسال الإنذارات فذلــك لإحداث الإنقسامات بين المدافعين، وشغلهم عن الخطر الحقيقى الذى، عادة، ما يبدأ بالزحف نحوهم وهم فــى كل الأحوال يبغون "كروان سراى" أم الدنيــا، زميلــة الصين سلما أو حربا، ولن يثنيهم شئ عن ذلك وخاصة وأن حكامها أجانب، فلماذا لا يكونوا هم حكامها مــادام شعب مصر يقبل ذلك، فمنها ستزحف جحافل المغــول إلى المغرب وتعبر المضيق إلى أوربا.

• • •

"من ملك الملوك شرقا وغربا القان الأعظــم، باسم اللهم باسط الأرض ورافع السماء، يعلم المظفــر قطز الذى هو من جنس المماليك العبيد الذين هربــوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعمون بإنعامه، ويقتلــون من كان سلطانة المرحوم "تورنشاه الملك المعظم سليل حلفاءنا الأيوبيين" .

ويعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولتــه وأهــل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، إننــا نحن جند الله فى أرضه، خلقنا من ســخطه، وســلطنا على من حل به غضبه، ولكم بجميع البــلاد معتــبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأســلموا لنــا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا، ويعود عليكــم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شــكى.

حتى ولو كان فى مقام الخليفة العباسى وأركان حكمه، وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فأى أرض تأويكم وأى طريق تنجيكم وأى بلاد تحميكم؟

فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون عندكم لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعائكم علينا لا يسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تقفون عند كلام، وخنتم العهود والإيمان، ونشأ فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق، وما كنتم تفسقون، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون، فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أمننا سلم، فإن أنتم ولأمرنا أطعتم، فلكم مالنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم فقد حذر من انذر، وإن ثبت عندكم أن نحن الكفرة، قد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المتعددة والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الإهانة ما لملوككم عندنا سبيل، فلا تطلبوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب قبل أن تندلع الحرب بنارها وترمى نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاها، ولا عزا، ولا كافيا، ولا حوزا، وتدهون منا بأعظم داهية. وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم،

وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقى لنا مقصد سواكم، والسلام عليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشى عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى، القان الأعظم.
"إذ قل لمصر ها هلاوون قد أتى* بحد سيوف تنتضى وبواتر* يصير أعز القوم منها أذلة* ويلحق أطفالا لهم بالأكابر"

•••

كان بيبرس-وهو يسمع- كثير العصبية، وكاد لعدة مرات أن يقاطع رسول المغول، لكن قطز كان يشير إليه بالهدوء فى تعقل حتى فرغ الرسول من تلاوة رسالته، وتسلمها منه، وأمر لهم بالاستضافة فى مكان أمين عقد عليه الحرس، وعقد اجتماعا سريعا بالأمراء وأخذ يدلى برأيه ويستمع لبقية الأراء، وقد شارك فى هذا الأجتماع جميع من حضروا الإنذار من الشيوخ والأعيان فى مصر، وتحدث الجميع عن كافة البلاد التى داسها المغول من ديار بكر وربيعة والشام الممتلئة بالمناحات والفجائع، وسقوط الملك الناصر بين أيدى المغول يحبسونه عندهم وبه يعلنون تحالف البيت الأيوبى، أو ما بقى منه معهم، وقال قطز:
- هنا ينبغى أن نختار الصلح، أم القتال، أو الجلاء عن الوطن، أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر.
وتدخل الأمير ناصر الدين القيصرى قال:
- وليس هناك مصلحة أيضا فى مصالحتهم إذ أنه لا ثقة بعهودهم، كما أن لا طاقة لنا ولا قدرة على مقاومتهم وقتالهم.

وقال بيبرس الذى كان معبأ بالثورة والغضب:
– ليس هكذا نناقش الأمور مع المغول، ليس أمامنا إلا حشد الحشود والقتال، الموت لنا أو لهم، وعلينا الآن أن يكون ردنا حاسما، دعنى يا سلطان قطز أقتل رسل المغول، حتى أرفع من الروح المعنوية للأهالى والأمراء، وعلينا أن لا نستحكم فى مصر حتى لا يأتون ألينا ويخربونها، هم إذا أتوا إلينا سيحاصروننا فى قلاعنا ويفوزون بأرضنا وزرعنا وضرعنا، علينا أن نحشد الحشود ونقصد "كبتوفونوبان" فإن انتصرنا عليه كانت لنا وإن هزمنا، نكون قد كسبنا الشهادة فى ميدان القتال،وما نحن إلا أهل موت، طالت أو قصرت حياتنا سنموت."على أقل تقدير" لا نموت بدون جهاد، وذكرى طيبة ستبقى لنا طويلا.

وافق قطز على رأى بيبرس، وأتجه إلى مكان بعيد ووقف وقال:
– لقد أخترنا الجهاد فى سبيل الله، من كان معنا يتقدم إلينا.ومن كان علينا فليذهب الآن ويرحل عنا، لن نسأله إلى أين سيذهب، إلى "المغول" أو "المغرب" لن ينجو أحد من المغول إلا إذا أوقفناهم بعيدا عن مصر.

وبدأ الأمراء والشيوخ والأعيان فى الانتقال من صف التخاذل إلى صف الجهاد والحرب.

•••

جهز قطز جيشه من المماليك فى مصر، وعساكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم، وطلب من أعيان ومشايخ مصر الأموال والمساهمات. كما شكل

مجلسا دائما لكي يعتمد عليه في تدبير الأحوال الداخلية، وفي جمع الأموال والعتاد للجهاد.كان بين الشيوخ، الشيخ عز الدين عبد السلام، والقاضي بدر الدين السنجاري قاضي الديار المصرية، وغيرهما من العلماء والفقهاء، تشاورا في موضوع الجهاد وجمع المال، وأبتدأ الشيخ عز الدين بن عبد السلام الكلام في حضور أمراء المماليك قائلا:

- إذا ما طرق العدو بلاد الإسلام وجب القتال وجاز لكم يا حضرات الأمراء أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شئ، وأن تبيعوا ما لكم من الحوائص المذهبة، والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه. هنا يكون على العامة تقديم كل ما يلزم، فلا يكون الإرهاق على جماعة المسلمين من تجار وزراع وحرفيين، بينما الأمراء يحتفظون بالثمين من النفائس والآلات الفاخرة.

أعلن بيبرس أنه مع رأى الشيخ عز الدين بن عبد السلام ودعى أن يتخلى الأمراء عما يملكون، كما يتخلى المشايخ عما يملكون، ويدفع الأهالي باقي ما يلزم وبشرهم بأن ما يعطى الآن إذا ما كتب الله النصر لنا والعودة، فقد يتضاعف، أما لو قتلنا فإن الاحتفاظ به بعيدا عن الجهاد لن يكون له معنى إلا الضعف والهزيمة.

" سارع قطز بالانضمام لهذا الرأى وأرغم جميع الأمراء على أن يتبعوه"

أما من رأى المغادرة من "المماليك" والرحيل عن مصر غربا فقد رأى بيبرس استدعائهم إلى قلعة الجبل وقتلهم، لكن قطز أوقف تهوره، وأجل بحث رأيه إلى لقاء خاص له معهم، يقنعهم فيه بالحسنى، فإذا لم يرتدعوا ترك له شأنهم، وحتى يغلق عليهم الطريق، كما رفض بيبرس رأيا قدمه الأمراء المماليك بأن يتحصنوا فى مصر وينتظروا قدوم المغول الذين قد تشغلهم الشواغل فلا يأتون، فى هذه الظروف صمم قطز مع بيبرس على الخروج إلى القتال والزحف بالجيش إلى الشرق، وطالب الولاة "بازعاج الأجناد فى الخروج للسفر" "ومن وجد منهم قد تخاذل، يضرب بالمقارع، وإذا تمادى.. يقتل"!!

•••

خطب الخطباء على المنابر أن سبى حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين، ولما تأكد الملك المظفر قطز من إجماع الأراء على قتال التتار طلبا للنصر أو الشهادة، حثه بيبرس وهو الذى كان مغتاظا من وقاحة الرسل، على قتلهم، فأمره أن يفعل، فقام بيبرس فى شئ من التجمهر وأمام أكبر جمع من الناس بتوسيط "قتل" واحدا منهم "بسوق الخيل" تحت أسوار قلعة الجبل، ووسط آخر بظاهر زويلة، ووسط الثالث بظاهر باب النصر، ووسط الرابع بالريدانية، وأرسل الصبى الأمرد الذى كان مع الرسل إلى قطز لجعله من جملة مماليكه، وعلقت رؤوسهم جميعا على باب زويلة بين

التهليل والتكبير والحماس الشديد من الأهالى، فقد بدأ أمراء المماليك القتال بحصد رؤوس أربعة من التتار، وبذلك لا عودة فيما تم الأخذ به، من تعهدات بالقتال، "النصر أو الشهادة".

.. وفى الليل، ضربت الكوسات وهى صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر فى إيقاع مخصوص بالحرب، كما دقت الطبول وبدأ تشهيل الفرق فى نظام وترتيب وكان فى مقدمة الجيش "قطز" و"بيبرس" وحولهما مماليكهما، وكان قطز وبيبرس لا يكفان عن إشاعة الحماسة لدى أمراء الفرق فانصاع الجميع لهما، وساروا للقتال بالعدة والعتاد، وعند الصالحية، سبق بيبرس بمقدمة الجيش للاستطلاع، وكشف أخبار العدو، حتى وصل إلى غزة، وكانت مقدمة الجيش المغولى قد وصلت إلى "غزة" بقيادة القائد "بيدار"، فلما رأى طليعة جيش المسلمين أرسل إلى "كتبغا" فى بعلبك، يخبره بما رأى، ويطلب النجدة، إذ أن بيبرس يتقدم فى قوة كبيرة تبغى الحرب وليس الاستكشاف والعودة.

فأرسل إليه كتبغا قائلا:

قف مكانك وانتظر انهم لا يجرءون.

• • •

إلا أن بيبرس لم يمهله حتى تصل إليه النجدة، وفى ظن "بيدار" أن بيبرس لابد وأن يستريح ويبنى معسكرا، وهو الذى قطع مسافة طويلة من الطريق، إلا أن بيبرس كان يفعل عكس المطلوب والمعتاد، هاجم

قوات بيدار، فانكسر التتار أمامه، طاردهم حتى نـــهر العاصى، وهو يعمل فيهم القتل ولا يحتفظ بأسرى، كان يحاربهم بوحشيتهم، قتل منهم المئات، مما أشاع الروح العالية عند المسلمين، وقد زين لهم الطريق بـــرؤوس المغول المعلقة على أعواد الأشجار، وعلى الأســوار، وفوق المبـــانى التـــى خربوهـــا، وكـــان المســلمون يتصايحون، "الله اكبر، الله اكبر"، كلما تقدموا وشاهدوا، رؤوسا للمغول مقطوعة تزين لهم الطرق!

وصل الجيش مع قطز إلى "غزة" وهو آمـــن، وحط الرحال فيها، وقد بدد بيبرس الخوف من قلـــوب جنود الحلقة، والماليك، ومن صحبهم مـــن الأهـــالى، وأظهر لهم عكس ما يتخيلون، فقد شاع بأن المغـول لا يهزمون ولا يقتلون، وأن جعجعة رسولهم التى كـــانت تطن فى الأذهان وهو يلقى بإنذاره الرهيب، تحولـــت عند المصريين إلى سخرية ونكات، كمـــا أن الـــرواة صوروا ما يفعله بيبرس تصويرا أبداعيا، يعلو بالـــهمم ويطيل الرقاب، ولعل ذلك كان هو المطلوب من تعبئـة ومغالاة مقصودة، أدت إلى ترك الأثر فى نفوس أمراء المماليك، وخاصة أمراء قطز، وقطز نفسه، الذى صار ما يفعله بيبرس، يحيطه من كل جانب، لكن قطز كان متعقلا، والظروف التى تحيط به، لا تجعلـــه إلا فـــى صف "بيبرس" مهما لمز اللامزون من حوله، ومـــهما لمح اللامحون بأن ذلك ليس فى صالحة!

لم يطل مقام قطز فى غزة إلا يومـــا واحـــدا وشـــهل بجيشه وعتاده وسار بحذاء الساحل حيث توجد إمارات

الصليبين، فلما سمعوا طبوله وكوساته وشاهدوا أعلامه وجحافله خرجوا وقدموا له الهدايا وعرضوا عليه المسير معه ومساعدته كشركاء، لكنه اكتفى بأن أخذ عليهم العهود والمواثيق، أن يكونوا لا له ولا عليه، وقد بين لهم خطأ بعض الأمراء الصليبيين في معاونة التتار لحرب المسلمين بالشام، وقد خرجوا من تحالف المغول بدون مغنم، وأقسم لهم بأغلظ الأيمان، إذا تبعه منهم فارس، أو راجل يريد أذى بعسكر المسلمين لرجع وقاتلهم قبل أن يلتقى بالتتار!

•••

لما علم بيبرس بتلك العهود بين قطز وأمراء الصليبين قال:

– لو كنت مكان الصليبيين لقدموا لله الشكر أنهم لم يقابلونى على رأس الجيش، لكن لكل ثمرة أوان تنضج فيه وتؤكل!

•••

كان صاحب "حماة"، الملك المنصور، وأخوه "الفضل" قد حلا بفلسطين عندما علما بتحرك جيش المماليك، وضم ما معهما إلى جيش قطز طائعين.

وكان مقدم جيش التتار "كتبغا" فى البقاع، وعلم بأن بيبرس لا يحتفظ بأسرى من المغول ويقتلهم جميعا، وأن قطز يسير إليه بجيش كبير، استدعى "كتبغا" إلى مجلسه الملك الإشرف صاحب حمص، وقاضى القضاة محى الدين محمد بن يحيى المعروف بابن الزاكى، والملك السعيد صاحب الصيت ابن العزيز بن العادل، وآخرين من أعيان وشيوخ الشام،

واستشارهم فى الأمر، كان كتبغا يعلم بـــأن لا نجـدة ستصل إليه من هولاكو، الذى صار مشغولا بالوصول إلى عرش الخاقاناه الأعظم، فى الوقت القريب علــــى الأقل، وأراد كتبغا أن يكسب الزمن الذى عجل هو به، فأشار بعضهم عليه بالانتظار حتى تصلــــه إمــدادات هولاكو ليتقوى بها على لقاء المماليك الذيـــن عزمــوا على القتال حتى الموت أو النصر.

***

كان كتبغا قد ذهل مما يسمعه من طرق القتــال التى يمارسها المماليك منقولة مما يتقنه المغول، أنـــهم يحاربون بنفس الجسارة والخداع، وقـــد أشـــار إليــه بعضهم بأن لا يركن للانتظار، وأن يبادر ويتحرك فــى اتجاههم.

وقد فقد كتبغا أهم اسلحته، الرعب فى القلــوب، والاضطراب فى النفوس، وكان يضايقه أنهم يبــدأون بقتل رسل المغول مع ما فى ذلك من استهانه واحتقار، وأحنقته أكثر أخبار قتلى غزة، وفرار من بقـــى مــن التتار أمام بيبرس والذين أشاروا إلى كتبغا بالقتال مــن ملوك الشام، كانوا يتمنون إضعــاف الجــانبين لتقــوم قائمتهم من جديد، وكتبغا كان مضطرا بأن يليّن مــــن الجانب العاصى فى نفسه، ويبدى شيئا من الاحترام لما بقى من بيت بنى أيوب، وهو الذى لم يتشاور مع الملك الناصر الذى كان حبيسا عندهم، على أساس أنه حـاول يوما قتالهم، وهو شئ لا يغفره المغولى، ومـــع ذلــك أرسل إليه من يستطلع رأيه، وقـــد ارتـــهن مصـــيره

بانتصار المغول، لكنه مصير العبيد الذين لن يكون لهم شان، وكم عض الملك الناصر بنان الندم، وهو يسمع إلى ما يتناقل من أخبار جيش المماليك المصريين، وذات يوم عرضوا عليه قيادتهم، وضم قوة الشام على قوة مصر، لكنه لم ينظر أبعد من قدميه، وراح يتمنى فى قرارة نفسه هزيمة المغول، لكنه كان يعيش حلما كسيحا لا يمكن أن يحلق فى السماء، أنه لم يتصور بأن هناك قوة تهزم التتار، وهم بعدد رمال الصحراء، وجميعهم جنود يستجيبون للقتال.

•••

انتهى"كتبغا" إلى جمع التتار الذين كانوا قد تفرقوا فى بلاد الشام وزاد عددهم عن ثلاثين ألف مقاتل، وجعل لكل مقاتل اثنين من الشوام يمنونهما بالغنائم والوظائف ونوع من الأستقلال تحت الشعار المغولى، وفى ظن كتبغا أن المغولى يعادل عشرة من المماليك، فإن حرب الأحرار تختلف عن حرب العبيد، وقد استهل بذلك خطابه لجنوده، وقصد به التقليل من شأن المماليك وكان بصحبته الملك السعيد حسن بن الملك العزيز عثمان وعرض"كتبغا" على الصليبيين فى أمارة عكا أن يحالفوه على قتال المسلمين، لكن قطز كان قد قطع عليه الطريق، وهددهم، فضمن المماليك حياد عكا وبات متوقعا صدام الفريقين..المدوى!

ومن كثرة ترديد اسم بيبرس أمام كتبغا.. تمنى لو أن يقتله بيده..!

(٢٢)
عين جالوت معركة عامة.. ومعركة خاصة

□ إستمر قطز فى التقدم بجيشه حتى وصل إلى "الغور" الذى به "عين جالوت" تلك البلدة الصغيرة الواقعة بين بيسان ونابلس فى أرض فلسطين. كان التتار قد وصلوا بأعداد كثيفة إلى نفس المكان وهناك تجمع جيش المماليك.كان ذلك فى رمضان
وقد أصر معظم المحاربين على الصوم مع المجاهدة، والسير وحمل الأحمال والحركة الدائمة. ذلك كان فى اليوم الخامس والعشرين من شهر رمضان ٦٥٨هـ أوائل سبتمبر ١٢٦٠م.

اجتمع الملك المظفر قطز بجميع الأمراء وقادة الجيش وخطب فيهم، يحضهم على القتال، ويرغبهم فيه، وذكر لهم ما لحق بالأقاليم الإسلامية التى خدعت بالسلام التتارى.. وخوّفهم من عقاب الله إن هم ولوا الأدبار أمام عدوهم، فضجوا بالصياح وتحالفوا على الجهاد والاجتهاد فى قتال التتار ودفعهم عن البلاد"

• • •

ثم اجتمع قطز مع بيبرس وبقية الأمراء الكبار لوضع خطة الحرب. كانت الخطة التى قدمها بيبرس بسيطة للغاية، تتلخص فى ايهام العدو بقلة عدد المسلمين، أن يقود ثلث الجيش وبعد مناوشات قليلة ينسحب الجيش وينكسر أمام المغول، فيستدرجهم إلى"المضيق" وهنا يظهر جيش المسلمين من الخلف ويستدير الجيش المنسحب من الأمام، وان يعمل الذين رافقوا الجيش من الأهالى فى دفع الحجارة من فوق الجبل، ذلك يحبط عمل الجناحين فى جيش المغول، كما أنه يمكن المماليك من"القلب" على أن تكلف فرقة خاصة بشق طريقها إلى قلب جيشهم والوصول إلى قيادته، وقتل كبيرهم ومن يحيطون به."

وإذا ما تم تقليب الخطة ومراحل الخداع، وإلقاء من يوصل لهم تنازع الأمراء وعودة بعضهم بقطاع كبير من الجيش، رأى بيبرس أن يتحمل المفاجآت التى قد تتمخض وترد أثناء سير المعركة.

•••

وافق قطز على خطة مقدم عسكره، وذهل قطز إذ يختار بيبرس أصعب المهام وأخطرها، وهو إن فكر فى الخلاص منه، لن يجد وسيلة لتقنعه بأن يكون فى مقدمة الفرقة القليلة التى سيطبق عليها المغول وتتقهقر بخسائر تقنعهم على أن ... يتبعوهم ويطاردوهم.

•••

وهكذا اصطدمت طليعة جيش المسلمين مع جيش التتار، وأبتلع كتبغا الطعم بأن هناك انقساما، وأن

ما يلتقى بهم، ما هم إلا شرزمة من المماليك يبغون الإنتحار، فلم يسبق أن فاز عليهم أحد، فما حال هذا الجيش الذى لا يزيد عن عشرة آلاف، وهم يقاتلون بضراوة، ثم ينكسرون، أمام الجناحين فيتقدم خلفهم قلب الجيش إذ أن "المضيق" أبطل عمل انقضاص الأجنحة بعد فردها، وكان جيش بيبرس يصمد قليلا ثم يتقهقر، ويتقاتلا قتالاً شديداً لم يرى كتبغا مثله، وكان السلطان قطز يصيح فى جنوده يحمسهم للقتال والصمود ويشجع أصحابه ويحسن لهم الموت وقد القى بخوزته صائحاً "وإسلاماه" فاشتدت عزائم الجيش القليل أمام ضغط المغول وتقدم فرسانهم إلى المضيق، فكان المسلمون يتقهقرون، وهم يتابعونهم مضحين بكثير من القتلى والجرحى، ذلك جعل المغول يتمادون، إذ أن جيش المماليك لا يصمد أمامهم، وكأنه يبحث عن منفذ له ليهرب من المضيق عائدا أدراجه من حيث أتى.

وإذا نجح بيبرس فى تنفيذ المرحلة الأولى من الخطة المحكمة، انقضت القوات الأخرى الهائلة من ثلاث جهات من الأمام والخلف ومن فوق المرتفعات، تقذف بالحجارة والأمتعة والعجلات ومثقلات الحصار الذى أشعلوا فيها النيران، كما أن عددا من المماليك كانوا يلقون بالنفط وكور القش المشتعلة، وأمكن عزل المترجلين التتار عن فرسانهم، وحصر الفرسان، وهم قلب الجيش المغولى، وبينهم كتبغا وأركان حربه، قاتلوهم قتالاً مستميتاً طوال اليوم، وحتى فجر اليوم التالى.

وقد تعذرت المقاومة علـــى جيــش المغــول، ولحقت بهم الهزيمة آخر الأمر. وولى بعضهم الأدبــار إلى الشام، وأمكن لبيبرس أن يشق الطريق إلى حيـــث كان كتبغا وأركان حربه، مستعينا بمماليكه. وأمكن لــه قتل كتبغا بيد (جمال الدين أقوش الشمســـى)، وقبــض على الملك السعيد حسن بن العزيز عماد الديـــن ابـــن الملك العادل، ومثل بين يدى الملك المظفر قطز، وكان التتار قد أعطوه، إحدى القـــلاع، وكـــان قـــد قـــاتل المسلمين قتالا شديدا يوم "المصاف" فى عين جـــالوت، فأمر قطز بضرب عنقه.

***

أنسحب التتار بعد هزيمتهم الأولى إلى الجبـــل المجاور، وهنا حاول الصبى المغولـــى قتـــل الملـــك المظفر قطز الذى كان يصيح فى الجنود،

" واأسلماه.. بالله انصر عبدك قطز على التتـــار"

واكتشف أحد مماليك قطز محاولة الصبـــى المغولـــى الذى جعله فى خدمته ليستعين بلسانه المغولى، فـــأرداه قتيلاً. وتجمع جيش المسلمين على الغنائم، وما صحبـــه المغول من عتاد وأموال وذخائر. لكن بيبرس كـــان يشجع مماليكه وبقيه الأمراء ليتتبع فلول التتـــار حتـــى حدود الفرات.

فعندما وصلت لمدن الشام وقلاعها مـــا حـــل بالتتار من هزيمة فى عين جالوت، وكيف يطـــاردهم بيبرس، ويقتل كل من يقع فى يده، هرب نواب التتـــار من دمشق، وكان نائبها "أيل سيان" يتبعـــهم أصحابـــهم وكانت مدة استيلاء التتار على دمشق ســـبعه أشـــهر

وعشرة أيام، وراح ينضم للجيش المنتصر من أهـــالى الشام الكثيرين، يطاردون المغول ويثأرون منهم فى كل مكان. ، معركة عين جالوت استمر القتال فيها يومــان طويلان ثقيلان، وعندما طلع صبـــاح يــوم الثـــامن والعشرين من رمضان، كان العيــد الحقيقــى علـــى الأبواب، أنه عيد الفطر والنصر لعام٦٥٨هـ، نهاية عام ١٢٦٠م مما حدى بركن الدين بيبرس، عندما آلت أليــه السلطنة، إقامة نصب تذكارى تخليدا لذكرى انتصـــار المسلمين على التتار. أطلق عليه"مشهد النصر" كـــان المسلمون يحجون إليه، تبركا، بذلك اليــوم المشــهود الذى كان الحد الفاصل بين عـــهد الطغيــان والجــور التتارى، وبين عهد جديد، فتح المجـــال لإنتصــارات أخرى متلاحقة.

• • •

أرسل راس كتبغا إلى القاهرة، لتقـــام زينـــات النصر، بينما استمر جيش قطز فى تطهير الشام مـــن التتار واستعادته، فإن عصور القوة، لا تكتمل لمصـــر إلا إذا كان الشام معها، وحتى ينكر التتار على العــرب وأهالى مصر والشام، حقهم فى هزيمتهم، أشاعوا بـــأن المغول لم يغلبهم غير جنسهم، وفى ذلك قال الشــعراء:
غلب التتار على البلاد فجاءهم.
من مصر تركى يجود بنفسه.
بالشام أهلكهم وبدد شملهم.
ولكل شئ آفة من جنسه!

• • •

وإذا ما لاح النصر تاما للمماليك آثر بيبرس أن يأسر عددا من أمراء المغول ويجعلهم فى عهدته، حتى إذا ما فكر هولاكو أن يأتى على مصر بالثلاث فرق الكبيرة (كوكات) كل كوكة ثلاثمائة آلف محارب وفارس، يبدأ فى قتل الأمراء.

وكان وصول جيش المماليك إلى ربوع الشام يجعل الأهالى يتطوعون للإرشاد عن أماكن وجود المغول، والأماكن التى يختبئون فيها، فيسهل أسرهم وترحيلهم إلى معسكر المماليك مكبلين بداخل أقفاص يتلقون سخط الأهالى ومحاولة الثأر منهم..

المغول إذا ما تأكد لهم هزيمتهم، قاموا بقتل الملك الناصر وشقيقه، وأبقوا على ولده "العزيز"، وانعكست أثار هذه الهزيمة على النصارى، وأهل الزمه فى الشام ، إذ كان بعض النصارى قد استطالوا على المسلمين بدمشق. واستصدروا فرمانات من هولاكو بمنحهم كثيرا من الامتيازات، وهى خطة العدو ، عندما يفرق شمل الأمة التى يستعبدها، بأن يمنح بعضها مزايا يحرم منها الآخر، حتى لا يتحدا ضده، وكانت قبيلة كتبغا "مقدم جيش المغول" فى الشام قد اعتنقت الدين المسيحى، مما أثر على الموقف إذ اعتز النصارى على المسلمين، وقد تعاون المغول مع الصليبيين فى بعض الأحيان بينما رفض قطز أن يقبل تعاونهم ضد المغول، والمغول دفعوا النصارى إلى بيع الخمور فى دكاكينهم فى جميع الأوقات، والضرب بثوابت المسلمين!

وقد طهر قطز بلاد الشام من المغول والأيوبيين ، ذلك من الفرات إلى مصر، ماعدا "الكرك"
الذى كان بيد "الملك المغيث" ثم اخذ يرتب أمور الشام ويضع على أقاليمها النواب والحكام، أقطع الأمراء الأقطاعيات، واستناب الأمير "علاء الدين سنجر" الحلبى فى دمشق، ومعه الأمير "مجبر الدين أبو الهجاء بن عيسى أبو خشتر الكردى" وأمن الملك الأشرف موس صاحب حمص، والذى كان نائب هولاكو لبلاد الشام، وأقر الملك المنصور على حماة وبادين والمعرة وأعطى "سلمية" للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب. وجعل الأمير شمس الدين أقوش البرلى العزيزى أميرا على بلاد الساحل، وغزة.

"وكان الأمير ركن الدين بيبرس يطمع بأن يعطيه "حلب" وأن يكون نائبه فى الشام. فى البداية وافق قطز على طلبه،فهو بطل عين جالوت بلا منازع.

لكن بعض أمراء المماليك المحيطين بالملك بينوا له أن من مصلحته الإبقاء على بيبرس معه فى مصر، وأن يجعله فى دائرة محدودة حتى يحد من أطماعه!

•••

..فوجئ بيبرس وقد هدأت المعارك وسلم نفسه للراحة قليلا، بصدور قرار سلطانى من قطز بإعطاء "حلب" إلى "علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ" صاحب

"سنجار"وجعله نائبا للسلطان على حلب، مع ما كـــانت تمثله حلب من كونها عاصمة الشام، وكانت مقر "الملك الناصر" الذى قتله المغول وهو معهم متحالفا.

• • •

شعر بيبرس بفداحة الظلم الذى حاق به، أنـــه جزاء سنمار، وللمرة الثانية فى حياته يثبت شـــجاعته وجرأته وذكائه ويكون قاب قوسين أو دنى من تحقيـق أحلامه فلا تتحقق، المرة الأولى كان بطـــلا لمعركـــة قصر المنصورة، ومات الملك الصالح فأجـــهض مـــع رحيله أحلامه فى الإمارة والنفوذ.. وهو اليـــوم بطـــل وفارس معركة عين جالوت، والهازم الحقيقى للمغول، حتى أن الشعراء أشاروا بخصاله المغولية، وقيـــل لا يهزم المغول إلا تركى منهم، ولم يطمع فى شئ أكـــثر من أن تكون له أمارة مثل أى أمير.

وإذا بزميله قطز الذى اختبأ خلف ظهر"أيبـــك" حتى قفز على كرس السلطنة، وقد تناسى أى خلافـات بينهما، تناسى اغتيال أميره القوى فارس الدين إقطاى، وتناسى أشياء كثيرة ليقف معه ضد الخطر الأعظـــم، ينحيه بعيدا عن مطلبه، ينحيه بعد أن وافـــق مبدئيـــا، وكأنه استمع وصدق الوشاة الذين لا يملكون إلا السعى والنميمة!

• • •

شرع الجيش المملوكى فى العودة إلى الديـــار المصرية، غادر دمشق يوم الثلاثاء [السادس والعشرين من شوال ٦٥٨ه/أكتوبر ١٢٦٠]وفـــى الطريـــق إلـــى

مصر، كان قطز قد عزم زيارة حلب، لكنه عدل عن ذلك لما بلغه من تغير وضيق الأمير بيبرس لعدم حصوله على حلب، وعيون بيبرس أبلغوه بأن قطز قد أضمر له السوء، لذلك فضل الملك أن يسير إلى مصر بدلا من أن يقصد حلب، وأخذ كل منهما حذره من الآخر، وقد بات كلاهما يفكر في هلاك الآخر!

ولما وصل الملك المظفر إلى القصير ولم يتبق بينه وبين الصالحية إلا مسافة قليلة، تقدمت العساكر السلطانية إلى الصالحية، وبقى الملك المظفر قطز في جماعة قليلة من خواصه وأمرائه، ثم خرج لصيد أنارب الصحراء، فتبعه بيبرس مع جماعة من أصحابه، كان يريد أن ينهى ما بينه وبين قطز من خلاف، لكن قطز حاول أن يفلت هاربا عائدا ومصورا الأمر بأنه أفلت من مؤامرة. لكن بيبرس مع عدد من مماليكه لحق به. وقد تمكن بيبرس أن يقبض على يد السلطان وأن يثبته مكانه، وأن يعاتبه، وأن يجعله يشعر بما في نفسه من مرارة، لكن قطز أرجأ الحديث بينهما حتى يصلا إلى قلعة الجبل. ثم سارع قطز وركب حصانه.

وعدد من مماليك بيبرس كانوا يحسبونها، إذا ما نكل بأميرهم ستذهب ريحهم، ويفقدون كل شئ، فعاجلوا واسقطوا قطز عن حصانه، اندفع قطز نحو بيبرس، فغيب خنجره في أحشائه، وقام المماليك وضربوه بسيوفهم دون أن يتدخل بيبرس، وإذا ما كان لا يزال بقطز رمق حياة، رموه بالسهام حتى قتلوه،

وتركوه فى العراء، فتقدم منه بيبرس يبكيه ويعاتبه وهو ميت!

•••

كان ذلك فى السابع عشر من ذى القعدة عام ٦٥٨ هـ/١٢٦٠م وقد عاد بيبرس وأصحابه إلى معسكر "السلطان" وهم شاهرون سيوفهم، وكان الأتابك "إقطاى المستعرب" الذى ترك فى مصر واقفا على باب الدهليز، فأخبروه بما كان من أمر السلطان قطز وقتله فقال:

-من قتله منكم؟

أحجم مماليك بيبرس عن الرد فأجاب بيبرس:

- كان يدبر قتلى فقتلته.

الأتابك إقطاى المستعرب لم يندهش . فقد كان على علم بما يدبر لبيبرس وهو بطل عين جالوت وكثيرون لم يكن يوافقون قطز على ما اتخذه، قال:

-إذن اجلس على مرتبة السلطان أيها الملك "الظاهر".

•••

وقد تم دفن قطز فى القصير، ثم نقل إلى القاهرة. وقيل فيه أن اسمه الحقيقى"محمود بن ممدود"، وان أمه كانت أخت السلطان جلال الدين الخوارزمى، وقيل أنه "عمه"، وقيل على لسان أصحاب الحكايات الكثير، فأصحاب الحكايات كانوا يتحزبون لابطال قصصهم. فإذا ما ذكروا شيئا عن الهلالية والزناتية. كان لكل فريق رواة يميلون إلى جانب منهما، كذلك عندما انتهى الصراع بين قطز وبيبرس بقتل الأول

وصعود الثانى إلى عرش مصر، كان هناك رواة، يتخذ بعضهم جانب أحدهما ضد الآخر فى يوم.. وفى اليوم التالى يبدل موقعه طبقا لمزاج الناس!

• • •

وقد ثبت أن بيبرس لم يركن للهدوء عندما بدأ تباشير النصر فى عين جالوت، واستمر يجاهد ويطارد المغول ويؤلب عليهم أهل الشام حتى استعاد حلب منهم، وهو الذى انتصر على بيدرا قائد التتار فى غزة باللقاء الأول. وكان جسورا خلال المعركة الرئيسة فى عين جالوت، وترأس الفرقة المتصادمة التى استدرجت قلب الجيش التتارى إلى "الكمين" معرضا نفسه للهلاك مبكراً.

لعل هذه الأعمال الجليلة أثارت من حوله عداوات الأمراء وخاصة وأن معظمهم من ترقيات قطز، يخشون على أنفسهم من سمعته وبطولته وشهرة بيبرس، إذ لبيبرس مماليكه، فعملوا على أن يتم التخلص من بيبرس حتى يدخلوا مصر ويشهدوا الاحتفال بالنصر دون مزاحم للسلطان.

لكن بيبرس الذى كان يأتى بما ليس متوقعا، كان الأدهى والأسرع فى أن يتغذى بالسلطان قطز قبل أن يتعشى به، كان ذلك بتحريض من الأمراء- سيف الدين بلبان الرشيدى والأمير بيدغان الركنى- والأمير سيف الدين بهادر المعزى الأيبكى. والأمير بدر الدين بتكوت، والجوكندار المعزى، والأمير بدر الدين الأصبهانى، وعلم الدين صنغلى، وسيف الدين بلبان

الهاروني، ومعظم هؤلاء الأمراء الذين تآمروا على قتل قطز من المماليك الصالحية، الذين هربوا إلى الشام، وصار زعيمهم بيبرس. واعتبروا قطز قاتل خشداشهم الأمير سيف الدين إقطاى. لذلك كانوا يتحينون الفرصة المواتية للوثب على قطز، وعلى سيوفهم وقع عبء معركة عين جالوت المصيرية، وكان الوحيد الذى يفرد عليه جناح حمايته هو أقواهم "بيبرس"، لكن إذا ما تلاعب قطز به، ولم يحقق له شيئا من أهدافه، غض الطرف عنه فقتل!

ومع ذلك، فقد بكاه السلطان الجديد، وأعاد دفنه، في مشهد كبير بالقاهرة، وقد صار قبر قطز مزارا للناس، حتى تناساه الناس كعادتهم، أمام عظمة دولة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وقد بدأ النسيان يترى على الأذهان منذ نادى المنادى فى شوارع القاهرة.

"يا أهل المحروسة الكرام"

"ترحموا على الملك المظفر، وأدعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس".

وعلى منابر مساجد القاهرة، ترحم الأئمة والوعاظ على روح الملك المظفر، وكالوا الدعاء للملك الظاهر، بطل وقائد وهازم التتار، ومحبط آمالهم فى دولة ودين الإسلام.

• • •

كان "قطز" من مماليك عز الدين أيبك، بينما عز الدين أيبك من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب، وقد أعاد بيبرس للمماليك الصالحية عرش

مصر، وكان على مماليك المماليك ان ينتظروا زمنـــاً ليصلوا إلى عرش مصر.

ولما علم التتار بقتل الملـــك المظفـــر قطـــز، اعتقدوا أن فى هذا فرصتهم الســـانحة للأخـــذ بثـــأر الهزيمة الكبرى، لكن الناس فى مصر والشام، كـــانوا فى حالة من الأطمئنان أبان حكم بيبرس إذ لـــم يمـــر عليهم زمن مثله، وهم ينادون إذ لاح خطر:

"هاتوا لهم بيبرس، فهو لها، ولن يفلتـــهم مـــن عقـــاب صارم".

• • •

"وبالفعل كان بيبرس مؤسس دولـــة الممـــاليك الأولى، دولة قوية مهابة، هزمـــت الخصـــوم، وبثـــت الرعب فى قلوب الأعداء، طردت الصليبيين، وألزمـــت التتار باحترام حدود دولته، وصرف النظر عن "كرزوان سراى" "أنها محطة الرجال، الذى يعمـــق تحررهـــم تاريخها العريق".

/ عبد الفتاح مرسى

الكاتب

- عبد الفتاح مرسى
- ليسانس آداب (تاريخ) جامعة الاسكندرية.
دبلوم عام من كلية التربية جامعة الاسكندرية
- عضو عامل باتحاد كتاب مصر
- مقيم بالاسكندريه ت ٠٣/٥٤٨٨١٥٣

كتب صدرت للمؤلف

رواية– على حافة النهار – ١٩٩٣الثقافة الجديدة
رواية– الدحديرة ١٩٩٤ – على نفقة المؤلف
رواية– المحوس والملموس ١٩٩٥ المجلس الأعلى للثقافة
روائية – المقطوع والموصول ١٩٩٦ كتاب فاروس
قصص– شهوة الموقف ١٩٩٧ دار الوفاء
دراسة – الفن فى موكب الوعى ١٩٩٧ دار الوفاء
رواية – المسخوط من سيرة على بلوط ١٩٩٨ دار الوفاء
رواية – الليل وجبروته ١٩٩٨ دار الوفاء
رواية– الابحار فى الرمل ١٩٩٩ دار الوفاء
قصص– قبلات محطات السفر ٢٠٠٠ – الفنون والاداب
رواية – أكثر من عمر ٢٠٠١ – الكتاب الفضى
قصص– أقنعة الصفاقة المدهشة – ٢٠٠٢ دفقات للنشر
رواية – تلطيحة ابن خليل ٢٠٠٣ – دفقات للنشر
قصص – العكاكيز ٢٠٠٣ – دفقات للنشر
رواية – انعطاف النهر ٢٠٠٣ – هيئة الكتاب
رواية – عبد الله والمدينة ٢٠٠٣ – دفقات للنشر

رواية – للبحر حالات ٢٠٠٥ – دفقات للنشر
رواية – العمامة والتاج ٢٠٠٥ – دفقات للنشر
رواية – البندقدارى ٢٠٠٦ – دفقات للنشر
رواية – مذاق النهار ٢٠٠٦ – دفقات للنشر

الجوائز

- المبدالية الذهبية وشهادة تقدير فى القصة من وزارة التربية والتعليم – الأقليم الجنوبى – كتاب عيد العلم عام ١٩٦١ م
- المركز الأول – فى مارثون القصة القصيرة ابداعات القادة– جهاز الشباب والرياضة عام ١٩٩٦ م
- المركز الثانى عن رواية (نغداً تاكل التفاح) – من نادى القصة بالقاهره عام ٢٠٠٠ م
- المركز الثانى فى القصة القصيرة عام ٢٠٠١ م عن قصة (صرصار جاف يتحرك) – من نادى القصة بالقاهرة
- شهادة تقدير عن مجموعة قصص (العكاكيز) من المجلس الأعلى الثقافة ٢٠٠٣ م
- المركز الأول فى الرواية – من نادى القصة بالقاهرة عام ٢٠٠١ / ٢٠٠٢ م عن رواية (أكثر من عمر)
- مع طبع الرواية بسلسلة الكتاب الفضى.

كتب صدرت عن دفقات للنشر

١- العكاكيز – قصص
٢- تلطيمة ابن خليل – رواية
٣- أقنعة الصفاقة المدهشة – قصص
٤- صحراء الذهب – قصص- حميدة راقم
٥- عبد الله والمدينة – رواية
٦- للبحر حالات – رواية
٧- رجل الخوف – مسرحيتان – شريف محى الدين
٨- العمامة والتاج – رواية
٩- البندقدارى – رواية تاريخية